لا

يأتون بمثله

الشيخ محمد قطب

موقع الصحوة
http://www.sahwah.net

مقدمة

منذ فترة من الزمن، ظهر على ((الإنترنت)) كلام مسجوع من تأليف عربى لا يدين بالإسلام، يعيش فى أمريكا، يحاول فيه أن يقلد النسق القرآنى، من حيث تقسيم الكلام إلى عبارات مسجوعة تنتهى بحرف الميم أو النون مسبوقة بمد يائى أو واوى0 وظن المسكين أنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل، كما قال الشاعر:

وإنى وإن كنت الأخيرة زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل[1]

كما ظن أنه بعمله هذا قد أبطل التحدى الذى تحدى الله به الإنس والجن حين قال سبحانه:(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[2]0 وكأنه يقول: هاأنذا قد أتيت بمثله! وإذاً فقد أبطلت التحدى، وأبطلت دعوى الإعجاز القرآنى الذى قامت عليه رسالة محمدﷺ 00 وإذاً فالإسلام ليس من عند الله، إنما هو صناعة بشرية قام بها محمدﷺ!

ولعل المسكين لم يعلم أن مسيلمة الكذاب قد قام بمثل هذا العمل من قبل، وأتى بسجعات مثل سجعاته قال إنها مثل القرآن0 ومر الزمن وبطلت سجعات مسيلمة، وبقى القرآن يتحدى الإنس والجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها0

ولكن هذه الأضحوكة الساذجة التى قام بها مسيلمة المتأمرك- وإن لم يدع بها النبوة كسلفه الجاهلى- حفزتنى إلى أن أعاود الكتابة فى موضوع كنت قد أشرت إليه فى كتاب سابق بعنوان((دراسات قرآنية))، وهو موضوع الإعجاز الشامل للقرآن الذى لا ينحصر فى الإعجاز البيانى، الذى توجه إليه الاهتمام الأكبر فى كتابات الأقدمين، لأسباب لا يصعب إدراكها0

لقد كان العرب فى جاهليتهم قوما أولى فصاحة نادرة، وكانوا يعتزون بفصاحتهم إلى الحد الذى أطلقوا على غير الناطقين بلغتهم لفظة ((العجم)) ووصفوهم بـ ((العجمة))، وفيها إشارة واضحة إلى

[1] البيت لأبى العلاء المعرى0
[2] سورة الإسراء: 88

أنهم يعدونهم دونهم لا لسبب إلا لأنهم لا يستطيعون الكلام باللغة الفصيحة– لغتهم هم– التى يتميـــزون بها!

وإذ كان ديدن الرسالات السماوية أنها تتحدى المنكرين بمعجزة تفوق قدراتهم البشرية، ليستيقنوا أنها من عند الله، ولو جحدوها ظاهرا، إمعانا فى الكفر والعناد كما قال سبحانه وتعالى عن موقـــف آل فرعون من معجزات موسى عليه السلام: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً)[1]0

إذ كان هذا ديدن الرسالات، فقد تحدى الله سبحانه وتعالى كل قوم فيما برعوا فيـــه وعـــدوه موضع فخرهم0 فتحدى قوم فرعون بآيات تفوق السحر الذى كانوا بارعين فيه، وكانوا يـــستخدمونه لفتنة الناس عن ربهم، وتأليه الفرعون بدلا من الله وتحدى قوم عيسى عليه السلام بآيات تفوق براعتـــهم فى الطب الذى كانوا يمارسونه ويعتزون بإتقانه؛ فأعطاه القدرة على نفخ الحياة فى الطين، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، ليستيقنوا أنه من عند الله:

((ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطـــير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون ومـــا تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين))[2]0

فلما بعث الله الرسول الخاتمﷺ فى العرب، كان من المناسب أن تكون الآية التى يتحـــدى بهـــا المنكرين فصاحة من نوع ودرجة لا يقدرون على الإتيان بمثلها، لتستيقنها أنفسهم ولو جحدوا بها ظاهراً كقوم فرعون، فكانت معجزته الكبرىﷺ هى هذا القرآن، الذى تحداهم أن يأتوا بمثله فلم يـــستطيعوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فلم يستطيعوا، بصرف النظر عن المحاولة العابثة التى قام بها مسيلمة الكذاب، والمحاولة الأخرى التى قامت بها المتنبئة سجاح، فلم تستطع هذه ولا تلك أن تقنع العرب بـــأن القرآن يمكن أن يأتى أحد بمثله. (هذا بالإضافة إلى أن الله قد أراد أن تكون معجزة الرسولﷺ باقية على الزمن، لا تذهب بذهاب القوم الذين شاهدوها، لأن الله أراد أن يكون محمدﷺ خاتم النبيين، وأن تكون رسالته هى الرسالة الخاتمة، الباقية إلى آخر الزمان)0

---

[1] سورة النمل : 14 0

[2] سورة آل عمران : 49

إذا أدركنا ذلك،أدركنا سر اهتمام القدامى من الكتاب العرب بالإعجاز البيانى فى القرآن، حيث كان هو موضع التحدى، وحيث كان عجز العرب- المعتزين بفصاحتهم- عن الإتيان بمثله، دليلا يقينيا على أن هذا القرآن هو كلام الله، وليس من كلام البشر، وأنه- بهذه الصفة- هو دليل صدق الرسولﷺ فى رسالته0

نعم00 ولكن القرآن لم يكن معجزا فى بنائه اللفظى وحده وإن كان إعجازه اللفظى كافيا- وحده- للدلالة على أنه من عند الله، وكافيا- وحده- لإقامة التحدى أمام الإنس والجن إلى قيام الساعة!

القرآن معجز فى جميع مجالاته، وعلى جميع أصعدته00

وإذا كان القدامى- لأسباب مفهومة- قد وجهوا أكبر اهتمامهم للإعجاز البيانى، الذى تحدى القرآن به الجاهلية العربية وآلهتها المزيفة، فقد آن لنا أن نتدبر جوانب الإعجاز الأخرى فى هذا الكتاب المعجز، التى لا تقل إعجازا عن الإعجاز البيانى، والتى نحن فى حاجة إلى تدبرها، وبيانها، وإبرازها، لتحدى الجاهلية المعاصرة، التى تتخذ صورة ((العلمانية))، وترفع شعارات((العلم))و((العقلانية))و((التنوير))؛ لتفتن الناس عن ربهم ودينهم، وتؤله((الإنسان)) بدلا من الله، وتسعى- بحماقة- إلى تدمير الإنسان، بإبعاده عن مصدر النور الحقيقى:

((الله نور السموات والأرض))([1])0

((يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون* هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون))([2])0

ولن يفى كتاب واحد- مهما تضخمت صفحاته- بالحديث عن كل مجالات الإعجاز فى القرآن، فهى فى حاجة إلى أن يتفرغ لها كتاب وباحثون، بحيث تتكون من مجموع بحوثهم مكتبة كاملة من إعجاز القرآن، سواء الإعجاز البيانى الذى لا تنفد عجائبه، أو الإعجاز الدعوى، بوصفه كتاب دعوة قد أبرز عقيدة التوحيد الصافية كما لم يبرزها كتاب قط، ودخل بها إلى قلوب البشر من جميع

(5) سورة النور:35 0

[2] سورة الصف (8،9)

منافذها وأقطارها كما لم يفعل كتاب قط، أو الإعجاز التشريعى الذى تضمن شريعة متكاملة وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم لا فى زمان نزولها فحسب، بل مهما امتد بهم الـــزمن وتعـــددت مجـــالات الوجود، أو الإعجاز التربوى الذى أخرج خير أمة أخرجت للناس، أو الإعجاز العلمى الذى تتكـــشف آياته كلما زاد البشر علماً بما حولهم من الكون00

ولكن ضخامة الجهد المطلوب، وسعة الميادين المفتوحة للدراســة والبحـــث، لا تمـــنعنى أن أدلى بجهدى المتواضع الذى لا أبغى به أكثر من أن يكون مجرد إرشادات، لعلها تحفز الباحثين إلى أن يبحثوا، والمفكرين إلى أن يتدبروا كما أمرهم الله: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيـــه اختلافاً كثيراً) ([1]) 0

أرجو الله أن يجعل هذا العمل خالص لوجهه، وأن يتقبل منى جهدى على ضآلته، وأن يعيننى على ذكره وشكره وحسن عبادته؛ فما أحوجنى إلى عونه، وما أحوجنى إلى رضاه، وما أحوجنى إلى عفوه عن الزلات والهفوات والغفلات00 اللهم عفوك ورضاك يا أكرم الأكرمين0

من الإعجاز البيانى

كتب الكثير عن الإعجاز البيانى للقرآن،ولست هنا أضيف شيئاً إلى ما قيل، وإنما هى وقفـــات سريعة تمثل بعض إنطباعاتى فى هذا المجال0

أشرت من قبل فى كتاب ((دراسات قرآنية)) إلى ما يطلق عليه ظاهرة التكرار فى القرآن0 وقلت إن القرآن نادر جدا فى القرآن الكريم لا يتجاوز آيات معدودة جاءت بنصها فى أكثر من سورة0 ولكن الظاهرة الحقيقية ليست هى التكرار إنما هى التشابه الذى يؤدى إلى التنوع، وقلت إنها كثمار الجنة تبدو لأول وهلة أنها هى هى، ولكنها عند المذاق يتبين الفرق بينها وبين ما كان من قبل: (كلما رزقوا منـــها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً) ([2])0

---

[1] سورة النساء (82)0

[2] سورة البقرة0

وهذا التشابه الذى يؤدى إلى التنويع هو ذاته لون من الإعجاز0 فالموضوع الواحد يعرض مرارا، ولكنه يعرض فى كل مرة مختلفا عما سبقه نوعا من الاختلاف، فيكون جديدا فى كل مرة، ويكون- مع التلاوة المستمرة للقرآن- متجددا على الدوام0

وقد يكون الاختلاف فى حرف واحد، ولكنه يغير الصورة!

خذ هذا النموذج:

((وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم)) ([1])0

((وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم))([2])0

هناك نوعان من الاختلاف بين الآيتين — وإن كان موضوعهما واحدا — فالآية الأولى خطاب من الله تبارك وتعالى إلى بنى إسرائيل يذكرهم بنعمه عليهم، ويمن عليهم بأنه نجاهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب، والثانية خطاب من موسى عليه السلام إلى قومه يذكرهم بنعم الله عليهم، ويذكرهم بالذات بتلك النعمة الكبرى، وهى تنجيتهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب، بالإضافة إلى التغيير فى صيغة الفعل: نجيناكم وأنجاكم، أحدهما متعد بالتضعييف والآخر متعد بالهمزة، وأحدهما بضمير المتكلم والثانى بضمير الغائب0

ولكن انظر إلى الجزء الخاص بالعذاب الذى كان يوقعه آل فرعون ببنى إسرائيل. إن فيه اختلافا بين الآيتين يحدث تغييرا فى الصورة :

((يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم))0

((يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم))0

---

[1] سورة البقرة (49)

[2] سورة إبراهيم (6)0

إن الفارق بين العبارتين حرف واحد، هو الواو التى جاءت فى الآية الثانية قبل كلمة ((يذبحون))، ولكن انظر كم أحدث الحرف الواحد من الاختلاف بين الصورتين!

فى الصورة الأولى ينحصر العذاب فى قتل الأولاد واستحياء النساء، وفى الثانية يصبح هذا الأمر واحدا فقط من ألوان العذاب التى تصب على بنى إسرائيل، وإن كان السياق يوحى بأنه من أبرزها، وأشدها وأخبثها. إذ أجمل ((سوء العذاب)) وفصل قتل الأولاد واستحياء النساء))0

ذلك مجرد نموذج ينفى خاطر ((التكرار)) الذى يتوهمه قارئ القرآن لأول وهلة، ويبرز بدلا منه ظاهرة ((التشابه)) التى تؤدى إلى التنويع، والتى تشبه ثمار الجنة الموصوفة فى القرآن الكريم0

فإذا تدبرنا مجالين بالذات يوهمان بالتكرار للوهلة الأولى، بينما حقيقتهما التشابه وليس التكرار، فذانك هما قصص الأنبياء مع أقوامهم، وصور النعيم والعذاب فى اليوم الآخر، وهما من أكثر الموضوعات ورودا فى القرآن الكريم، ولكن بشكل مختلف فى كل مرة، وذلك – فى ذاته – كما أشرنا من قبل لون من الإعجاز، لا يرد بهذه الصورة فى كلام البشر المحدودى القدرة فى مجال التعبير0

خذ هذا النموذج من قصة نوح فى ثلاث سور من سور القرآن0

من سورة هود :

((ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين(25) أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم(26) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين(27) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون(28) ويا قوم لا أسألكم عليه ما لا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون(29) ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون(30) ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين(31) قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين(32) قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين(33) ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن

أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وغليه ترجعون(34) أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برئ مما تجرمون(35) وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون(36) واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون(37) ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون(38) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم(39) حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل(40) وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم(41) وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين(42) قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين(43) وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين))([1])

ومن سورة الأعراف:

((لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (59) قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين(60) قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين)(61) أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون(62) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون(63) فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين))([2])0

ومن سورة الشعراء :

((كذبت قوم نوح المرسلين(105) إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون(106) إنى لكم رسول أمين(107) فاتقوا الله وأطيعون(108) وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين(109) فاتقوا الله وأطيعون(110) قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون(111) قال وما علمى بما كانوا يعملون(112) أن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون(113) وما أنا بطارد المؤمنين(114) إن أنا

[1] سورة هود : (25 – 44)
[2] سورة الأعراف : (59-64)

إلا نذير مبين(115) قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن مـــن المرجـــومين(116) قـــال رب إن قـــومى كذبون(117) فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين(118) فأنجيناه ومن معه فى الفلـــك المشحون(119) ثم أغرقنا بعد الباقين(120) إن فى ذلك لآية وما أكثرهم مؤمنين(121) وإن ربك لهو العزيز الرحيم)) ([1])0

ومن سورة الشعراء :

((كذبت قوم نوح المرسلين(105) إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون(106) إنى لكم رســـول أمين(107) فأتقوا الله وأطيعون(108) وما أسألكم عليـــه مـــن أجـــر إن أجـــرى إلا علـــى رب العالمين(109) فاتقوا الله وأطيعون(110) قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون(111) قال وما علمى بما كانوا يعملون (112) إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون()113) وما أنا بطارد المؤمنين (114) إن أنا إلا نذير مبين(115) قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجـــومين(116) قـــال رب إن قـــومى كذبون(117) فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين(118) فأنجيناه ومن معه فى الفلـــك المشحون(119) ثم أغرقنا بعد الباقين (120) إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مـــؤمنين(121) وإن ربك لهو العزيز الرحيم))(2)0

إنها قصة واحدة 00 قصة نوح مع قومه، وجدالهم معه، وردوده عليهم، وتكذيبهم له، وإغراقهم فى النهاية ونجاة المؤمنين0

ولكن هل هى واحدة فى السرد القرآنى، أم إنها صور متعددة وإن تشابهت فى عمومياتهـــا، وفى بدئها وفى نهايتك؟

إن اختلاف الصور فى طرق السرد المختلفة هو فى ذاته جمال، لأنه يعطى فى كل مرة جوا مختلفا للقصة فى نفس القارئ، والسامع، فكأنها قصة جديدة، مع أن الأشخاص هم هم، والوقائع هى هـــى فى النهاية0

---

[1] سورة الشعراء : 105 – 122

ولكن القصص فى القرآن لا يرد لمجرد القصص، وإن كان مشتملا من الناحية الفنية الجمالية على عناصر الجمال الفنى التى تجعل له مدخلا لطيفا إلى النفس، فيكون أبلغ تأثيرا فيها، مما لو كان مجرد فكرة أو قضية تخاطب العقل وحده ولا تخاطب الوجدان0

ولكن الروعة فى هذا القصص أنه – مع جماله الفنى – يؤدى هدفا دعويا مما يشتمل عليه كتاب الدعوة الأعظم، فى تناسق كامل بين الهدف الدعوى والجمال الفنى.. وإذ كانت الأهداف الدعوية كثيرة ومتعددة ومختلفة، يجئ القصص القرآنى فى صورة مختلفة فى كل مرة، متناسقة مع الهدف المقصود من إيراد القصة، مع توافر الجمال الفنى فى كل مرة0

ولنراجع قصة نوح فى السور الثلاث التى أثبتناها منذ قليل، لنرى تناسقها فى كل مرة مع الهدف من إيراد القصة00

الهدف من إيراد القصة فى سورة هود – كما هو مذكور فى سياق السورة – ثلاثة أمور:

((ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد(100) وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب(101) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد (102) إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود))([1])

((وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين))([2])0

فهى إنذار للناس لكى يحذروا عذاب الآخرة ويتقوه .. وهى تثبيت لقلب الرسولﷺ، وهى موعظة وذكرى للمؤمنين0

وكان من المناسب لهذه الأهداف الثلاثة تطويل العرض، والإكثار من ذكر التفاصيل فيما وقع بين كل رسول وقومه. وكان ذلك مناسبا بصفة خاصة للهدف المتعلق بتثبيت قلب الرسولﷺ وهو

[1] سورة هود : 100 - 103

[2] سورة هود : 1020

يلقى العنت من قومه : من تكذيبهم وجدلهم واللدد فى خصومتهم.. فها هو ذا رسول سابق من رسـل الله قد لقى مثل ذلك العنت، وصبر عليه، ثم نجاه الله وقضى على الذين كذبوه00

أما الهدف فى سورة الأعراف – كما جاء فى سياق الصورة – فهو هذا البيان:

((وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يـضرعون(94) ثم بـدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الـضراء والـسراء فأخـذناهم بغتـة وهـم لا يشعرون))([1])0

فالتركيز هنا هو على الأخذ المباغت، وليس على ما جرى من أحداث بين الرسول وقومه، فـلا يركز عليها فى السياق0

وأما فى سورة الشعراء فهدف إيراد القصة – كما هو مذكور فى السورة – أن الكفار يطـالبون الرسول ﷺ بآية تجعلهم يصدقون أنه رسول من عند الله. فجاء التركيز فى القصة على الآية، وهى إهلاك المكذبين وتنجية المؤمنين، وليس على تفاصيل الأحداث كما كان الحال فى سورة هود0

وهكذا يتم للقصة جمالها الفنى مع وفائها – فى كل مرة – بالهدف من إيراد القـصة، وتتنـوع الصور فى كل مرة بما يناسب سياق العرض00

وذلك من الإعجاز 00

* * *

والشأن كذلك فى مشاهد القيامة، وهى كثيرة متنوعة، تعرض أحيانا فى اختـصار شـديد، فى كلمات معدودات، وأحيانا بالتفصيل فى آيات متواليات، وفى كل مرة تعطى جوا خاصا، يتناسب – من جهة – مع قصر السورة أو طولها، ومن جهة أخرى مع السياق المعروض فى السورة، ولكل سورة مـن سور القرآن جوها الخاص وسياقها الخاص، وإن اشتركت جميعا فى هدف واحد كبير مشترك، هو هداية للناس إلى ربهم، وتعريفهم به، وبما يجب عليهم تجاهه – سبحانه – من خالص العبادة وخالص الطاعة0

خذ مثالا من أمثلة الإيجاز البليغ ، سورة القارعة :

---

[1] سورة الأعراف : 94 ، 95

((القارعة(1) ما القارعة (2) وما أدراك ما القارعة(3) يوم يكون الناس كالفراش المبثــوث(4) وتكون الجبال كالعهن المنفوش(5) فأما من ثقلت موازينه(6) فهو فى عيشة راضية(7) وأما من خفــت موازينه(8) فأمه هاوية (9) وما أدراك ما هية (10) نار حامية))[1]

وخذ صورة أخرى أكثر تفصيلا، ولكن فى غير طول، فى سورة الغاشية :

((هل أتاك حديث الغاشية (1) وجوه يومئذ خاشعة(2) عاملة ناصبة(3) تصلى ناراً حامية(4) تسقى من عين آنية(5) ليس لهم طعام إلا من ضريع(6) لا يسمن ولا يغنى من جوع(7) وجوه يومئــذ ناعمة(8) لسعيها راضية(9) فى جنة عالية(10) لا تسمع فيها لاغية(11) فيها عين جارية(12) فيهــا سرر مرفوع (13) وأكواب موضوعة(14) ونمارق مصفوفة(15) وزرابى مبثوثة))[2]0

وخذ وصفا أكثر تفصيلا للعذاب، فى سورة الحج:

((هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يــصب مــن فــوق رءوسهم الحميم(19) يصهر به ما فى بطونهم والجلود(20) ولهم مقامع من حديد(21) كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق)) ([3])0

أو هذا المشهد من سورة الواقعة:

((وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال(41) فى سموم وحميم(42) وظل من يحموم(43) لا بارد ولا كريم(44) إنهم كانوا قبل ذلك مترفين(45) وكانوا يصرون على الحنث العظــيم(46) وكــانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعثــون(47) أو آباؤنـــا الأولــون(48) قــل أن الأولــين والآخرين(49) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم(50) ثم إنكم أيها الضالون المكذبون(51) لآكلون من شجر من زقوم(52) فمالئون منها البطون(53) فشاربون عليه من الحمــيم(54) فــشاربون شــرب الهيم(55) هذا نزلهم يوم الدين))([4])

---

[1] سورة القارعة : 1-11

[2] سورة الغاشية : 1 - 16

[3] سورة الحج : 19-22

[4] سورة الواقعة : 41-56

ثم خذ هذا المشهد المفصل للنعيم، من سورة الإنسان:

((فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً(11) وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (12) متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا(13) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا(14) ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا(15) قوارير من فضة قدروها تقديرا(16) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا(17) عينا فيها تسمى سلسبيلا(18) ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً(19) وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكاً كبيرا(20) عاليهم ثياب من سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهوراً(21) عن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً))([1])0

ماذا تجد فى نفسك حين تتبع هذه المشاهد فى القرآن الكريم؟

إنك أولاً فى عرض متنوع على الدوام، سواء من حيث الإيجاز والتطويل، أو من حيث مفردات الوصف للنعيم والعذاب، التى تختلف فى كل معرض عنها فى المعرض الآخر، والتى تشكل فى كل مرة صورة مختلفة عن الصورة الأخرى، حتى إن اتحدث فى عموميتها0

وأنت ثانياً فى عرض حى متدفق الحيوية، لا تملك ألا تنفعل به نفسك، ويتأثر به وجدانك0 بل لا تملك إلا أن تعيش فيه كأنه حاضر أمامك اللحظة، يحيط بك من كل جانب، ويأخذ عليك أقطار نفسك، بل يصل التأثر به أن يعيش الإنسان فيه كأنه حاضر، وكأن الحياة الدنيا- التى هى الحاضر فى الحقيقة- كانت واقعا قديما، حدث ذات يوم ثم مضى وانقضى، وليست هى التى يعيشها الإنسان فى هذه اللحظة، فيظل خاطر الآخرة حيا فى النفس لا يفارقها، بما تشتمل عليه من صور النعيم والعذاب، الأولى تدفع الشوق إلى الجنة، والثانية تحذر من الوقوع فى العذاب0 وذلك من الإعجاز00

* * *

وثمة مجال ثالث يبدو فيه التنويع- لا التكرار- أوضح ما يكون، ذلك مجال الآيات الدالة على قدرة الله00

[1] سورة الإنسان 11-22

إن القرآن– كما قلنا– كتاب هداية، مهمته الأولى هداية الناس إلى ربهم، وإلى الصراط المستقيم:

((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين(15) يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)) ([1])

وأوسع الأبواب التى ترد فى القرآن لتعريف الناس بربهم هو الآيات الدالة على قدرة الله، والتى تؤدى بالقلب البشرى– حين يتدبرها على حقيقتها– أن ينبذ الآلهة الزائفة كلها، ويتعلق بالإله الحق، الذى لا إله غيره، ويعبده وحده بلا شريك0

وفى مكان آخر من الكتاب سنتكلم عن هذه النقطة فى مجال الإعجاز الدعوى، والإعجاز التربوى0 إنما نريد هنا أن نتحدث عنها من ناحية دخولها فى ظاهرة التنويع، التى يخيل للإنسان للوهلة الأولى أنها تكرار، ولكنها ليست تكراراً فى الحقيقة، إنما هى عرض متنوع على الدوام0

الآيات فى مجملها واحد: خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وتدبير الكون، والهيمنة التامة على كل ما فى الوجود ومن فى الوجود، سواء فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل، والحاكمية المطلقة على كل شئ فى الكون المادى أوفى حياة البشر0

ولكن هذه الأمور لا تأتى فى صورة واحدة00 بل فى مئات الصور فى القرآن من أوله إلى آخره0

وتختلف الصور00 مرة من حيث الطول والقصر، ومرة من حيث المفردات المذكورة فى كل منها، ومرة من حيث الحجم الذى تأخذه كل مفردة من المفردات فى سياق السورة0

فخلق السموات والأرض ربما كان أكثر الآيات ورودا فى معرض إثبات قدرة الله التى لا تحدها حدود. ولكن هذه القضية الواحدة ترد فى صور شتى تجعلها جديدة وقائمة بذاتها فى كل مرة:

((هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم))([2])0

---

[1] سورة المائدة:15، 16 0

[2] سورة البقرة : 29 0

((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون))[1] 0

((هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون(10) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن ذلك لآية لقوم يتفكرون(11) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون(12) وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون(13) وهو الذى سخر البحر لتأكلون منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون(14) وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون(15) وعلامات وبالنجم هم يهتدون(16) أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون))([2])

فكيف ترى فى هذه الآيات ؟!

أهى ذات المشاهد المألوفة التى يتبلد عليها الحس لأنها مكرورة أمامه؟ أم إنها أمر آخر جديد يهز الوجدان ويحرك المشاعر؟!

وما الجديد فيها؟!

إن الجديد فيها شيئان يبرزهما السياق. الأول أن السياق يعرضها لا على أنها ((مرئيات)) أمام الإنسان يطلب منه أن يشاهدها، أو حتى أن يلتفت إليها التفاتا خاصا.. إنما يصلها مباشرة بالقدرة القادرة التى أوجدتها، والتى تحركها وتدبر أمرها.. تصلها بالله؛ فيشاهدها الإنسان – مع السياق القرآنى– فى ثوب جديد غير ذلك الذى تبلد عليه الحس. فتنتفض حية فى الوجدان، لأن الوجدان يتابع فيها يد الصانع القادر الجليل، فى كل شيء بمفرده، وفى المجموع الذى تكونه المفردات.. فينبض القلب بالتأثر العميق([3]) 0

---

[1] سورة البقرة : 164 0

[2] سورة النحل : 10-17

[3] سنتعرض لهذه النقطة مرة أخرى فى الحديث عن الإعجاز الدعوى0

أما الشىء الآخر فهو التنوع المستمر فى العرض.. إن له خاصية ذات تأثير، هى إحياء المـــشهد المعروض كأنه فى كل مرة جديد 00

وذلك من الإعجاز 00

* * *

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن التنويع ذاته هو آية من آيات الله التى يشار إليها نصا فى معـــرض الحديث عن آيات الله فى الخلق0

((ومن آياته خلق السموات والأرض واخـــتلاف ألـــسنتكم وألـــوانكم إن فى ذلـــك لآيـــات للعالمين))([1])0

((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود(27) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله مـــن عباده العلماء إن الله عزيز غفور))([2])0

ويلفت النظر فى هذا النص الأخير أن التعبير عن التنويعن جاء من خلال التنويع فى بعض ألفـــاظ العبارة ذاتها، ما بين التذكير والتأنيث، والرفع والنصب:

((مختلفا ألوانها))

((مختلف ألوانها))

((مختلف ألوانه))

خذ كذلك هذا النص من سورة الأنعام :

((إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت مـــن الحـــى ذلكـــم الله فـــأنى تؤفكون(95) فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم(96)

---

[1] سورة الروم : 22

[2] سورة فاطر : 27 ، 28

وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون(97) وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون(98) وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون))([1])0

إن التنويع فى عبارات الآيات واضح بصورة تلفت النظر 00

ففى الآية الأولى لم يقل: يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى كما هو المعتاد فى الآيات الأخرى، ولكن قال: ((ومخرج الميت من الحى)) وهذا تنويع 0000

وفى الآية الثانية لم يقل: فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا كما هو المعتاد فى عطف الاسم على الاسم، ولكن قال : ((وجعل الليل سكنا)) وهذا تنويع 00

وفى الآية الرابعة لم يقل: هو الذى أنشأكم من نفس واحدة فجعل لها مستقرا ومستودعا كما يتوقع أ، يكون السياق العادى فيجرى العطف بين فعل وفعل، إنما حذف الفعل الثانى وجئ بمعموله مرفوعاً كأنه نائب فاعل (فجعل لها مستقر ومستودع) وهذا تنويع00

وفى الآية الخامسة تكرر الفعل (فأخرجنا) ((فأخرجنا)) فى الزمن الماضى وجاء بعده المضارع (نخرج) وفى هذا تنويع.. ثم تجاور فى العبارة اسمان مرفوعان بالضمة (قنوان دانية)، واسمان أحدهما منصوب بالكسرة والثانى مجرور بالكسرة (وجنات من أعناب) وسامان منصوبان بالفتحة (والزيتون والرومان). وأخيرا جاءت كلمة فى صيغتين مختلفتين (مشتبها) و (متشابه) وذلك كله تنويع00

وذلك من الإعجاز 0

* * *

ثم يلفت النظر نوع آخر من التنويع فى عرض آيات القدرة الربانية 00

---

[1] سورة الأنعام : 95-99

ففضلا عن كون التنويع يذكر – فى ذاته – على أنه من آيات الله الدالة على القـــدرة الـــتى لا تحدها حدود، والتى لا تخلق فحسب، بل تخلق أنواعا مختلفة من كل شىء، وفضلا عن التنويع الذى يرد فى العبارات ليلفت النظر إلى ظاهرة التنويع فى الخلق، فإن إيراد آيات القدرة يأخذ فى كل مـــرة (جـــو) السورة الذى ترد فيه 0

فالآيات فى مجملها واحدة كما أشرنا من قبل: خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وتـــدبير الكون، والهيمنة التامة على كل ما فى الوجود وكل من فى الوجود، ســـواء فى الماضـــى أو الحاضـــر أو المستقبل، والحاكمية المطلقة على كل شىء فى الكون المادى أو فى حياة البشر.. ولكنها حين تعرض فى سورة يغلب عليها جو الرضا الربانى على المؤمنين، أو التذكير اللطيف الذى يدعو النـــاس إلى الإيمـــان، تأخذ صورة مختلفة عنها هى ذاتها حين تعرض فى سورة يغلب عليها جو الغضب الربانى على الكفار أو جو النذير 00

ولنعد إلى المثال الذى ذكرناه آنفا من سورة الأنعام، الذى جاء فى آخره قوله: ((إن فى ذلكـــم لآيات لقوم يؤمنون) بمعنى أنه جاء فى معرض التذكير بآيات الله لدعوة الناس إلى الإيمـــان. ولنـــضع إلى جانبه هذه الآيات من سورة يس، التى تشمل ((الموجودات)) نفسها أو الآيات نفسها، ولكن فى جـــو مشحون بالغضب على الكافرين المعاندين، ولننظر كيف تختلف طريقة العرض:

((وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون(33) وجعلنا فيها جنات مـــن نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون(34) ليأكلون من ثمره وما عملته أيديهم أفـــلا يـــشكرون(35) سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون(36) وآية لهـــم الليـــل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون(37) والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم(38) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم(39) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليـــل ســـابق النهار وكل فى فلك يسبحون(40) وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون(41) وخلقنا لهم مـــن مثله ما يركبون(42) وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون (43) إلا رحمة منا ومتاعـــا إلى حين))[1] 0

[1] سورة يس : 33 – 44

فالعيون تفجر، والليل يسلخ منه النهار، والظلام يسود فجأة، وآخر صورة للقمر هـــى كونـــه كالعرجون القديم، والشمس لا تدرك القمر ولا ينبغى لها والليل لا يسبق النهار، ولا ينبغى له. والفلـــك مشحون. وهم منذرون بإمكان إغراقهم فى وضع لا ينجدهم فيه أحد ولا يسعى لإنقاذهم أحد !

وما أبعد هذه الصورة عن الصورة الواردة فى سورة الأنعام، وإن كانت كلتاهما تتحـــدث عـــن الشمس والقمر والزرع والثمار !

وذلك من الإعجاز 00

* * *

كنا حتى الآن نتحدث عن ظاهرة واحدة من ظواهر الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم، هى ظاهرة التنويع، وذلك فى مجالات رئيسة ثلاثة : قصص الأنبياء مع أقوامه، ومشاهد القيامـــة، وآيـــات الله فى الكون. ولكن الظاهرة لا تنحصر – كما ألمحنا فى أول الكلام – فى هذه المجالات الثلاثة، فهى ظـــاهرة عامة فى القرآن كله، وفى كل موضوعاته، ضربنا لها مثلا فى قولـــه تعـــالى فى (ســـورة البقـــرة:25) ((يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم)). وقوله تعالى فى (سورة إبـــراهيم:6) ((يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم))، والأمثلة كثيرة فى القـــرآن الكـــريم تلفت انتباه كل قارئ يقرأ بوعى، سواء أدرك الحكمة فيها أم لم يدركها، كقوله تعالى: ((وجـــاء مـــن أقصا المدينة رجل يسعى))([1]) وقوله تعالى: ((وجاء رجل من أقصا المدينة يـــسعى))([2])، فـــالتركيز فى الأولى على المجئ من أقصى المدينة، بما يوحى بأهمية الأمر الذى حفز الرجل على قطـــع تلـــك المـــسافة الكبيرة، والتركيز فى الثانية على الرجل ذاته، بما يوحى باهتمامه الخاص بالأمر، وأنه حريص على سلامة موسى عليه السلام (والراجح أنه هو الرجل المؤمن من آل فرعون الذى ناصر موســـى فيمـــا بعـــد فى مواجهة فرعون). وقوله تعالى عن اليهود ((يحرفون الكلم عن مواضعه)([3]) وقوله عنهم ((يحرفون الكلم من بعد مواضعه))([4]). ففى الأولى يشير إلى تحريفهم لكلام الله، وما فى ذلك من لؤم والتواء، وفى الثانية يشير إلى تجرؤهم على الله سبحانه وتعالى بأن يقرر الأمر فيقرروا غيره من بعد تقرير الله له، وما فى ذلك

[1] سورة يس : 20 0

[2] سورة القصص : 20 0

[3] سورة المائدة : 13 0

[4] سورة المائدة : 41 0

من توقح وتمرد على رب العالمين. وفى مثل تلك المواضع يكون للتنويع دلالة خاصة تـضاف إلى مجـرد التنويع، الذى هو فى ذاته هدف مقصود0

وذلك من الإعجاز 00

* * *

ولكن ظاهرة التنويع – على تعدد مجالاتها فى القرآن الكريم – ليست وحدها التى تحمل الإعجاز البيانى فيه. فللإعجاز البيانى فى القرآن تجليات كثيرة فى مجالات كثيرة، ليس من الـضرورى أن تكـون ظاهرة عامة فى كل مرة، فقد تكون فى آية، وقد تكون فى حرف من آية، كما سنضرب الأمثلـة مـن أماكن متفرقة من كتاب الله الكريم، لمجرد التوضيح لا على سبيل الحصر.. فالأمر يفوق الحصر!

فى دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى سورة البقرة، وردت هذه الآيات:

((وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العلـيم(127) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا إنـك أنـت التـواب الرحيم(128) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويـزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم))()0

لاحظ نغمة المد فى هذه الكلمات بما يناسب جو الدعاء (منا إنك) ((ومن ذريتنا أمة)) ((وتـب علينا إنك 00)0

ثم لاحظ تغير النغمة بما يوحى بانتهاء الدعاء : ((ويزكيهم إنك 00))0

إن حركات المد فى العبارات الأولى تشعرك بالاستغراق فى الدعاء، والرغبة فى التعبير عن مشاعر عميقة تملأ قلبيهما وهما يتوجهان هذا التوجه الخاشع بين يدى الله وهما يقيمان قواعد البيت، بينما اليـاء فى كلمة (ويزكيهم) توحى بأن الدعاء قد وصل إلى غايته، وأنه يوشك أن ينتهى، بعد أن بثا مشاعرهما لله العلى العظيم. وحين تصور الكلمات – وهى مجرد كلمات – مشهداً كاملاً جياشا على هذا النحو، وتعطى صورة الأكف المرفوعة بالضراعة، ثم حركة الأكف وقد أوشكت أن تفرغ من الدعاء هابطة إلى أسفل.. يكون هذا من الإعجاز0

* * *

فى سورة آل عمران ترد هذه الآيات :

((كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب([1]) هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء))([2])0

المشهد هو مريم منقطعة للعبادة فى المحراب، وزكريا لا يفتأ يدخل عليها يتفقد أحوالها، فهو كفيلها المسئول عن تربيتها ورعايتها، فيجد عندها رزقا متجددا فيسألها: من أين لها هذا وهى لا تبارح المكان ولا تسعى على الرزق، فتجيبه فى براءة وبساطة : ((هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)). فتجيش نفس زكريا بمشاعر هائلة، وهو يرى الفيض الإلهى يفيض على مريم، وهى الطفلة التى لا حول لها ولا طول. فيشتاق.. يشتاق إلى الذرية، ولم يكن قد رزق بالولد بعد، ويشتاق إلى أن يفيض الله عليه من نعمائه كما أفاض على هذه الطفلة الصغيرة التى كلفه الله برعايتها.. ((هنالك)) دعا زكريا ربه00

((هنالك)) .. ما دلالة اللام فى هنالك؟!

إن اللغويين والبلاغيين يقولون إنها تعبر عن البعد. فالشىء يشار له بكلمة ((هنا)) إذا كان حاضرا قريبا تدركه العين أو اليد لقربه. ويشار إليه بكلمة ((هناك)) إذا كان بعيداً عن متناول اليد.. ثم إذا اشتد بعده يشار إليه بكلمة ((هنالك)) بزيادة اللام لتعطى مزيدا من البعد 00

فأين البعد هنا ؟

هذا هو المحراب، وهذه هى مريم، كلاهما حاضر قريب. وهذا هو زكريا معها فى نفس المكان00

لا بعد فى المكان، ولا بعد فى الزمان0

إنما البعد فى أغوار النفس !

---

[1] سورة البقرة : 127 - 129 0

[2] سورة آل عمران : 37 ، 38 0

((هنالك)) فى أعماق نفس زكريا تحرك الشوق.. الشوق إلى الذرية. والشوق إلى الفيض الإلهى الذى يفيض بالخير، وبالرحمة وبالعطاء، وبالرضوان..

هل تحس مدى العمق فى المشهد .. العمق الواغل فى أعماق النفس؟

إنه الإعجاز 00

* * *

يقول تعالى فى سورة فاطر :

((.. وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى))()0

فماذا يوحى إليك النص؟ وما الصورة التى تتبادر إلى ذهنك؟

إن المقصود بالنص هو النفس الإنسانية المثقلة بالذنوب، يقف صاحبها يوم القيامة مثقلاً بذنوبه، كما ورد فى نصوص أخرى0

((ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون))()0

((وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون))()0

((.. وقد أتيناك من لدنا ذكراً(99) من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً(100) خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا))()0

((.. وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون))()0

نعم .. ولكن!

إن حذف الموصوف (نفس) مع إبقاء الصفة (مثقلة) وتأنيثها، وإطلاقها بغير موصوف معين، يورد على الخاطر صورة المرأة الحامل، المثقلة بحملها.. كم تعانى منه؟!

وإن تدع البشر جمعيا إلى حملها – فضلا عن أولى القربى – فهل يستطيع أحد أن يحمل عنها حملها أو يخفف عنها شيئاً مما تعانيه من ذلك الحمل؟!

إنه حملها الخاص الذى لا يملك أحد على وجه الأرض كلها أن يحمل ((شيئا)) منه، وهى معاناتها الخاصة التى لا يستطيع أحد أن يعاونها فيها، فضلا عن أن يخففها عنها00

كم تبلغ هذه الصورة فى تعميق المعنى المقصود، الذى يرد أحيانا بصيغ أخرى:

((ولا تزر وازرة وزر أخرى))([1]) ، ((كل نفس بما كسبت رهينة))([2])00

وكم تؤثر هذه الصورة فى نفس من((كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد))([3]) إنه الإعجاز00

* * *

يقول تعالى فى سورة الرعد:

((قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار(16) أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال))0 ([4])

الأمثال لها وقع خاص فى النفوس، لأنها ترسم صورة موازية للمعنى المقصود00 تحوى غالباً أموراً من مألوفات الحياة، يستطيع الناس بسهولة أن يتعرفوا عليها ويتمثلوها فى أذهانهم0 ثم يقطع الخيال رحلة ممتعة ينتقل فيها من هذه الأمور المألوفة إلى المعنى ((الموازى))، فيتجسم المعنى وينبض بالحيوية حين يدرك الإنسان وجه الشبه بينه وبين الصورة الواردة فى المثل، ويتضاعف حجمه فى الحس لأن الإنسان يراه مرتين: مرة فى الصورة المجردة، ومرة فى المثل المضروب0

---

[1] سورة الإسراء:15 0

[2] سورة المدثر:38 0

[3] سورة ق: 37

[4] سورة الرعد : 16 ، 17

وفى القرآن ترد أمثال كثيرة، تجسم المعانى التى يراد تجسيمها، وتضاعف وقعها فى النفوس0 وتجئ الإشارة إلى ذكر الأمثال فى القرآن فى مثل قوله تعالى: ((ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل))0[1]

ولكن هذا المثل المضروب فى سورة الرعد له خصوصية حتى بين الأمثال:

إنه يبدأ بكلام لا تحسبه فى بادئ الأمر مثلا يضرب، لأنه حقيقة واقعة من حقائق ((الطبيعة)) التى خلقها الله، تجئ فى معرض ذكر القدرة الإلهية:((الله حالق كل شئ وهو الواحد القهار(16) أنزل من السماء ماء000))0

ولكن هذه الحقيقة مرتبطة بالمثل0 فهى حقيقة وهى مثل يضرب ذات الوقت00

هذا الماء الذى نزل بقدرة الله سالت منه أودية، كل واد بحسب سعته، وجرى الماء فى الوديان فاحتمل السيل زبدا رابيا00 إلى هنا يتم تقرير هذه الحقيقة الواقعة التى تقع فى الطبيعة، ويسجل السياق وجود الزبد مع اندفاع الماء، وهذه أيضاً حقيقة تقع فى الطبيعة00

ولكن يأخذ المثل فى التشكل عند هذه النقطة، ثم يمضى شوطا آخر00

((ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله))0

فالزبد ليس حادثا فى ((الطبيعة)) فقط، بل فيما يصنع الإنسان كذلك0 فالناس يوقدون على الذهب والفضة، ليصهروهما، ثم يشكلون من المادة المنصهرة حلياً ومتاعا متعدد الأشكال، ولكن ظاهرة الزبد تلاحقهم أيضا فيما يصنعون00 وإلى هنا تقرر حقيقة جديدة: أن الزبد ظاهرة ملازمة سواء فى الطبيعة التى خلقها الله، أو فيما يصنع الإنسان بيده00

ويبدأ المثل يتشكل بصورة أوضح، وذلك حين يقول الله سبحانه وتعالى: ((كذلك يضرب الله الحق والباطل))0 فالحق والباطل موجودان متجاورين متلازمين فى حياة الناس، بقدر من الله، ولكن لفترة من الوقت، ولمرحلة من المراحل00 ثم يأتى ما قدره الله وما قرره منذ الأزل ((فأما الزبد

[1] سورة الروم : 58 0

فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض)) وتلك هى النهاية التى تستقر فيهـــا الأمـــور فى وضعها الأخير00

ولكى ندرك مرمى المثل لابد أن نشير إلى واقع الدعوة فى الفترة المكيـــة، وإلى حـــال المـــؤمنين يومئذ([1])0

كان الباطل منتفشا فى مكة، والمشركون ظاهرين، يجولون ويصولون، مزهوين بكثرتهم وقـــوتهم وغلبتهم على المؤمنين وقهرهم لهم0 والمؤمنون فى ضعفهم وذلهم وهوانهم على الناس كما وصف رسول اللهﷺ حاله وهو يشكو حاله إلى الله: ((إليك أشكو ضعفى وذلتى وهوانى على الناس))،والعذاب يصب عليهم صبا من جانب المشركين00

هنا مضرب المثل فى صورتين: صورة الرابى فوق المـــاء، والزبـــد المغـــشى للـــذهب والفـــضة المصهورتين00

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يسرى عن رسول اللهﷺ وعن المؤمنين الغارقين فى العذاب0 إن مـــا هم فيه ليس هو نهاية المطاف! إنها مرحلة موقوتة00 ثم يتبدل الحال!

فأما السيل فبعد فترة يصفو، وينفثئ الزبد الذى يعلوه، ويذهب جفاء00 يذهب بددا00 ويبقى الماء يسقى الحرث والنسل، وينبت الزرع، وينتفع الناس به، ويفرحون بالخير الذى جاء معه0

وأما الزبد الذى يعلو الذهب والفضة فى عملية الصهر فيلقى جانبا، ويذهب بددا، وأما المعـــدن الصافى فيبقى نقيا خالصا ينتفع به الناس0

ذلك هو المثل. أما الصورة ((الموازية)) المطلوب إبرازها فهى أن انتفاش الباطل وهيمنة الكفار فى مكة زائلان بحول الله وقوته. ويبقى الحق، ويعلو، وينتصر، ويخلص له الجو، ويصبح هو القوة الممكنة فى الأرض، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا، بعد فترة الصراع التى يخوضها الحق مع الباطل: ((ولولا دفـــع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين))([2])0

---

[1] سورة الرعد مختلف فى كونها مدنية أم مكية، ويغلب على ظنى، كما بينت فى كتاب ((دراسات قرآنية – أنها مكية تحوى آيات مدنية. والله أعلم 0

[2] سورة البقرة : 251 0

إنه مثل رائع، يجسد علو الباطل فترة من الوقت، ثم تبدده فى النهاية وانتصار الحق..

ولكن روعته تزداد فى الحس حين ينعم الإنسان النظر فى تفصيلاته..

من سنن الله أن يسبق انتصار الحق وتمكنه فى الأرض فترة يعلو فيها الباطل ويتنفش. ومن سنة الله فى الوقت ذاته أن يبتلى المؤمنون على يد الكفار :

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون() ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))([1])0

ويبين الله حكمة الابتلاء فى قوله تعالى: ((وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين))([2])فمحق الكافرين يأتى بعد تمحيص المؤمنين وتمحيص المؤمنين يأتى من خلال الابتلاء00

وتبلغ الروعة فى المثل قمتها فى تصوير حالة الابتلاء.. إنها ((فتنة)) ينصهر فيها المؤمنون كما يفتن الذهب والفضة على النار([3])، كما ورد فى سورة العنكبوت: ((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(2) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))([4])0

وفى عملية الانصهار التى تتم فى الابتلاء تذهب أدران النفوس، وتصفو، وتخلص لله، كما يذهب ما يعلق بالذهب والفضة من أوشاب، لا تزول إلا ((بالفتنة)) على النار، ثم يبقى الجوهر الصافى الذى يستمتع به الناس0

ألا إنه إعجاز 00

* * *

يقول تعالى فى سورة يوسف :

((اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين))([1])0

---

[1] سورة العنكبوت : 2 ، 3 0

[2] سورة آل عمران : 141 0

[3] يقال فى اللغة : فتن الذهب والفضة أى صهرهما على النار لينفى منهما الخبث0

[4] سورة العنكبوت : 2،3 0

((يأت)).. من أين يأتى؟! إن المقصود أنه يعود مبصرا فى التو واللحظة. ولكن الفعل ((يـــأتى)) يظل له إيحاؤه .. فما دلالته؟

إن يعقوب عليه السلام لم يكن م غائبا فيأتى! فهو جالس مكانه لا يريم! ولكنه كان كالغائب.. فحين فقد بصره لم يكن ((حاضراً)) فيما حوله، يراه، ويتفاعل معه كما يتفاعل المبصرون! إنمـــا كـــان ((غائبا)) ببصره عنه.. وحين يرتد بصيرا فإنه ((يأتى)).. يأتى من غيبته الـــتى كـــان فيهـــا، ويـــصبح ((حاضراً)) فيما يحيط به من أشخاص وأشياء..

وكلمة واحدة تعطى هذا المعنى العميق كله، وتجعل المشهد يتحـــرك بحركـــة ((المجـــئ)) بعـــد ((الغياب))!

ألا إنه إعجاز 00

* * *

يقول تعالى فى سورة النور :

((الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجـــة الزجاجـــة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء علـــيم(35) فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال (36) رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار(37) ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب(38) والذين كفـــروا أعمـــالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله ســـريع الحساب(39) أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور))([2])

---

[1] سورة يوسف : 93 0

[2] سورة النور : 35 – 40 0

إشراقة النور، ونضرة النعيم 00 وهناك ظلمات مدلهمة تحيط بالكفار، تنعدم فيها الرؤية تمامـــا، وتحيط بهم الأعاصير، والموج الرهيب يقلب أجسادهم وأفئدتهم وهم فى الظلام لا يرون من أين تـــأتيهم الأخطار، ولكنها تتناوشهم من كل جانب 00

لا يوجد أنور من هذا النور، ولا أظلم من هذا الظلام!

ولا يوجد أروع من هذا التقابل الذى ترسمه اللوحتان المتقابلتان، اللتان ترسمان بالألفاظ ما تعجز عن تصويره كل أدوات التصوير 00

وفى سياق واحد تتقابل الصورتان جنبا إلى جنب، فتنجذب القلوب إلى النور، ثم تفـــزع مـــن الظلام فتستدير إلى النور، تستروح فيه الطمأنينة والأنس والإشراق0

ويختم السياق بهذه الحقيقة الهائلة: ((ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)) فكـــل مـــصدر يلتمس فيه النور غير المصدر الربانى لا ينير، وكل شىء غير نور الله ضلال، بل عبث وانقطاع، ووهـــم وخداع، ينتهى بصاحبه إلى الضياع فى لجة الظلام00

ألا إنه إعجاز 00

* * *

يقول تعالى فى سورة الأعراف :

((فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنـــا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيـــه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون))([1])0

الآية فى وصف الأمة اليهودية بعدما أداروا ظهرهم للهدى الربانى، وكفروا بآيات الله، وقتلـــوا أنبياءهم بغير حق، وخالفوا أمر ربهم، وأخلدوا إلى الأرض بحثا عن المتاع الرخيص0

وفى كلمة واحدة من كلمات الآية ينكشف الوضع كله، وتتضح معالمه، وتتبين أسبابه:

---

[1] سورة الأعراف : 169 0

((ورثوا الكتاب))0

هذا سر الموقف كله 00

لقد صار الكتاب الذى يحمل الوحى الربانى تراثاً، يحتفظ به، ويعتز بذكراه، ويتفاخر به، ولكـــن لا يعمل به فى واقع الحياة

إنه كتاب الآباء والأجداد، ولكنه ليس كتابهم هم! وهم ورثوه عن الآباء والأجداد، ولكنهم لا يعدونه موجها إليهم، ولا ملزما لهم ليعملوا به! إنما التزام به الآباء والأجداد الذين أنزل إليهم. أما هـــم ففى واد آخر، وفى شغل آخر، لا علاقة له بالكتاب! إنهم يبحثون عن عرض الحياة الدنيا، وذلك شغلهم الشاغل. ولكنهم فى الوقت ذاته متعلقون بذكرى الكتاب! وذكرى الكتاب توهمهم أنهم لن يعاقبوا على أعمالهم التى يرتكبون فيها ما حرم الله، لأن ذكرى الكتاب ستحميهم من ذلك العقاب، وستجلب لهـــم مغفرة الرب الذى يكفرون به وبآياته، ويزعمون فى الوقت ذاته أنهم أبناؤه وأحباؤه!

((ويقولون سيغفر لنا))0

والانشغال بعرض الدنيا ليس أمرا عارضا فى حياتهم إنما هو دينهم : ((وإن يأتهم عـــرض مثلـــه يأخذوه)) فهم يسعون دائماً إليه، وإن جاءهم لا يفوتونه!

وليس شىء من ذلك كله عن جهل منهم بما أمرهم به الله وما نهاهم عنه.. فهم يعرفون ذلـــك جيداً. فقد درسوا الكتاب.. ولكنها دراسة التراث لا دراسة العمل والتنفيذ! ويختم السياق بتـــذكيرهم بالحقيقة الغائبة عن حسهم: ((والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون))0

إنها آية واحدة، ولكنها تصف حال أمة بأكملها، وتصفها الوصف الذى يكشف نقاط الخلـــل فيها، ومظاهر الانحراف وأسبابه: وراثة الكتاب، والانكباب على عرض الحياة الدنيا، ونسيان الآخرة00

هل بقى شىء من حال تلك الأمة لم تبينه تلك الآية المعدودة الألفاظ؟

ألا إنه إعجاز 00

* * *

تلك مجرد نماذج من الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم، من ألوان مختلفـــة، فى مجـــالات مختلفـــة. والقرى، حافل بمثل هذه النماذج، إلى درجة لا يملك حس ألا يتأثر بها، أو أن يتغافل عنها. فلا عجـــب فى أن يكون القرآن هو معجزة الرسولﷺ إلى القوم الذين يعتزون بفصاحتهم، ويتيهون بها على الخلق. ولا عجب فى أن يتحداهم فيعجزوا عن إجابة التحدى، ولو جحدوا بها كبرا وعنادا وجفـــاء وقـــسوة قلب0

ولكن الإعجاز فى القرآن الكريم لا ينتهى عند هذا الحد.. وإنما هذه بدايته!

إن الإعجاز البيانى هدف مقصود بذاته، يتحدى المنكرين والمعاندين، ليعلموا فى دخيلة أنفـــسهم صدق الرسالة وصدق الرسول ﷺ، ولتقوم عليهم الحجة ولو جحدوا وأنكروا..

ولكنه فى الوقت ذاته وسيلة لغايات أخر !

إنه وسيلة للدعوة. ووسيلة لإخراج خير أمة أخرجت للناس. ووسيلة لبيان المنهج الربانى الـــذى يريد الله للبشرية كلها أن تتبعه لتنعم بالطمأنينة والبركة والفلاح فى الدنيا والآخرة00

إن الله يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد 00 ولكنه يدعوهم بهذا الأسلوب الفائق الذى يبلغ حـــد الإعجاز 0

والله يربى الأمة التى آمنت به تربية دقيقة عميقة فذة شاملة تشمل كل جوانب كيانهم. ولكنـــه يربيها بهذا الأسلوب الفائق الذى يبلغ حد الإعجاز 0

والله يريد أن يضع لهذه الأمة منهج الحياة الذى تسير عليه ليكتـــب لهـــا الـــتمكين فى الأرض، ولتكون رائدة لكل البشرية0 ولكنه يبين لها المنهج بهذا الأسلوب الفائق الذى يبلغ حد الإعجاز0

وهذا نفسه إعجاز فوق إعجاز !

من الإعجاز الدعوى

ونقصد بالإعجاز الدعوى: الإعجاز فى بيان العقيدة الصحيحة بكل تفـــصيلاتها، والإعجـــاز فى الوصول بها إلى مكامن النفوس بحيث تستقر فيها وترسخ نقية صافية من كل غبش، والإعجاز فى تحويلها – بعد بيانها وترسيخها – إلى قوة فاعلة فى شتى مجالات الوجود الإنسانى0

والعقيدة التى جاء بهذا القرآن هى التوحيد . وهى عقيدة الأنبياء جميعا من لدن آدم ونـــوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا 0 ولكنها لم تكن قط فى أى كتاب أصـــفى منـــها فى القـــرآن الكريم، ولا دخلت إلى نفوس الناس من كل منافذها وأقطارها كما دخلت عن طريق هذا الكتاب، ولا كانت قط مؤثرة فى واقع الحياة على أوسع نطاق كما انبثقت من هذا الكتاب0

ولا عجب فى ذلك، فالقرآن هو كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التى اكتمل بها الدين، وتمت بهـــا النعمة، وأخرجت خير أمة :

((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا))([1])0

((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))([2])0

* * *

إن كون الله هو الرب، وهو الخالق، عقيدة لا تحتاج إلى إرسال رسول، فهى كامنة فى أعمـــاق الفطرة :

((وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قـــالوا بلى شهدنا))([3])0

وما أرسلنا رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها، فالفطرة تعرف ذلك بغير رسول. ولا أرســـل رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها فاعبدوه. فالفطرة تتجه تلقائيا إلى عبادة الإله الذى تؤمن به.

إنما أرسل الرسل جميعا ليقولوا للناس : ((اعبدوا الله ما لكم من إله غيره))([1])0

---

[1] سورة المائدة : 3 0

[2] سورة آل عمران : 110 0

[3] سورة الأعراف : 172 0

ذلك أن مشكلة البشرية الكبرى لم تكن إنكار وجود الله، إنما كانت هى الشرك. ودعــك ممــا سرى فى الجاهلية المعاصرة من إلحاد ينكر وجود الله، فقد نشأ من ظروف خاصة، وله شياطينه الــذين ينفخون فيه. ولكنه لون خاص من الانحراف لم يقع بصورته تلك فى أى جاهلية من جاهليات التاريخ0

والذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ((ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومــا يهلكنــا إلا الدهر))([2]) وسموا بالدهريين، كانوا على وجه اليقين منكرين للبعث، ولكن الآية لا تدل دلالة قاطعــة على أنهم كانوا ينكرون وجود الله. فقد نسبوا الموت إلى الدهر بمعنى مرور الزمن، أى أنهــم يولــدون، ويحيون حياتهم، ثم يهلكون بمرور الزمن، ثم لا يبعثون مرة أخرى بعد الموت. وهؤلاء كانوا مطموســى البصيرة بلا شك. ولكنا لا نستطيع أن نقطع بأنهم كانوا منكرين لوجود الله، وإن أنكروا قدرة الله على البعث. فقد كان مشركو العرب ينكرون البعث، ولكنهم مع إنكارهم هذا – إذا سئلوا ((مــن خلــق السموات والأرض)) يقولون الله. وإذا سئلوا من خلقهم يقولون الله، كما سجل القرآن عليهم:

((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله))([3])0

ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))([4])0

وأيا كان الأمر، فلئن وجد فى القديم قلة من الناس ينكرون وجود الله –وهو أمر مشكوك فيه – فلم يحدث قط – إلا فى الجاهلية المعاصرة – أن أصبح هذا اللون من الإلحاد (دينا) يدين به ملايين مــن البشر، لظروف بيناها فى غير هذا الكتاب، وقام شياطين الإنس بنشره فى الأرض، وتبنته الشيوعية دينــا رسميا لدولتها. ولكن ما أن انهارت الشيوعية حتى عاد الناس فى روسيا ذاتهــا إلى معتقــداتهم الدينيــة السابقة، وأقروا بوجود الله، أيا كان فى معتقداتهم من انحراف!

المرض الأكبر إذن فى الجاهليات هو الشرك، وهو الذى أرسل كل رسول لينتزعه مــن نفــوس قومه. ثم أرسل الرسول الأعظمﷺ لينتزعه من قلوب البشرية جمعاء، فآمن به من قدر له الهدى، وأبى من أبى بقدر من الله0

---

[1] سورة هود : 50، 84، 61 0
[2] سورة الجاثية : 24 0
[3] سورة لقمان : 25 .
[4] سورة الزخرف : 87 0

والشرك – وتوابعه – يسميها الله سبحانه وتعالى ((عبادة الشيطان))0

((ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين() وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم))([1])0

والأصل فى الفطرة هو التوحيد، ولكن الشياطين يحاولون دائما إخراج الناس من صفاء التوحيد إلى كدر الشرك:

((إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين))([2])0

وهذا الاجتلاء يأخذ صورا شتى :

منها تأليه الجن والملائكة والشمس والقمر والنجوم والحجر والشجر، والزعم بأنها آلهة تعبد مع الله أو من دونه 00

ومنها ادعاء الولد لله 00

ومنها الاعتقاد بأن كائنا من كان له مشاركة مع الله فى الخلق أو التدبير، أو له شفاعة مقبولة عند الله فيعبد ليقرب الناس من الله زلفى 00

ومنها إنكار الوحى والرسالات00

ومنها إنكار البعث 00

ومنها التحليل والتحريم (أى التشريع) بغير ما أنزل الله 00

ومنها اتباع الهوى والشهوات 00

وهى كلها انحراف عن عقيدة التوحيد، ورفض لإخلاص العبادة لله وحده بلا شريك0

ولها أسباب شتى، ولكنها تؤدى فى النهاية إلى شىء واحد هو الكفر بالله0

---

[1] سورة يس : 60 ، 61

[2] أخرجه مسلم 0

وقد ينشأ الكفر من تعظيم زائد لأشخاص من البشر يصل إلى حد التقديس، كمـــا حـــدث فى عبادة الأصنام0

وقد ينشأ من فساد فى الفطرة يهبط بها عن حالتها السوية التى فطرها الله عليها، والـــتى تتـــسع للإيمان بما تدركه الحواس (عالم الشهادة) والإيمان بما لا تدركه الحواس (عالم الغيب)، فتنحصر فى الإيمان بما تدركه الحواس، وتنشئ آلهة محسوسة، تتعبدها بدلا من الله الذى (لا تدركه الأبصار)([1])0

وقد ينشأ من الاستكبار عن عبادة الله 0

وقد ينشأ من اعتداد الإنسان بنفسه وقوته اعتداداً زائفاً يخيل إلى صاحبه أنه ذو قوة ذاتية فاعلـــة بذاتها 0

وقد ينشأ من الطغيان والتجبر على الناس، فيدعى الطاغية الألوهية لنفسه، ويلزم النـــاس بـــأداء شعائر التعبد له، أو يستعبدهم بالتشريع لهم بغير ما أنزل الله، وإخضاعهم لتشريعه، ومعاقبتهم إذا خرجوا على شرعه0

وقد ينشأ من تضخم الذات، فيعبد الإنسان ذاته، أو بالأحرى أهواءه وشهواته00

والإعجاز فى كتاب الله أنه يعرض لهذه الأسباب كلها، لا يغادر شيئا منها. فيبرزها، ويندد بها ، ثم يعالجها0

((ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله))([2])0

((وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين))([3])0

((قال إنما أوتيته على علم عندى))([4])0

((كلا إن الإنسان ليطغى(6) أن رآه استغنى))([1])

[1] سورة الأنعام : 103 0

[2] سورة يونس : 18 0

[3] سورة سبأ : 35 0

[4] سورة القصص : 78 0

((فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة))([2])

((واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون))([3])

((أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين(77) وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم))([4])0

((ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً(35) وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا))([5])0

((وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد(7) أفترى على الله كذبا أم به جنة))([6])0

((وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب(4) أجعل الآلهة إلها واحـــدا إن هذا لشيء عجاب))([7])0

((إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه))([8])0

((أفرأيت من اتخذ إلهه هواه))([9])0

((بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم))([10])0

((وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله))([11])0

---

[1] سورة العلق : 6 ، 7 0

[2] سورة فصلت : 15 0

[3] سورة القصص : 39

[4] سورة يس : 77، 78

[5] سورة الكهف : 35،36 0

[6] سورة سبأ : 7،8 0

[7] سورة ص : 4،5 0

[8] سورة غافر : 56 0

[9] سورة الجاثية : 23 0

[10] سورة الروم : 29 0

[11] سورة إبراهيم : 30 0

((وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون))([1])0

((وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين(24) ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون))([2])0

((وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم))([3])

((ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون))([4])

((وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون))([5])0

((وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون))([6])0

تلك على وجه الإجمال كانت أفكارهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم التى يعيشون فيها، والتى تصدهم عن الإيمان بالله واليوم الآخر والوحى والنبوة، ولها فى حسهم ثقل الأمر الواقع من جهة، وثقل الأمر الموروث من جهة أخرى. فلاهم يتصورون إمكان تغييرها، ولا إمكان الخروج عليها، وهى تقاليد الآباء والأجداد، فى بيئة شديدة المحافظة على التقاليد، وعلى موروث الآباء والأجداد. وفضلا عن ذلك فهم يتوهمون أنهم على دين إبراهيم، ويحتفظون ببعض ما كان فى دين إبراهيم عليه السلام، فيعظمون الكعبة، ويحجون إلى البيت الحرام، وإن كانوا يرتكبون فى حجهم مخالفات ما أنزل الله بها من سلطان0

وكانت قريش خاصة – التى بعث من بينها رسول الله ﷺ ، والتى وجهت إليها الدعوة أول ما وجهت ، إذ قال الله لرسول ﷺ : ((وأنذر عشيرتك الأقربين))([7])0 كانت تدل على العرب كلهم بسدانة الكعبة، وعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فكانت تعد نفسها الرئيسة الدينية، التى تقول

---

[1] سورة الأعراف : 28 0
[2] سورة النحل : 24 ، 25
[3] سورة لقمان : 7 0
[4] سورة الروم : 58 0
[5] سورة السجدة : 10 0
[6] سورة البقرة : 170 0
[7] سورة الشعراء : 214 0

فتطاع، وليست التى تتلقى أوامر من أحد، فضلا عن أن تكون الأوامــر نقــضا كــاملا لأفكــارهم ومعتقداقها.

لذلك كانت الحرب شديدة على العقيدة الجديدة، وكــان اللــدد فى الخــصومة، والعنــف فى المواجهة، والمبالغة فى الصد 00

وكان القرآن هو الرد على ذلك كله0 هو الــدعوة. وهــو المواجهــة . وهــو أداة التغــيير: ((وجاهدهم به جهاداً كبيرا))[1]0

((آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن رهبــم إلى صــراط العزيــز الحميد))[2]0

ومرة بعد مرة يتترل القرآن ليبين العقيدة الصحيحة مــن جهــة، وليفنــد أوهــام المــشركين واعتراضاقم من جهة أخرى، تارة ببيان ما اشتملت عليه من سخف لا يقبله منطق ولا عقــل، وتــارة ببيان الأسباب الدافعة لهم إلى التمسك بالشرك وعدم الإقلاع عنه، وأها أسباب تنبع مــن انطمــاس فى البصيرة، وانحراف فى الفطرة، وفساد فى السلوك، وكلها أمراض لا يشرف إنسانا عاقلا أن يحملها، فضلا عن أن يعتز هبا وينافح عنها!

وكانت الأداة الكبرى فى كل ذلك هى تعريف الناس بحقيقة الألوهية، وبتفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والرزق والإنشاء والهيمنة والتدبير، وانتفاء هذه الصفات كلها عن الآلهة المزعومة التى يتمــسكون هبا، بحيث يتبين عجزها وهزالها، فتسقط ألوهيتها المزعومة، ويسقط بالتالى استحقاقها للعبادة مع الله أو من دونه00

وكان الأمر فى حاجة إلى مواجهة طويلة عميقة شاملة دقيقة، حتى تنجاب الصلادة التى تحجــب الحق عن القلوب، فتهتدى تلك القلوب الضالة إلى الحق، وتدخل فى دين الله0

* * *

[1] سورة الفرقان : 52

[2] سورة إبراهيم : 1 0

إذا تأملنا سورة العلق – أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ – نتبين كيف بدأ التعريف بـالله سبحانه وتعالى : ((اقرأ باسم ربك الذى خلق(1) خلق الإنسان من علق(2) اقرأ وربك الأكرم(3) الذى علم بالقلم(4) علم الإنسان ما لم يعلم))([1])، بدأ بذات المعلومات التى كانت معلومة عند العرب من قبل، ولكن بإضافة جديدة تجعلها حية وفاعلة0

فأما أن الله هو الخالق الذى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان فقد كان حقيقة مسلمة عندهم لا ينكروها ولا يجادلون فيها، كما سجل القرآن عليهم فى قوله تعالى: ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله))([2]). ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))([3]). وكونه خلق الإنسان من علق، أو من نطفة، أو من منى يمنى، فقد كان معلوما عندهم كذلك، فقد سجل القرآن عليهم ذلك فى قوله تعالى: ((كلا إنا خلقناهم مما يعلمون))([4]). ((ولقد علمتم النشأة الأولى))([5]).

ولكن هذه المعلومات كانت بالنسبة لهم كالبذرة الميتة لا تنبت، لا لأن من شأنها ألا تنبت، ولكن لأن تربتها – وهى القلوب– جفت وقست، وران عليها ما طمر البذرة فقتلها، ولقد كانت قمينة لو القلوب سليمة والنفوس صحيحة أن يكون لها مقتضى فى مجرى حياتهم00

فالآن يأتى القرآن فيرفع الران الذى طمر البذرة فمنعها من الإنبات، ويضع بذرة جديدة من ذات النوع، ولكن فى تربة جديدة مهيأة للإنبات00

((اقرأ))00

اقرأ الدلالة الكامنة فى هذه الحقيقة الكبرى، وهى أن الله هو الخالق، وأنه خلق الإنسان من علق00

إنها حقيقة هائلة حين يتدبرها الإنسان بقلب واع وفكر متفتح.. معجزة الخلق.. خلق السموات والأرض من العدم.. وخلق الإنسان من نطفة إذا تمنى..

---

[1] سورة العلق 1-5 0

[2] سورة الزمر : 38 0

[3] سورة الزخرف : 87 0

[4] سورة المعارج : 39 0

[5] سورة الواقعة : 62 0

إذا كنت لم تقرأ هذه الدلالة من قبل فاقرأها الآن على صوت هذا النداء : ((اقرأ))!

اقرأها جيدا .. اقرأها مليا .. تتضح لك دلالتها 00

دلالتها أنه إله واحد هو الذى ينبغى أن يعبد، وليس سواه.. الإله الذى خلق .. خلق السماوات والأرض من العدم، وخلق الإنسان من علق 00

فإذا فرغت من قراءة تلك الحقيقة الهائلة، واتضحت لك دلالتها، فاقرأ حقيقة أخرى، قمينة بأن تملأ قلبك بالحب والود والتعظيم لذلك الإله الخالق.. إنه ربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم 0

حقيقة أخرى هائلة.. فالطفل يخرج إلى الحياة بلا علم ولا معرفة ولا إدراك.. ثم يتعلم .. كيف يتعلم؟ لو لم يكن الله قد أودع فيه القدرة على التعلم فهل كان يمكن أن يتعلم؟! إن القلم هو أداة التعليم .. نعم! ولكن ضع القلم عند كائن لم يوهب القدرة على التعلم، فهل يعلمه القلم، أم الذى يعلمه هو الذى خلقه، وخلق فيه القدرة على التعلم؟

أى إكرام من ربه الأكرم، الذى خلقه على هذا النحو، وفضله – بمزيته تلك – على كثير ممن خلق! ما الذى يجعل القلب البشرى يغفل عن تلك الدلالة الهائلة فلا يقرؤها؟!

إنه الران الذى يطمس البصيرة، ويحجب النور!

((كلا إن الإنسان ليطغى(6) أن رآه استغنى))([1])!

هذا الوهم الضخم الذى يحيط بالإنسان فيغفل وينسى 00

يغفل عن حقائق الكون والحياة، فينسى الخالق الذى خلق، الذى أوجد كل شيء بقدرته، بحوله وطوله، بقدرته وقوته، بعقله وعلمه، بفكره وإرادته، عن الله الذى خلقه فسواه فعدله، فى أى صورة ما شاء ركبه 00

وحين ينسى فإنه يطغى 00

---

[1] سورة العلق : 6،7

يطغى، فيتمرد على الخالق الذى خلقه، فلا يعبده حق عبادته، ويعبد سواه ..

ويظن أنه حر يفعل ما يشاء.. يفعل ما يمليه عليه هواه.. فمنذا الذى يحاسبه على ما يفعل؟!

كلا!

((إن إلى ربك الرجعى))([1])!

ليس متروكا لهواه.. ليس متروكا يفعل ما يشاء بلا حساب ولا عقاب00

إنه راجع إلى ربه يحاسبه على ما جنت يداه 00

وتلك المعانى كلها كانت فى تلك الإقراءة الأولى، التى افتتح بها الوحى الربانى، والتى غيرت القلوب، فجعلت البذرة تنمو نموها السوى، فتنبت الإيمان00

* * *

وتتوالى الآيات 00 تتوالى تعرف الناس بربهم، بما يعرفون وما لا يعرفون00

فأما ما يعرفون – كحقيقة أن الله هو الخالق، وهى الحقيقة الكبرى التى ركز عليها القرآن فى تعريف الناس بربهم – فطريقة القرآن فيها، كما أشرنا فى المثال السابق، هى إزالة الركام الذى طمرها فجعلها لا تؤدى مقتضاها الطبيعى، وهو عبادة الله وحده بلا شريك، واحياؤها فى طريقة عرضها، وربطها بالقدرة الإلهية بالطريقة التى تهز الوجدان فينفعل بها، فيتفتح للإيمان بالله0

وأما ما لا يعرفون – أو ما ينكرون – كالبعث والنشور، والوحى والرسالة، فيضاف إلى معلوماتهم بالطريقة ذاتها التى تجعل الوجدان ينفعل فيتأثر، فيستجيب لداعى الإيمان0

وهنا يأتى دور الإعجاز البيانى، فيؤدى مهمته فى هذا المجال0

[1] سورة العلق : 8

فطريقة العرض أولا هى التى تحي المشاهد، فتزيل عنها ما يصيبها فى نفوس الناس من تبلد الحس عليها بسبب الألفة الطويلة، فإذا هى السياق القرآنى شىء أخر غير ما تبلد الحس عليه، جديـد حـى متحرك0

والتنويع كذلك يؤدى دوره. فالنفوس التى كانت منكرة أو كانت غافلة، كانت فى حاجـة إلى تكرار القضايا مرات ومرات حتى تزول الغفلة ويذوب الإنكار وتكرار الشىء ذاته بنفس الألفاظ ونفس الصورة يبعث السأم فى النفوس. ولكن التنويع فى العرض له من الجاذبية ما ينفى السآمة، بل يجدد الرغبة، ويجدد الانتباه، ويجدد التأثير. وهكذا، فالقرآن كما جاء فى وصفه: ((لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق مـن كثرة الرد)) فهو متجدد أبدا فى النفوس، يعرض الأمور فى كل مرة كأنها جديدة تعرض لأول مرة0

وهذا الذى أشرنا إليه آنفا: أن الإعجاز البيانى فى القرآن هدف مقصود فى ذاته، وهو فى الوقت ذاته وسيلة لأهداف أخر 0

* * *

ويدخل القرآن إلى النفوس فى قضايا العقيدة من كل منافذها وأقطارها، فلا يترك منفذا لا ينفـذ منه، ولا يترك مدخلا لا يطرقه ليوصل العقيدة الصحيحة إلى القلوب0

وإذا كانت الوسيلة العظمى – كما أشرنا آنفا – هى تعريف الناس بربهم، ليعبدوه وحده بـلا شريك، حين يدركون تفرده سبحانه بالألوهية، وعجز الآلهة المزعومة عن ا لقيام بشىء ممـا يقـدر الله عليه، ففى النفس البشرية منافذ فطرية، أودعها الله فى الفطرة لتتعرف على خالقها، وتتوجه إليه بالعبادة، ومن هذه المنافذ بالذات – المودعة فى الفطرة – ينفذ القرآن إلى النفوس، فيوقظها من غفلتها، فتنبعـث متوجهة إلى الله. ولا عجب فى ذلك، فالله هو خالق الفطرة، وهو مترل القرآن ليلتقى بـالفطرة التقـاء كاملا شاملا مفصلا دقيقا، فيلتقيان على تعارف كامل وتوافق واتساق!

((فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثـر النـاس لا يعلمون))([1])0

[1] سورة الروم : 30 0

* * *

الكون بضخامته المعجزة يروع الحس البشرى، فيروح يتأمل فى هذه الضخامة التى يعجز عن الإحاطة بها، فيرد على الخاطر سؤال فطرى لا يملك الإنسان دفعه : من خالق هذا الكون؟ فيهتدى إن كتب له الهدى، فيعلم أن الله هو الخالق، أو يضل فيتصورها إلها أخر أو ألهة أخرى غير الله ينسب لها الخلق. ولكنه – حتى فى ضلاله – لا يتصور أن الكون يمكن أن يوجد بغير خالق (ودع عنك ضلالات الجاهلية المعاصرة التى ألحدت نتيجة ظروف خاصة فى أوربا غير مسبوقة فى البشرية. وحتى هذه لم تستطع أن تتهرب من هذا السؤال الفطرى، فنسبت الخلق إلى ((الطبيعة!)) التى قال عنها دارون إنها تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق! فابتدع إلها خالقا – غير الله – وأضفت عليه بعض صفات الله سبحانه وتعالى كالخلق والتدبير، ولكن كانت أهم صفة فى هذا الإله المزعوم أنه ليست له كنيسة تضطهد النسا، وتطاردهم فى يقظتهم ومنامهم! وتلك كانت عقدة الجاهلية المعاصرة التى أدت بها إلى الإلحاد!)[1] 0

والكون بدقته المعجزة يروع الحس البشرى كذلك. فهذا الكون ليس ضخما فقط، ولست صخامته التى تتجاوز كل تصور هى وحدها التى تروع الحس، ولكن يروعه كذلك أنه مع ضخامته تلك دقيق إلى درجة معجزة0

وتتبدى الدقة المعجزة فى مجالات عدة. فانتظام دورة الفلك، وانتظام الليل والنهار، من دلائل تلك الدقة التى تروع الحس0

وتوزيع الكائنات الحية على سطح الأرض من دلائل الإعجاز0

وتصريف الرياح، وحركة السحاب 00

واختلاف الألوان فى الكائنات، سواء الكائنات الحية أو الجوامد 00

[1] انظر – إن شئت – حديثا مفصلا عن هذه القضية فى كتاب ((مذاهب فكرية معاصرة))0

بل يدق الأمر أحياناً حتى يتبدى الإعجاز فى ريشة الطائر، ولون الزهرة، ورفرفة الطير، وسقسقة العصفور، فضلا عن أطوار الجنين، واختلاف طبائع البشر، واختلاف مشاعرهم ومشاغلهم وطرائق حياتهم00

دقة تروح الحس.. فيرد على الخاطر سؤال فطرى، لا يملك الإنسان دفعه: من وراء هذه الدقة المعجزة؟ من وراء هذا التنوع العجيب فى الكائنات؟ من يدبر دقائق الكون ودقائق الحياة؟

ثم يهتدى الإنسان إن كتب له الهدى، فيعلم أنه الله، أو يضل فينسب الأمر إلى آلهة مزعومة، أو يغفل عن إيقاعات الكون غفلة تامة فكأنه فى حسه غير موجود00

وظاهرة الموت والحياة مما يروع الحس البشرى00

يتوهم الطفل الصغير فى مبدأ حياته أن الكائنات كلها حية، ويتعامل معها على هذا الأساس! حتى يكبر وعيه، فيعلم أن هناك جوامد وهناك كائنات حية، ثم يعلم أن الكائنات الحية تموت.. ويترك الموت فى حسه أثرا لا يمحى، بل يزداد تعمقا مع الأيام.. فيرد على خاطره سؤال فطرى لا يملك دفعه : من وراء هذه الظاهرة الهائلة: ظاهرة الموت والحياة.. ثم يهتدى إن كتب له الهدى، أو يضل فيقول إنه الدهر أو غيره من قوى الوجود0

والحركة فى الكون مما يروع الحس البشرى. سواء حركة الأجرام فى السماء، أو حركة البشر على الأرض، وما يحدث لهم من تحولات فى أثناء حياتهم، من قوة وضعف، وفقر وغنى، وعز وذل، وصحة ومرض، وحياة وموت .. فيرد على الخاطر سؤال فطرى لا يملك الإنسان دفعه: من المحرك وراء الأشياء والأحداث؟.. أتحدث من تلقاء نفسها أم تحدث بتدبير؟ ومن وراء التدبير؟ وهل تحكمها سنن وضوابط، أم تجرى فوضى بلا نظام؟ وهل وراءها حكمة أم هى عبث لا حكمة فيه؟ ثم يهتدى الإنسان إن كتب له الهدى، فيعلم أنه الله، ومشيئته، وسننه، ونظامه وتدبيره، أو يضل فينسب الأمر إلى آلهة مزعومة، أو يظنها فوضى لا يشملها نظام0

والمفارقة بين العجز البشرى والقدرة التى لا تحدها حدود، مما يروع الحس البشرى.. فالإنسان يتطلع إلى القوة والسيطرة والتملك، ويحصل من ذلك ما يقدر عليه، ولكنه فى دخيلة نفسه لا يشبع ولا

يقنع، ويتمنى لو أن له سيطرة على كل شيء، يسيره على هواه، وقوة لا تعجز عن شـــيء، وملـــك لا يبلى.. ثم يجد نفسه عاجزاً مهما سيطر، ومهما ملك، ومهما استخدام من أسباب القوة. وأشد ما يعجز عنه هو الخلق، ثم يتدرج العجز درجات!

وهذا العجز يفرض على حسه تلك المقارنة الفطرية بين ما يقدر عليه وبين القدرة القادرة الـــتى تخلق، وتنشئ، وتسير وتدبر، ولا يعجزها شيء. ثم يهتدى فيعلم أنها قدرة الله، أو يضل فيتخيل آلهـــة لا وجود لها ينسب إليها ما يراه من أحداث0

وقضية الغيب مما يعرض للحس البشرى فيوقظه من غفلته إن كان من الغافلين. فالإنسان شديد التطلع إلى معرفة الغيب. يريد أن يطمئن على ما يكون من أمره فى الغد القريب والغد البعيد. هل يعيش طويلا أم يخترمه الموت؟ هل سيكون سعيدا فى مستقبل حياته أم تعتوره الأزمات والآفات فتنغص عليـــه عيشه؟ هل يكون غنيا أم فقيرا؟ هل يتزوج أم لا يتزوج؟ هل يكون له ولد أم لا يكون؟ هل يحصل على مكانة عالية فى الأرض أم يكون هملا لا وزن له؟

ويؤلمه أنه لا يستطيع أن يستكنه الغيب.. لا الغيب البعيد الموغل فى المجهول، بل الغيب القريـــب الذى يكون غدا أو بعد ساعات.. بل غيب اللحظة المقبلة عليه الآن، والتى لا يعرف كنهها وكنـــه مـــا يجرى فهيا حتى تقع بالفعل0

ويجره عجزه عن استكناه الغيب إلى مقارنة فطرية مع القوة التى تعلم الغيب، لأنه مكشوف لهـــا غير خاف عليها منه شيء. بل التى تعلم الغيب لأنها هى التى تصنع الغيب00

ثم يهتدى، فيعلم أنه الله، عالم الغيب والشهادة، أو ينسبه لآلهة مزعومة أو يغمض عينيه ويغلـــق حسه ويعيش كالأنعام!

* * *

تلك مفاتيح فطرية 00 أودعها الله فى الفطرة لتتعرف على الله 00

وقد نظن أحياناً أن هذه الأسئلة الفطرية التى تفرض نفسها على الحس البشرى، لا تجـــئ إلا فى فترة النضوج والوعى، ولكن الحقيقة غير ذلك 0

إن الطفل الصغير تبدأ هذه الأمور تخطر على حسه فى مراحل مبكرة جداً، أكثــر تــبكيراً ممــا نحسب!

إنه فى فترة باكرة، منذ بداية الوعى، يظل يسأل والديه ومن حوله أسئلة ذات دلالــة واضــحة، حين يسألهم عن أمور لا إجابة لها فى الحقيقة إلا إجابة واحدة: إنه الله 0 وإنه صنع الله!

حين يسأل: لماذا تطلع الشمس بالنهار ولا تطلع بالليل؟

لماذا يكون ورق الشجر أخضر؟

لماذا لا يكبر هو بسرعة فيصبح كأبيه فى الطول؟

لماذا كان ريش هذا الطائر ملونا والآخر غير ملون؟

كيف يترل المطر من السماء؟

كيف ينبت الزرع؟

وعشرات من الأسئلة ومئات، يضيق بها الأبوان أحيانا، ويعجزان عن إعطاء إجابة تقنــع ذلــك الصغير الذى لا يكف عن السؤال، بينما مداركه لا تستوعب الجواب!

إنه بدء تيقظ الفطرة لتبحث عن الله!

وقد لا يدرك الطفل دلالة أسئلته.. لكنا نحن ينبغى أن ندرك أنها أسئلة الفطرة، التى تتوجه بها – فطريا – للتعرف على الله 0

ولكن الحس البشرى عرضة أن يتبلد على المنظر المكرور، والحدث المكرور، فلا تعود إيقاعــات الكون تجد استجابتها الفطرية فى النفس00

لا الكون بضخامته المعجزة، ودقته المعجزة، ولا ظاهرة الموت الحياة، ولا ظاهرة الحركة : حركة الأشياء والأحداث، ولا ظاهرة العجز البشرى، ولا ظاهرة العجز عن استكناه الغيب00

عندئذ يفقد الإنسان شفافيته التى خلقها الله فى كيانه، ويفقد بالتالى سمته التى جعلتــه إنــسانا، وميزته عن الحيوان، فيصبح من الذين جاء فيهم هذا الوصف القرآنى:

((لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعــام بل هم أضل أولئك هم الغافلون))([1])0

فيأتى القرآن ليوقظ القلوب، ويفتح الأعين، ويزيل الوقر من الآذان، فتتفتح جميعا للإيقاعات التى يرسلها الكون إلى الحس0 فتحيا النفوس بعد موات، وتستيقظ بعد الغفلة00 وتتوجه إلى الله0

* * *

((وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم(163) إن فى خلــق الــسموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من مــاء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين الــسماء والأرض لآيات لقوم يعقلون))([2])0

لوحة عريضة واسعة حافلة بالحيوية والحركة، والإيحاءات والدلالات00

إنها مشاهد معروضة أمام الحس البشرى، ولكن الحس يتبلد أحيانا فيغفل عما فيها من الإيحاءات والدلالات، ويمر بها لا يكاد يعيرها اهتماما. ولكن القرآن يحي المشهد بأسلوبه الفريد، فينــتفض حيــا متحركا، فيلتقط الوجدان ما يرسله من الإشارات0

إن السموات والأرض المذكورة فى الآية ليست هى ذلك المشهد المكرور المألوف الذى كان يراه الإنسان فلا يتحرك له، ولا يهتز له وجدانه، فيغفل عن الحقيقة الكبرى الكامنة فيه، وهى أن السموات والأرض مخلوقتان، وأن الله هو الخالق!

إن الحس المتبلد يراهما موجودتين دائماً أمامه، فيغفل وينسى!

---

[1] سورة الأعراف : 179 0

[2] سورة البقرة : 163 ، 164 0

ولكن السياق القرآنى يوقظه من أول لفظة إلى الحقيقة المنسية 00

((إن فى خلق السموات والأرض..)) فهما ليستا موجودتين من ذات نفسيهما، ولا هما أزليتان. إنما هما مخلوقتان، أى أنهما لم تكونا موجودتين ثم وجدتا..

وهى حقيقة هائلة، تترتب عليها – أو يجب أن تترتب عليها – حقائق أخرى0

فأما الجاهلية العربية فقد كانت تقر أن الله هو الذى خلق السموات والأرض:

((ولئن سألتهم من خلق السموات ليقولن الله))([1]). ولكنها لم تكن ترتب على هذه الحقيقة مقتضاها الطبيعى المباشر، وهى أن الإله الذى خلق هو الحقيق بالعبادة وحده بلا شريك0

وأما الجاهلية المعاصرة – وهى أذكى من الجاهلية العربية من ناحية، وأغبى منها من ناحية أخرى – فقد أدركت أن هذه القضية ذات شأن كبير، وأنها إحدى قضايا الوجود الرئيسة. وأدركت أنها إن أقرت بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض فقد لزمها أن تعبده، وتخلص له العبادة، وهى لا تريد – كبرا وعنادا وغطرسة وانطماس بصيرة – فنفت أن الله هو الخالق، وراحت تتخبط على غير هدى. تقول مرة إن الكون قد وجد من ذات نفسه بغير موجد، وتارة أخرى تردد قولة دارون الحمقاء: الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق!

كلتاهما جاهلية! وكلتاهما فى حاجة إلى هداية الله!

ونعود إلى الآية القرآنية نستلهمها إشاراتها الدافقة، وحقائقها ذات الدلالة00

إن خلق السموات والأرض قد نشأت عنه حركة معينة فى هذا الكون، هى اختلاف الليل والنهار 00

ولئن كانت الحقيقة الأولى تنفذ إلى النفوس الواعية من أحد منافذها الكبرى، وهى الضخامة المعجزة فى هذا الكون وما يدل عليه ذلك من عظمة الخالق، الذى يخلق تلك الأجرام الهائلة المبثوثة فى السموات، فإن الحقيقة الثانية – وهى اختلاف الليل والنهار – لتنفذ إلى النفوس الواعية من منفذين فى

---

[1] سورة لقمان : 25 0

آن واحد : منفذ الحركة – حركة الأحداث فى هذا الكون – ومنفذ الدقة المعجزة فى خلق الكون. فإن انتظام الأفلاك، الذى ينشأ منه تعاقب الليل والنهار له دلالته الخاصة، المضافة إلى القدرة علـــى الخلـــق، وهى القدرة على التنظيم الدقيق لهذا الكون، بحيث لا يختل مرة، فيكون فيه نهار بلا ليل، أو ليل بلا نهار. وتلك دلالة أخرى على عظمة الخالق وأنه متفرد بهذه العظمة لا يشاركه فيها أحد فى الوجود كله0

وتمضى الآية تعدد آيات القدرة الربانية 00

((والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس..))0

إن الفلك التى تجرى فى البحر هى من صنع البشر فى ظاهر الأمر. ولكنها ما كانت لتوجد لـــولا الخواص التى أودعها الله فى الماء من ناحية، وفى المواد التى تصنع منها الفلك من ناحية أخـــرى، والـــتى تتجعل الفلك محمولة على الماء لا تغوص فيه. ولذلك يمن الله على البشر فى موضع آخر (فى سورة يس) فيقول : ((وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون(41) وخلقنا لهم من مثله ما يركبـــون))([1])00 فالإنسان – وكل ما يعمل – هو من خلق الله من ناحية، وكذلك فإن الخواص المودعة فى المادة، والـــتى تجعل فى إمكان البشر أن يصنعوا الفلك التى تجرى فى البحر، هى من خلق الله، ولولا خلق الله لهـــا مـــا استطاع الإنسان أن يصنعها0

والآية لا تشير فقط إلى جريان الفلك فى البحر، الذى ينفذ إلى النفس من منفذ الحركة – وهى من الأمور التى تلفت الحس البشرى بشدة وتوقظه من غفلته – ولكنها تنفذ مـــن منفـــذ آخـــر هـــو ((المصلحة))! فإنها تجرى فى البحر بما ينفع الناس. وهذا يذكرهم بفضل الله عليهم. فالأشياء التى تنفـــع الناس هى من خلق الله، وحملها فى الفلك حتى تصل إلى الناس هو كذلك من خلـــق الله. فهـــو فـــضل مزدوج يستحق من العباد أن يشكروا ربهم عليه، لا أن يجحدوه ويعبدوا سواه0

ونقلة أخرى تنقلنا إلى مشهد آخر0

((وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة))

إنها إشارات متواكبة متوالية تقرع الحس بشدة لتلفته إلى ما كان غافلا نه 00

---

[1] سورة يس : 41 ، 42

فإنزال الماء من السماء آية، وإحياء الأرض الميتة بهذا الماء آية، وبث الــدواب فى الأرض بعــد إحيائها بالماء آية 00 وكلها آيات تنفذ إلى النفس من منافذ شتى فى آن واحد . من منفذ الدقة المعجزة فى الكون، ومن منفذ الحركة المتدفقة، بالإضافة إلى القدرة على الخلق، فتتواكب الآيات لتهز الوجدان، وتنفض عنه غفلته إن كان من الغافلين00

وحين يتبلد الحس فإنه يرى المشاهد كلها يمر عليها فى بلادة كأنها غير موجودة.. أمــا حــين يعرضها النص القرآنى على هذه الصورة، فهل يملك الحس أن يفلت من تأثيرهــا أو يتجاهلــها، إلا أن يكون حسا مغلقا فى قلب مريض؟!

فالمطر لا يترل من تلقاء نفسه! إنما هو مخلوق من مخلوقات الله يخضع لأمره، ويسير حسب سننه، ولو شاء الله لجعله على صورة أخرى فلا يملك البشر أن ينتفعوا به :

((أفرأيتم الماء الذى تشربون(68) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المترلون() لو نــشاء جعلنــاه أجاجا فلولا تشكرون))([1])0

وإحياء الأرض الميتة بالماء لا يحدث من تلقاء نفسه! فلولا خاصية أودعها الله فى الماء، وخاصــية أودعها فى الأرض، ما أنبتت حين يترل عليها الماء :

((وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج))([2])0

ولا تقتصر قدرة الله على إحياء الأرض بالماء فحسب، وهى فى ذاتها قدرة معجــزة، ولكــن الله القادر، الرزاق الوهاب، يبث فى تلك الأرض بعد إحيائها ألوانا شتى من الدواب، تأتى لتأكل ما أنبتــت الأرض، ويتضاعف بها الرزق للإنسان، فالماء رزق، والنبات رزق والدواب التى تأكل النبات رزق. كله من خلق الله، وكله فضل يتفضل الله به على العباد .. أفيحق للإنسان بعد ذلك أن يعبد من دون الله ما لا يخلق ولا يرزق ولا يضر ولا ينفع؟

وتستمر الآية تعرض معجزات القدرة معجزات الخلق 00

[1] سورة الواقعة : 68 – 70 0

[2] سورة الحج : 5

((وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض))

إن الرياح آية من آيات الله.. إنها لا تتحرك من ذات نفسها! إنما الله هو الذى ((يصرفها)).. هو الذى يحدد لها وجهتها ومسارها00

وقد عرفت الجاهلية المعاصرة ((القوانين)) التى تحكم حركة الرياح، ولكنها غفلت عن خالق الرياح، وخالق تلك ((القوانين)) التى تسيرها.. ومع ذلك فالرياح لا تسير دائما حسب ما يتخيلون من حركتها بحسب تلك القوانين، فهى تفاجئهم بين الحين والحين مفاجآت لا تعليل لها عندهم.. ولا تعليل لها فى الحقيقة إلا مشيئة الله!

والسحاب كذلك من آيات الله .. سواء تعليقه بين السماء والأرض، أو ((تسخيره)) ليقوم بالمهام التى خلقها الله من أجله0

وفى آية واحدة من سورة واحدة يتم هذا الحشد الهائل من الإيقاعات التى يتلقها القلب البشرى فلا يملك ألا يتأثر بها، ولا يملك – فى حالته السوية – ألا يستجيب0

وكلها مشاهد يراها الإنسان على الدوام معروضة أمامه، ولكنه فى أحواله العادية قد لا يفكر فيها ولا يتدبرها، أو قد ينسبها فى غفلته – كما تصنع الجاهلية المعاصرة – إلى ((الطبيعة))! فلا تؤدى فى حسه ما ينبغى أن تؤديه من إيقاظ الفطرة إلى حقائق الوجود، وبالذات إلى الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود: حقيقة الألوهية، وحقيقة القدرة المعجزة التى أوجدت هذا الكون كله، وأجرت فيه ما أجرت من أحداث وأمور0

ولكن السياق القرآنى يزيل هذه الغفلة بأكثر من وسيلة0

فهو بادئ ذى بدء يرد الأمور كلها، ويرد الخلق كله، إلى مصدره الحقيقى، إلى الله الذى خلق كل شىء، ويدبر كل شىء.. إلى الله الذى لا إله غيره: ((وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم))([1])0

---

[1] سورة البقرة : 163 0

ثم هو يبث الحركة فى المشاهد التى يعرضها، فلا تصل إلى الحس ساكنة خامـــدة، كالمعلومـــات الذهنية التى تسكن فى الذهن ولا تحرك الوجدان. إنما تصل فى تتابع حى متحرك، يجعل الخيـــال يتـــابع حركتها واحدة إثر الأخرى، حتى ينتهى عرض الشريط بالكامل، والخيال هو الرســـول إلى الوجـــدان، يحركه من مكمنه، فينفعل بالحدث أو المشهد، فيصبح الحدث أو المشهد جزءا من محتوى الـــنفس، يؤثر فيها من داخلها، وليس شيئا خارجا عنها تملك ألا تلتفت إليه أو تنصرف عنه!

ثم يأتى الإعجاز البيانى فيشارك فى التأثير، حين يرسم بالألفاظ لوحة كاملة، حيـــة متحركـــة، يتملاها الخيال وينفعل بها الوجدان، كأنما هى صور متحركة لا مجرد ألفاظ0

وتتواكب التأثيرات كلها لتؤدى الهدف المطلوب، وهو إيقاظ القلب الغافل ليتوجه إلى الله00

* * *

ولكن التأثير عرضة لأن يخفت بعد حين، وتبرد حرارته فى الحس، نتيجة اشـــتغال الإنـــسان فى حياته الدنيا بأمور كثيرة تتعلق بحياته على الأرض، سواء كانت بحثا عن الرزق فى مناكـــب الأرض، أو ((استمتاعا))ن بشىء من متاع الحياة الدنيا: ((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنـــاطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا00))([1])

ويحتاج الإنسان دائماً إلى التذكير ، وإعادة التذكير 00

ولو ذكرناه بذات النص الذى أثار انفعاله من قبل، فلن يكون له فى حسه فى المرة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ما كان له فى أول مرة، فمن طبيعة الإنسان إزاء الشىء المكرور أن يقل إحساسه به فى كـــل مرة عن سابقتها، حتى يمر به يوما فلا يحس به، كأنه غير موجود!

والخالق العليم الخبير يعلم منه ذلك! ((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))([2])0

لذلك يذكره – فى كل مرة – بنص مختلف عن سابقه!

---

[1] سورة آل عمران : 14

[2] سورة الملك : 14 .

وتختلف النصوص بعضها عن بعض أنواعا مختلفة من الاختلاف. مرة فى ترتيب المعروضـــات فى النص فيحدث فيها تقديم وتأخير. ومرة بالتفصيل فى بعض الجزئيات والإجمال فى بعضها الآخر، ومرة فى ((الجو النفسى)) الذى تعرض فيه ما بين جو الرضا وجو الغضب، وجو الترغيب وجو الترهيـــب، ممـــا أشرنا إلى بعضه فى الفصل السابق، ووعدنا بمزيد من الحديث عنه فى هذا الفصل والذى يليه0

وخذا مثلا النص الذى ذكرناه آنفا، وراجع ((المعلومات)) الواردة فيه: إنها خلـــق الـــسموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر، والماء النازل من السماء ليحـــي الأرض، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض0

وانظر فى كل واحدة من هذه ((المعلومات)) كيف ترد فى نصوص أخرى00

خذ خلق السموات والأرض (ومعها فى أحيان كثيرة اختلاف الليل والنهار):

((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألبـــاب(190) الـــذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار))([1])0

((ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد([2]) وما ذلـــك على الله بعزيز))([3])0

((وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون))([4])0

((أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مـــسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون))([5])0

---

[1] آل عمران : 190 ، 191 0

[2] سورة هود : 7

[3] سورة إبراهيم : 19 ، 20 0

[4] سورة الجاثية : 22 0

[5] سورة الروم : 8

((الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون(4) يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون(5)ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم))([1])0

((ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين(11) فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم))([2])0

* * *

كل نص من هؤلاء – والنصوص غيرها كثير – يذكر السموات والأرض فى معرض مختلف عن الآخر 0

ففى النص الأول (من سورة آل عمران) يصف أولى الألباب بأنهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض، فينتهى بهم التفكر إلى أن الحياة الدنيا ليست هى نهاية المطاف، وأن هناك بعثا ونشورا، وجنة وناراً، فيتوجهون إلى الله أن يقيهم عذاب النار0

وفى النص الثانى (من سورة هود) يذكر الهدف من خلق السموات والأرض((ليبلوكم أيكم أحسن عملا))0

وفى النص الثالث (من سورة إبراهيم) يذكر خلق السموات والأرض فى جو التهديد للكافرين بأن الذى فى قدرته أن يخلق تلك السموات والأرض قادر على أن يذهبهم ويأتى بخلق جديد0

وفى النص الرابع (من سورة الجاثية) يذكر خلق السموات والأرض بالحق، ويترتب عليه جزاء كل نفس بما كسبت دون ظلم يقع على أحد 0

---

[1] سورة السجدة : 4-6

[2] سورة فصلت : 11،12

وفى النص الخامس (من سورة الروم) يذكر إلى جانب خلق الـــسموات والأرض بـــالحلق أنهـــا موجودة إلى أجل مسمى ، هو يوم القيامة، ويذكر إلى جانب ذلك أن كثيرا من الناس يكفرون بلقاء الله فى ذلك الأجل المسمى0

وفى النص السادس (من سورة السجدة) يذكر إلى جانب خلق السموات والأرض، الدال على تفرد الله بالخلق، وقدرته التى لا تحد، نفى الشفاعة عن الآلهة المزعومة التى لا حول لهـــا ولا طـــول. ثم يذكر أمر آخر: أن الأمر يتنزل من السماء إلى الأرض ثم يعرج إلى الله مرة أخرى فيما يوازى ألف سنة مما يعد البشر، مما يدل على سعة الكون، وقدرة الله المعجزة التى تخلق كونا واسعا بهذا القدر.

وفى النص السابع (من سورة فصلت) معلومات جديدة عن خلق الـــسموات والأرض، أنهمـــا مسخرتان بأمر الله لا تحيدان عن أمره، وأن السماء كانت فى منشإ أمرها دخانا. وأن الله خلق من هـــذا الدخان سبع سموات، ثم أوحى فى كل سماء ما هى مخلوقة من أجله، وأمرها الذى قدر لها أن تسير عليه. وأنه زين السماء الدنيا بمصابيح – هى الشمس والقمر والنجوم – وأن بعض ما تشتمل عليه – وهـــو الشهب– من مهامه حفظ السماء من محاولات الشياطين استراق السمع والاطلاع على الغيب00

وهكذا يتجدد العرض فى كل مرة، ويكون لخلق السموات والأرض فى كل مرة شأن غير شأنها السابق فى النص الآخر، فيتجدد المشهد، ويتجدد التأثير ، وينتفى التكرار الذى يؤدى إلى تبلد الحس على المشهد المكرور!

وخذ الجزئية الخاصة باختلاف الليل والنهار00 إنها ليست صورة واحدة ولكنها صور شتى:

((تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل 00))([1])0

((يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا00))([2])0

((وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون))([3])0

---

[1] سورة آل عمران : 27 0

[2] سورة الأعراف : 54 0

[3] سورة يس : 37 0

((قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفـــلا تسمعون(71) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليـــل تسكنون فيه أفلا تبصرون(72) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا مـــن فـــضله ولعلكم تشكرون))([1])0

((وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكـــم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا))([2])0

فأنت مع الليل والنهار فى جميع هذه الآيات - وكثير أمثالها – ولكنك فى كل مرة فى معـــرض غير الآخر وفى مشهد غير الآخر – ففى الاية الأولى أنت مع عملية متدرجة يدخل فيها الليل فى النـــهار فى رويدا رويدا، ويدخل النهار فى الليل كذلك بالتدريج. ولكنك فى الآية الثانية مع مشهد مختلف فالليل يغشى النهار ولكن فى حركة تشبه السباق أو الملاحقة؛ فالليل يلاحق النهار ليدركه أو يسبقه، ولكنـــه يظل فى طلبه فى حركة دائبة لا تنتهى، وهذا يمثل دوران الليل والنهار على سطح الكرة الأرضية. بينمـــا كان المشهد فى الآية الأولى يمثل بقعة واحدة منها، فى اللحظات التى يتداخل فيها الليل والنهار ثم تنتـــهى بدخول أحدهما فى الآخر واختفاء الأول من المشهد. وفى الآية الثالثة مشهد مختلف تماما عـــن المـــشاهد الأخرى كلها التى يرد فيها ذكر الليل والنهار ثم تنتهى بدخول أحدهما فى الآخر واختفـــاء الأول مـــن المشهد. وفى الآية الثالثة مشهد مختلف تماما عن المشاهد الأخرى كلها التى يرد فيها ذكر الليل والنـــهار، يناسب جو الغضب الذى ينصب فى السورة على الكافرين المعاندين، وهو مشهد ((سلخ)) النهار مـــن الليل، فإذا النور يختفى فجأة والليل يسوده الظلام([3]). أما الآية الرابعة فهى تخيل مشهدا غير موجود فى الحقيقة وهو النهار السرمدى الذى لا يتلو ليل، والليل السرمدى الذى لا يتلوه نهار، والذى يعرض لبيان فضل الله ورحمته بالناس، الذى جعل الليل والنهار خلفة، يخلف أحدهما الآخر، فيتيح للناس فترة للعمل والنشاط، وفترة للسكون والراحة. ولولا ذلك لتحولت الحياة إلى عذاب دائم، سواء فى الليل السرمدى الذى لا ضياء فيه، أو النهار السرمدى الذى لا سكن فيه. وأما الآية الخامسة فتعرض مـــشهدا مختلفـــا فالليل والنهار آيتان، ولكن آية الليل محيت! وهذا تصوير لكون الليل مظلما من ذات نفسه، إنما هو صار

---

[1] سورة القصص : 71 – 73 0

[2] سورة الإسراء : 12 0

[3] راجع ما قلناه عن هذا المشهد فى الفصل السابق0

هكذا لأن الله الخالق ((محاه))، بينما جعل الله النهار مبصرا.. جعله .. فهو ليس منيرا من ذات نفسه، ولكن بجعل الله له على هذه الصورة. وفى ذلك تذكير بأن الأشياء كلها تأخذ وضعها الذى هى عليه بتقدير الله وتدبيره، وليس من ذات نفسها كما يبدو للإنسان حين يغفل عن الحقيقة الكبرى، وهى أن الله خالق كل شىء، ومعطى كل شىء هيئته التى هى عليه، لا بحتمية مادية، ولا بحتمية تاريخية كما يزعم التفسير المادى، وأن الهيئة التى عليها كل شىء ليست هى الصورة الوحيدة التى كان يمكن – نظريا – أن تكون عليها – وإنما هى الهيئة التى اختارها الله لها بحكمته ومشيئته وعلمه : ((.. ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى))([1])0

أما الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، فهى كذلك ترد فى مناسبات شتى، ولأهداف مختلفة :

((وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره))([2])0

((ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام(32) أن يشاء يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره أن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور(33) أو يوبقهن بما كسبوا))([3])0

((حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين(22) فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق))([4])0

((وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون))([5])0

((والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون(12) لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين(13) وإنا إلى ربنا لمنقلبون)([1])0

---

[1] سورة طه : 50 0

[2] سورة إبراهيم : 32 0

[3] سورة الشورى : 32 -34

[4] سورة يونس : 22 ، 23

[5] سورة النحل : 14

فأنت فى تلك النصوص كلها- وغيرها كثير- مع الفلك0 ولكنك معها فى كل مرة فى مــشهد مختلف، له فى كل مرة تأثير فى النفس مختلف0 فأنت فى الآية الأولى مع حقيقة من حقــائق الألوهيــة وحقائق الوجود، وهى تسخير الله للفلك لتجرى فى البحر بأمره0 وهى من الحقائق الكثيرة التى يغفــل الحس عنها حين يغفل عن الدلالات الكامنة فى كل شئ فى الوجود0 فلو لا ((التسخير)) من عند الله ما جرت الفلك فى البحر مهما حاول البشر0 فهم لا ينشئون شيئا من عند أنفسهم، لا المادة التى تــصنع منها الفلك، ولا((القوانين))(أو فلنقل السنن الربانية) التى جعلها تجرى فى البحر0 ثم إنها فى كــل مــرة تجرى((بأمر الله)) ولو لم يصدر الله لها الأمر ما جرت: ((إنا كل شئ خلقناه بقدر))([2])0

وأنت فى الآية الثانية مع سنة أخرى من سنن الله فى الكون، وهى إجراء الريح التى تدفع الفلــك فى البحر فتجرى، وكان يمكن أن يجعل الله الريح ساكنة فلا تجرى الفلك0 والإشارة بالطبع هى إلى الفلك الشراعية التى كانت تعتمد على الريح0 ولقد يظن الإنسان فى الجاهلية المعاصرة أنه قد تغلب على أمــر الله، واستغنى عن الريح فلم يعد يعتمد عليها فى تسيير السفن العملاقة التى تمخر العباب! ومثــل هــذا الإنسان- فى جاهليته- يغغل عن أن تلك السفن تمخر العباب بسنة من سنن الله، علمها الله للإنــسان، ولو لا أن الله علمها للإنسان، وسخر له الطاقة التى يعمل بها ما تم له شئ مما قام بعمله0 ومــع ذلــك، فالآية الثانية تدركه وهو فى أوج انتفاخه وغروره وقوله كما قال قارون من قبل: ((إنما أوتيته على علم عندى))([3])0 فتقول له أن الله قادر- إذا شاء- أن يهلك تلك السفن عقابا لأهلها00 وكم من ســفينة جبارة ظن أهلها أنهم قادرون عليها، فأوبقها الله بقدرته0 ليفيئ الإنسان من غروره، ويعلم أنه يعمل كل شئ بتسخير من الله، لا بعلمه الذاتى، ولا بقدرة ذاتية غير مستمدة من عند الله0

وأنت فى الآية الثالثة مع حالة من الحالات التى تعرض للإنسان فى مجرى حياته حين يكون بعيدا عن الهدى الربانى0 فهو فى ساعة الشدة وساعة الخطر يلجأ إلى الله، وينكشف الغطاء، ويوقن الإنــسان ألا ملجأ من إلا إليه، فيتوجه إليه بالضراعة، واعداً أنه إذا أنجاه الله من الكرب فسيكون من الشاكرين!

---

[1] سورة الزخرف : 12 – 14

[2] سورة القمر : 49

[3] سورة القصص : 78

فإذا قدر الله له النجاة فسرعان ما ينسى الخطر والشدة ويقول فى غفلته: ((ذهب السيئات عنى))![1]0
فينسى وعده أو يتناساه، ويلج فيما كان غارقاً فيه من الغواية: ((إنه لفرح فخور))[2]00

وأنت فى الآية الرابعة فى معرض أنعم الله على الإنسان، التى ينساها الإنسان فى غفلته، ويذكره القرآن بها ليشكر الله على نعمه0 ويأتى من بين هذه النعم جريان الفلك فى البحر، وابتغاء الناس من فضله عن هذا الطريق0 إشارة إلى ما تقوم به السفن من حمل الأرزاق من مكان إلى مكان0

وفى الآية الخامسة توجيه فى الاتجاه نفسه- وهو وجوب شكر الله على نعمه وأفضاله- ولكنه يأخذ صورة مختلفة، فهو يصور استواء الناس على ما سخر الله لهم من أدوات الركوب، سواء كانت من الأنعام التى سخرها الله للسفر فى البر، أو من السفن التى سخرها للسفر فى البحر، مع تلقينهم صورة معينة لشكر الله على هذه النعمة بالذات، وهى أن يقولوا حين يستوون على ظهر الدابة أو على ظهر الفلك: ((سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين(13) وإنا إلى ربنا لمنقلبون))0 وبذلك يشكرون الله على النعمة، ويذكرون أنفسهم أنهم حيثما ذهبوا فهم فى ملك الله، وفى سلطان الله، وأنهم فى النهاية راجعون إلى الله0

وهى كما ترى أجواء مختلفة، وحالات مختلفة، يتم من خلالها توجيه القلب البشرى إلى الله0

وأما الماء النازل من السماء، فله كذلك مجالاته المختلفة، وتوجيهاته المختلفة0

((وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون))[3]0

((وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين))[4]0

((ألم ر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب))[1]

---

[1] سورة هود : 10
[2] سورة هود : 10
[3] سورة الأنعام: 99
[4] سورة الحجر : 22

((هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون(10) ينبت لكم بـــه الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون))([2])0

((الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الـــودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون(48) وإن كانوا من قبل يترل عليه من قبله لمبلسين(49) فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحى الأرض بعد موقما إن ذلك لمحيى الموتى وهـــو على كل شئ قدير)([3])0

ففى الآية الأولى، يذكر ظاهرة الإنبات التى تنشأ عن نزول الماء من السماء، ولكن السياق يحوى فى داخله إشارات مختلفة، كلها يخدم الهدف الأخير من إيراد هذه الآيات كلها: ((إن فى ذلكم لآيـــات لقوم يؤمنون))، أى أنها دعوة للإيمان الصحيح، الإيمان بالله وحده بلا شريك. وقد أشرنا إلى هذه الآية بالذات فى الفصل السابق، فى معرض الحديث عن التنويع، وذكرنا كيف يدل السياق على التنويع باللفظ المباشر، ثم بتنويع الأسلوب ذاته، ليعطى جو التنويع بالإيحاء، بالإضافة إلى الذكر الصريح.. ويلفت النظر هنا أن السياق لم يدخل إلى الوجدان من باب ((المصلحة)) أى من باب ((الفوائد)) التى يجنيها الإنسان من نزول المطر، ولكن من باب ((الجمال)) .. ((انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه))([4])! فقد خلق الله الكون جميلا ، وخلق فى الإنسان حاسة تتذوق الجمال وتعجب به. ومن خلال هذه الحاسة يوقظ الوجـــدان، ليتعرف على قدرة الله وعظمته، ليتوجه له بالعباة. فللجمال فى الكون، وللإحساس به عند البشر هدف مقصود: أن يتعرف الناس على ربهم تعرفا شاملا يشمل كل الجوانب، ولا يغادر جانبا لا يلم به. فانظر إلى الإنسان المؤمن كيف يكون الجمال فى الكون دعوة له لعبادة الله، والإنسان الجاهلى يتخذ الجمـــال فتنة فيعبده من دون الله! أو ينحرف به عن العبادة الحقه لله!

وفى الآية الثانية يشير إلى ثلاثة أمور كونية فى آن واحد: الأمر الأول هو الرياح ((اللواقح)) التى تكثف السحاب وتدفعه فيترل منه الماء. والأمر الثانى هو سقيا البشر من هذا الماء، وهو أمـــر تتوقـــف حياتهم عليه. والأمر الثالث هو عجز البشر عن اختزان هذا الماء، ولقيد يبدون لإنسان الجاهلية المعاصرة

---

[1] سورة الزمر : 21

[2] سورة النحل : 11،10

[3] سورة الروم : 48 –50 0

[4] سورة الأنعام : 99 0

أن هذا الأمر الأخير لم يعد واردا بعد تمكن الإنسان من إنشاء الخزانات الضخمة التى تختزن المـــاء! وأن الإنسان قد توصل بعلمه وقدرته إلى أن يشارك الله فى قدرته! وحقيقة، إن الله قد علم الإنسان ومكنـــه من تخزين بعض ما يجريه الله من المطر فى صورة أنهار. ولكن الجزء الأكبر من الأمطار التى تـــترل علـــى الأرض إما ذاهب إلى البحار والمحيطات، وإما متبخر بفعل حرارة الشمس، وإمـــا متـــسرب إلى بـــاطن الأرض، وكله ينطبق عليه النص: ((وما أنتم له بخازنين))([1])!

وفى الآية الثالثة أشار إلى الماء الذى يتسرب إلى باطن الأرض ثم يخرج على هيئة ينابيع، تـــسقى الأرض فيخرج منها زرع مختلف ألوانه.. وذلك فى معرض تذكير الناس، بمآل المتاع الأرضى، ((ثم يصير حطاماً)) لكى لا تفتنهم الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، عن الآخرة وما فيها من حساب وجـــزاء، ونعـــيم خالد أو شقاء0

وفى النص الرابع يشير إلى السقيا وإنبات الزرع، وإلى معجزة الخلق، التى تخلق الأنواع كلها التى تسقى بماء واحد، فتخرج مختلفة الأشكال والألوان والطعم والمذاق0

وفى النص الخامس يذكر برحمة الله التى تترل الغيث على الناس بعد ما يكونون قد قنطـــوا مـــن انقطاع المطر وأصابتهم الشدة من الجفاف، وذلك فى معرض تذكيرهم بأن الذى يحي الأرض بعد موتها قادر على أن يحي الموتى، وهو ما كان المشركون يستبعدونه تماما ويرونه مستحيلا.. فيقربه إليهم بقياسه إلى ما يرونه أمامهم من آيات القدرة الربانية، وأنه لا فرق – من حيث القدرة – بـــين إحيـــاء الأرض الميتة وإحياء الموتى، فالذى يقدر على هذه يقدر على تلك0

وفى الآيات كهلا أنت مع الماء النازل من السماء، ولكنك فى كل مرة مع مشهد مختلف، وتوجيه مختلف!

يأتى فى آية البقرة (164) بعد ذلك تصريف الرياح، والسحاب المسخر بين الـــسماء والأرض. ونكتفى بشأن الرياح بالنماذج السابقة التى ورد فيها ذكر الرياح اللواقح، والـــريح الطيبـــة، والـــريح العاصفة، والريح الساكنة، وإن كانت النماذج فى كتاب الله كثيرة. وننتقل الآن إلى السحاب المـــسخر بين السماء والأرض:

[1] سورة الحجر : 22 0

((ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله ويترل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكـــاد ســـنا برقـــه يـــذهب بالأبصار))([1])0

((هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال(12) ويـــسبح الرعـــد بحمـــده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال))([2])0

((أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعـــضها فـــوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور))([3])0

((الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الـــودق يخرج من خلاله))([4])0

((والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها))([5])0

فى الآية الأولى يصف الله سبحانه وتعالى كيفية تكون السحاب التراكمى بمراحله المختلفة، وذلك فى وقت لم يكن أحد قد صعد إلى الأجواء العليا ولا علم شيئا عن تراكم السحاب. وذلك أمر سنـــشير إليه مرة أخرى فى حديثنا عن الإعجاز العلمى0

وفى النص الثانى يجئ ذكر السحاب مع ما يصحبه من رعد وبرق وصواعق، فى معرض القـــدرة الإلهية من ناحية، وجدال الكفار حول الألوهية من جهة أخرى، لبيان تهافت هذا الجدل وقيامه على غير أساس0

وفى الآية الثالثة يجئ ذكر السحاب جزءا من لوحة الظلام المطبق التى تحدثنا عنـــها فى الفـــصل الماضى، فى المواجهة الرائعة بين أنور نور وأظلم ظلام0

---

[1] سورة النور : 43
[2] سورة الرعد : 12،13
[3] سورة النور : 40
[4] سورة الروم : 48
[5] سورة فاطر : 9

وفى الآيتين الرابعة والخامسة إشارة إلى إرسال الله للرياح فتثير السحاب الذى يصرفه الله كيف يشاء. ولكنا نلاحظ التنويع بين قوله تعالى فى الآية الأولى : ((الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً..)) وقوله تعالى فى الآية الأخرى: ((والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً..)) . والاختلاف مقصود للتنويع كما أشرنا فى الفصل السابق. ولكن الآية الأخيرة فيها إضافة أحدثها تغير زمن الفعل (مضارع فى الأولى وماض فى الثانية). فقوله تعالى: ((.. أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت)) تفيد أن من شأن إرسال الرياح أن تثير سحابا. كأنما أوكل الله إلى الرياح أن تقوم بهذا الأمر، تكليفا منه سبحانه وتعالى. فحين يرسل الله الرياح تقوم هى بما كلفها الله به، فتثير السحاب! وهذا وذاك من أمر الله وتدبيره، ولكن التنويع يضيف إلى المشاهد غنى، ويجدد تأثيرها فى النفس وإن تشابهت الألفاظ00

* * *

ولقد كنا حتى هذه اللحظة فى مناسبة نص واحد من النصوص القرآنية التى تعرض آيات الله فى الكون، وهو قوله تعالى: ((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون))([1]). وتطرق بنا الحديث عن هذا النص الواحد إلى النماذج المتعددة التى تتحدث عن المفردات الواردة فى هذا النص الحاشد. ولكن هذا النص ليس هو الوحيد فى كتاب الله فى شموله لآيات عدة من آيات القدرة الربانية .. ولو ذهبنا نتتبع كل النماذج لتشعب بنا الحديث أكثر. إنما أردنا فقط بإيراد هذا النص أن نفتح الباب للتأمل فى تنوع المشاهد وتعددها حتى وإن بدت لأول وهلة مكررة، وتعدد الأجواء التى تعرض فيها المشاهد، وكيف أنها تعطى فى كل مرة تأثيرا مختلفا فى النفس، وإيقاعا مختلفا على أوتار القلب، فيظل القلب فى تلق دائم لتلك الإيقاعات التى تجيئه من كل صوب، وتدخل إليه من كل مدخل، فلا يملك أن يتجاهلها أو ينصرف عن دلالتها00

* * *

[1] سورة البقرة : 164 0

ولكن مداخل النفس كثيرة كما أسلفنا. وكل الأمثلة التى أشرنا إليها حتى الآن هـــى فى مجـــال آيات الله فى الكون، سواء من جهة الضخامة المعجزة فى هذا الكون، أو الدقة المعجزة فيه. ولكن القدرة الربانية لها مجالات متعددة، وليست مجالا واحداً. وكلها مؤثر. وكلها موقظ للفطرة، لا يدع لها مجـــالا لأن تغفل عن الحقيقة العظمى فى هذا الوجود، وهى حقيقة الألوهية0

وقد أشرنا من قبل إلى ظاهرة الموت والحياة، وقلنا إنها من أشد ما يـــوقظ الفطـــرة إلى حقيقـــة الألوهية، بعد الإعجاز البادى فى الكون المادى سواء بضخامته أو دقته التى تروع الحس البشرى0

ونجد فى المقابل – فى كتاب الله – عناية واضحة بإبراز هذه الظاهرة، والدخول بها إلى أعمـــاق القلب الإنسانى لتهزه من أعماقه، وتوقظه من سباته.

فالله سبحانه وتعالى – بادئ ذى بدء- يصف نفسه بأنه ((الحى)) ((الحى القيوم)) ((الحى الذى لا يموت))..

ثم يصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه هو الحى المميت. وتتعدد مشاهد الإحياء والإماتـــة فتـــشمل البشر، والكائنات الحية الأخرى من الدواب والنبات، كما تشمل الأرض التى تكون ميتة فيحييهـــا الله بالماء النازل من السماء، ويبث فيها ألوانا مختلفة من الحياة، من دواب وزروع وأشجار0

ثم تركز النصوص القرآنية كثيرا على خاصية الإحياء – التى هى خاصية إلهية- لتثبت قـــدرة الله على إحياء البشر يوم القيامة بعد أن يكونوا قد أصبحوا عظاما ورفاتا. وتأخذ هذه القضية حيزا واســـعاً فى النصوص القرآنية فى مقابل الإنكار الشديد الذى كان العرب المشركون يواجهون به قضية البعـــث والنشور والحساب والجزاء حتى قالوا كما حكى القرآن عنهم : ((هل ندلكم على رجـــل ينبـــئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد(7) أفترى على الله كذبا أم به جنة))([1])0

ويجئ التركيز على ظاهرة الإحياء والإماتة تارة بتعبير مباشر، وتارة فى مشهد من مشاهد الحيـــاة الدنيا، وتارة فى مشهد من مشاهد القيامة، وفى جميع الأحوال نلحظ التنويع الواضح فى النصوص، كمـــا

[1] سورة سبأ : 7،8

نلحظ الإحاطة بالقلب البشرى من جميع منافذه فى هذه القضية كما فى غيرها من القـضايا، بحيث لا يملك أن يفلت من التأثر إلا أن يكون الران قد علاه كالصدأ، فلم يعد يستجيب0

ونأخذ الآن فى ذكر بعض الأمثلة لما قلناه، وهى غيض من فيض 00

((هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين))([1])0

((الله لا إله إلا هو الحى القيوم))([2])0

((وتوكل على الحى الذى لا يموت))([3])0

هذا فى باب تعريف الناس بربهم .. أنه هو الحى بذاته سبحانه وتعالى. الحى الـذى لا يستمد الحياة من غيرها، لأنه هو الحى القيوم. الحى الذى لا يدركه الفناء ولا الموت:

((كل شىء هالك إلا وجهه))([4])0

((كل من عليها فان() ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام))([5])0

ولا يحتاج الحس البشرى إلى جهد ليدرك معنى هذه الخاصية من خواص الله سبحانه وتعالى. فهو يدرك بالممارسة الواقعية أن الكائنات كلها تموت، فإذا كان هناك من هو حى دائم الحياة، لا يموت أبدا، فهو الإله الذى ليس كمثله شىء، وهو الذى تتعين عبادته وحده بلا شريك، لأنه هو المتفـرد بالحياة والدوام، كتفرده بالقدرة وبالتدبير 0

ثم يفيض القرآن فى الحديث عن الخاصية الأخرى التى يتفرد بها الله كذلك، وهى خاصية الإحياء والإماتة:

((يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى))([6])0

---

[1] سورة غافر : 65

[2] سورة البقرة : 255

[3] سورة الفرقان : 58

[4] سورة القصص : 88

[5] سورة الرحمن : 26 ، 27

[6] سورة يونس : 31 ، الروم : 19

((وآية لهم الأرض الميتة أحييناها00))([1])0

((إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصر))([2])0

((هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون))([3])0

((له ملك السموات والأرض يحيى ويميت))([4])0

وهذا إخبار مباشر بأن الله يحيى ويميت، وأنه – وحده – هو الذى يحي ويميت.

ولكن الأخبار يأتى أحيانا فى مشاهد معروضة لا فى تعبير مباشر :

((أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير(259) وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم))([5])

((وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون(72) فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون))([6])0

((ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين(12) ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين(13) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين(14) ثم إنكم بعد ذلك لميتون(15) ثم إنكم يوم القيام تبعثون))([7])

[1] سورة يس : 33
[2] سورة ق : 43
[3] سورة غافر : 68
[4] سورة الحديد : 2
[5] سورة البقرة : 259 ، 260
[6] سورة البقرة : 72 ، 73
[7] سورة المؤمنون : 12 – 16

وفى هذا المثال الأخير يفصل الله أطوار الجنين، مما سنعود إليه فى الحديث عن الإعجاز العلمـى. ولكنا نشير هنا إلى أن هذه الأطوار يعبر عنها فى آيات أخرى بأنها موت ثم حياة، فى مثل قوله تعـالى : ((كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون))[1]0

كما يجئ ذكر الإحياء والإماتة فى معرض التعبير عن قصر الحياة الدنيا وسرعة انقضائها فى مثـل هذا المشهد المؤثر : ((إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ممـا يأكـل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون))[2]0

وفى جميع الحالات، سواء كان التعبير مباشراً أو من خلال مشهد من المشاهد، فإن قضية المـوت والحياة تأخذ حيزا كبيرا فى كتاب الله، لأن الله يعلم أنها قضية ذات شأن عميق فى الحس البشرى، وأنها من موقظات الفطرة، التى توقظها لتتعرف على الله وتتوجه إليه0

ولكن القضية تستخدم فى كتاب الله الهدف آخر، بالإضافة إلى التأثير الوجدانى الذى تحدثـه فى النفس، وتربط به القلب البشرى بالله. إنها تستخدم على نطاق واسع للتدليل على قدرة الله على بعـث الموتى، ليحاسبوا على ما اكتسبوا فى حياتهم الدنيا من خير أو شر.. وكانت هذه القضية كما أسلفنا من أشد ما وقت بين المشركين وبين الإيمان بما أنزل إليهم من عند الله، وحسبانه من الأسـاطير، أو مـن السحر ، أو من الكذب الصراح!

((أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكـم مخرجـون(35) هيهـات هيهـات لمـا توعدون(36) إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين(37) إن هو إلا رجل افترى علـى الله كذبا وما نحن له بمؤمنين))[3]

((وقالوا إن هذا إلا سحر مبين(15) أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون))[4]0

((ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا))[1]0

---

[1] سورة البقرة : 28

[2] سورة يونس : 24

[3] سورة المؤمنون : 35 – 38

[4] سورة الصافات : 15 ، 16

((وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون(67) لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين))([2])0

((وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا))([3])0

((وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم))([4])

((وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون))([5])0

وكان رد القرآن عليهم غاية فى البساطة، وغاية فى الوضوح، وغاية فى استقامة المنطق، لولا أن الأمر فى حسهم كان أعجب من أن يصدقوه، واحتاج إلى التذكير المستمر، والمناقشة المستمرة، حتى استقر فى العقول والقلوب، وصار فى النهاية يقينا لا يقل فى قوته ووثاقته عن اليقين بوجود الله0

كان الرد القرآنى الواضح البسيط: أن الذى خلق أول مرة لا يعجز عن إعادة الخلق، بل هو أهون عليه!

((وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم))([6])0

((أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم))([7])0

((وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم(78) قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم))([8])0

---

[1] سورة مريم : 66 0

[2] سورة النمل : 67 ، 68

[3] سورة الإسراء : 49

[4] سورة يس : 78

[5] سورة السجدة : 10

[6] سورة الروم : 27

[7] سورة يس : 81

[8] سورة يس : 78 ، 79

((قل كونوا حجارة أو حديدا(50) أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدها قل الذى فطركم أول مرة))([1])0

((أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد))([2])0

هكذا كانت القضية فى غاية الوضوح. ولكنها – مع وضوحها – احتاجت إلى مجاهدة طويلة حتى استقرت. ذلك لأن حقيقة الخلق الأول – وهى الركيزة الرئيسة فى النقاش حول قضية البعث – لم تكن تحتل فى نفوس المشركين مساحتها الحقيقية التى ينبغى أن تأخذها. إنها أمر واقع، نعم! وهم لا ينكرونها: ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله))([3]). ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله))([4]). ولكنها حقيقة ميتة باردة فى حسهم، لا نبض فيها ولا إشعاع، لأن نفوسهم قد أكلها الصدأ، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم تعد الأصداء الحقيقية لحقائق الوجود تصل إليهم، سواء من ناحية تفرد الله بالألوهية وما يقتضيه ذلك من إفراد الله بالعبادة، فلا يعبد غيره، أو من ناحية الإيمان بالبعث حين يخبرهم به الوحى المنزل، ويدلل لهم عليه بأن الذى خلق أول مرة قادر على إعادة الخلق.. ولو كانت قضية الخلق من العدم – التى ذكرهم بها مرات ومرات – تأخذ فى حسهم مساحتها الحقيقية، ما حتاجوا إلى كل ما احتاجوا إليه من نقاش حول قضية البعث، مهما كانت غرابتها عليهم فى الوهلة الأولى. فإن خلق أبسط الكائنات، فضلا عن الإنسان، فضلا عن السموات والأرض هو أمر معجز لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى. فإذا أقروا أن الله هو الخالق- كما كانوا يقرون بالفعل – فما وجه الإنكار بالنسبة للنشأة الثانية؟!

إنها الجاهلية! ولا شىء غير الجاهلية!

واعجب إن شئت للجاهلية المعاصرة – التى تدل على التاريخ كله بما أحرزته من ((العلم)) – تنكر وجود الله أصلا، وتنكر البعث كذلك، وتنكر كل ما لا تدركه الحواس.. لا لأسباب ((علمية)) ولكن لسبب وجدانى بحت، هو الهروب من إله الكنيسة الذى كانت الكنيسة تستعبد الناس باسمه، وتضيق عليهم، وتضطهدهم، وتطاردهم فى يقظتهم ومنامهم، وتفرض عليهم كل أنواع الطغيان:

---

[1] سورة الإسراء : 50 ، 51

[2] سورة ق : 15

[3] سورة لقمان : 25

[4] سورة الزخرف : 87

الروحى والمالى والسياسى والعقلى والعلمى.. فهربوا إلى إله لا كنيسة له ولا رجال دين، ولا دخل لــه بأعمال الناس فى الأرض، يهيمون على وجوههم كالأنعام دون أن يحاسبهم علــى أعمــالهم، وسمــوه ((الطبيعة)) ونسبوا إليه الخلق والتدبير، وإن كانوا نفوا عنه ((الحكمة)) فقال عنه دارون: ((الطبيعة تخبط خبط عشواء! ((Nature works haphazardly)) 0

والجاهلية العربية لم تكن تنكر وجود الله، ولا أنه هو الخالق، ولا أنه هو مدبر الأمر، ولكنها – فى جهالتها – كانت تشرك به آلهة أخرى. أما البعث فموقفها منه لا يختلف كثيرا عن موقف الجاهليــة المعاصرة. فهو فى جانب منه ناشئ من عدم الرغبة فى أن يكون هناك رقيب يحاسبهم علــى أعمــالهم، وينذرهم بالعقاب الأليم على ما يقترفون من تصرفات خاطئة فى الحياة الدنيا، ســواء كانــت مظــالم يمارسونها، أو شهوات يغرقون فى حمأتها ولا يحبون أن يقلعوا عنها. ومن ثم ((يهربون)) من الموقف بنفى البعث أصلا، ونفى قدرة الله عليه، حتى يستريحوا من ذلك الخاطر المزعج، خاطر الحــساب علــى مــا يقترفون من أعمال، وينطلقوا مع شهواتهم بلا ضابط!

ومن قبل، قال قوم شعيب حين طالبهم نبيهم بالاستقامة فى البيع والشراء، وعدمن إيقاع الظلــم على الناس: ((أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحلــيم الرشيد))([1])0

فاستهجنوا منه أن يطالبهم بشىء يضبط تصرفاتهم، ويجعل لها معياراً غير أهــوائهم وشــهواتهم، ورفضوا الدين كله الذى جاء به شعيب عليه السلام من أجل ذلك0

كذلك استهجن مشركوا العرب دعوى البعث والنشور، والحــساب والجــزاء، كراهيــة لأن يحاسبوا، لا اعتمادا على ((منطق)) حقيقى يبرر إنكارهم0

((بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم))([2])0

((إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه))([3])0

---

[1] سورة هود : 87

[2] سورة الروم : 29

[3] سورة غافر : 56

((قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين(136) إن هذا إلا خلق الأولين(137) وما نحن بمعذبين))([1])

والسبب الأول فى ذلك بطبيعة الحال هو انطماس البصيرة، والغفلة التى تعطل حواس الهداية:

((لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون))([2])0

((وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم(73) وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون))([3])0

نعم .. ولكن القرآن – المعجز – ظل يعالج هذه القلوب المنكرة النافرة، حتى آمنت بالله، وآمنت بالبعث والنشور، وتعمق الإيمان فيها حتى صنع ما يشبه المعجزات!

* * *

جريان الأحداث ، سواء فى الكون المادى أو فى حياة البشر، من الأمور التى تروع الحس البشرى كما أشرنا آنفا، فيروح يبحث عن المحرك الذى يحرك الأحداث، كما يروح يتساءل عن دلالالتها: هل وراءها تدبير منظم. أم تحدث فوضى بلا نظام؟ وهل وراءها حكمة أم تحدث بلا حكمة ولا هدف؟!

والقرآن – المتزل من لدن خالق الفطرة، ومودع ما أودع فيها من نوازع واتجاهات ومنسربات عميقة – يلتقى مع الفطرة، فيحدثها حديثا مستفيضا عن حركة الأشياء وحركة الأحداث:

ولنعد إلى المثال الذى ذكرناه من قبل : ((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون))([4])0

---

[1] سورة الشعراء : 136 – 138

[2] سورة الأعراف : 179

[3] سورة المؤمنون : 73 ، 74

[4] سورة البقرة : 164

إن المثال الواحد قد تكون له دلالات مختلفة؛ وإيقاعات مختلفة. فقد أوردنا هذا المثال من قبـــل لبيان طريقة القرآن فى إحياء مشاهد الكون التى قد يتبلد عليها الحس بسبب الألفة الطويلـــة، فيعيـــدها القرآن جديدة، تصدر إشعاعها وإيقاعها، فيلتقطه القلب الغافل . والآن فى مجال الحركة المؤثرة التى تحرك الوجدان ليتتبعها00

ولكن المجال الذى نحن بصدده لا ينحصر فى ذلك المثال، فمثله فى القرآن كثير :

((الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقـــا لكـــم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار(32) وسخر لكم الشمس والقمر دائـــبين وسخر لكم الليل والنهار(33) وآتاكم من كل ما سألتموه))([1])0

((والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم(38) والقمر قدرناه منـــازل حـــتى عـــاد كالعرجون القديم(39) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النـــهار وكـــل فى فلـــك يسبحون))([2])0

((يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كـــل يجـــرى لأجـــل مسمى))([3])

((ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا() ثم قبضناه إلينا قبضا يسيراً))([4])0

((وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون() ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون))([5])0

وخذ نماذج من حركة الأحداث فى عالم البشر :

---

[1] سورة إبراهيم : 32 – 34

[2] سورة يس : 38 – 40

[3] سورة الزمر : 5

[4] سورة الفرقان : 45 ، 46

[5] سورة النحل : 68 ، 69

((قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتترع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتـــذل مـــن تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير))([1])0

((الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير))([2])0

((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون(44) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين))([3])0

((إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين(76) وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تـــنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين(77) قال إن أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون(78) فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يـــا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم(79) وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمـــن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون(80) فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين(81) وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبـــسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون(82) تلـــك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين))([4])0

((.. فكلأ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنـــهم مـــن خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون))([5])0

---

[1] سورة آل عمران : 26

[2] سورة الروم : 54

[3] سورة الأنعام : 44

[4] سورة القصص : 76 – 83

[5] سورة العنكبوت : 40

أما السؤال الذى يرد على الفطرة بشأن ما يحدث من أحداث فى الكــون المــادى وفى حيــاة الإنسان، فيجيب القرآن عليه إجابة مفصلة. وسنعود إلى هذه الإجابة بتفصيل أكبر عند الحديث عــن الإعجاز التربوى. ولكنا هنا نوردها لبيان أبعاد هذا الأمر فى مجال الدعوة إلى العقيدة الصحيحة0

إن القرآن يقول للناس ابتداء إن كل شىء يتم بقدر يقدره الله :

((إنا كل شىء خلقناه بقدر))([1])0

وإن الله إذا أردا شيئا فإنما يقول له كن فيكون:

((إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون))([2])0

ثم إنه لا مشيئة لأحد مع مشيئة الله:

((وما تشاءون إلا أن يشاء الله))([3])0

وإنه لا شىء يقف فى وجه المشيئة الربانية فيمنع وقوعها :

((إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً))([4])0

((وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً))([5])0

وإن لله – مع طلاقة مشيئته – سننا يجرى بها الأحداث فى الكون المادى وفى حياة البشر، ثبتــها الله سبحانه بعلمه وحكمته، وجعلها غير قابلة للتبديل ولا التحويل.

((فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا))([6])0

((سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً))([1])0

---

[1] سورة القمر : 49

[2] سورة النحل : 40

[3] سورة الإنسان : 30

[4] سورة الطلاق : 3

[5] سورة فاطر : 44

[6] سورة فاطر : 43

((قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين))([2])0

وإن من بين سننه فى حياة البشر أنه يعطى الدنيا للمؤمن والكافر على الـــسواء إذا اجتهـــدا فى تحصيلها :

((كلا نمد هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً))([3])0

((من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون))([4])0

ولكن تفترق سننه – بعد ذلك – ما بين المؤمن والكافر. فقد يعطى الكافر على كفره، بل يمد له فى العطاء إلى حين :

((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتـــة فإذا هم مبلسون(44) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين))([5])0

أما المؤمنون فلا يعطيهم إلا إذا وفوا بالشرط :

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً))([6])0

وأن من سننه مداولة الأيام بين الناس

((وتلك الأيام نداولها بين الناس))([7])0

ومن سننه التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل لحفظ الأرض من الفساد :

---

[1] سورة الفتح : 23
[2] سورة آل عمران : 137
[3] سورة الإسراء : 20
[4] سورة هود : 15
[5] سورة الأنعام : 44،45
[6] سورة النور : 55
[7] سورة آل عمران : 140

((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين))([1])

ثم إن الأحداث تجرى فى الكون المادى وفى حياة البشر لهدف وحكمة، فلا هى تجرى اعتباطـــا، ولا هى عبث لا غاية له :

((إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا))([2])0

((ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون))([3])0

((وجعلنا الليل والنهعار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا))([4])0

((وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وتـــرى الفلـــك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون))([5])0

((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون))([6])

((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفـــروا مـــن النار))([7])0

((وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون))([8])0

((ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون))([9])

((عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون))([10])0

---

[1] سورة البقرة : 251
[2] سورة الكهف : 7
[3] سورة الأنبياء : 35
[4] سورة الإسراء : 12
[5] سورة النحل : 14
[6] سورة المؤمنون : 115
[7] سورة ص : 27
[8] سورة النحل : 15
[9] سورة القصص : 73
[10] سورة الأعراف : 129

((قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر))([1])0

((ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض))([2])0

((وجلعنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون))([3])0

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(2) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))([4])0

((وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين(140) وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين))([5])0

((وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين))([6])0

فالأشياء والأحداث تتحرك على الدوام، ولكنها حركة منضبطة تحكمها النواميس من جهة، وتسير بها لغاية معينة من جهة أخرى، فلا عبث ولا فوضى ولا انفلات، ومن رواء الأشياء والأحداث قدر الله: ((وكل شيء عنده بمقدار))([7])0

* * *

العجز والقدرة من الأشياء التى تلفت الحس البشرى كما أشرنا من قبل؛ ومقارنة العجز البشرى بقدرة الخالق الذى لا يعجزه شيء من المنافذ الفطرية التى توقظ الفطرة إلى حقيقة الألوهية، فتهتدى – حين تهتدى– إلى الإله الحق، أو تنسب القدرة كلها أو شيئا منها – حين تضل– إلى كائنات أخرى فتنسب إليها الألوهية أو تشركها فى الألوهية مع الله0

---

[1] سورة النمل : 40
[2] سورة محمد : 4
[3] سورة الفرقان : 20
[4] سورة العنكبوت : 2،3
[5] سورة آل عمران : 140 ، 141
[6] سورة الدخان : 33
[7] سورة الرعد : 8

والجاهلية العربية التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة لم تكن تمارى فى قضية العجــز البــشرى، وقدرة الله التي لا يعجزها شيء. وقد سجل القرآن عليهم إقرارهم لله بالخلق والقوة والتدبير:

((قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون(84) سيقولون لله قل أفلا تذكرون(85) قل مــن رب السموات السبع ورب العرش العظيم(86) سيقولون لله قل أفلا تتقون(87) قل من بيده ملكــوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون(88) سيقولون لله قل فأنى تسحرون))([1])0

إنما كانت مشكلتهم الكبرى كما أشرنا من قبل هى توهم وجود آلهة أخرى مع الله، واعتقاد أن لها شفاعة مستجابة عند الله، وتوجيه ألوان من العبادة لها مع الله أو من دونه، ســواء كانــت اعتقــادا بألوهيتها، أو توجها لها بالدعاء أو الصلاة أو الذبح أو النذر أو الاستغاثة أو الاستعانة00

ولقد ركز القرآن على دحض هذه الأوهام تركيزاً شديدا حتى تتمحض العبادة لله وحــده دون شريك :

((قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون(59) أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مــع الله بل هم قوم يعدلون(60) أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بــين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون(61) أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكــشف الــسوء ويجعلكم خلفاء الأرض أغله مع الله قليلا ما تذكرون(62) أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومــن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون(63) أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين))([2])0

((قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار))([3])0

---

[1] سورة المؤمنون : 84 – 89 0
[2] سورة النمل : 59 – 64
[3] سورة الرعد : 16

((واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضـــرا ولا نفعـــا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا))([1])0

((قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى مـــن الميـــت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون(31) فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون(32) كذلك حقت كلمت ربك علـــى الـــذين فـــسقوا أنهـــم لا يؤمنون(33) قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيـــده قـــل الله يبـــدأ الخلـــق ثم يعيـــده فـــأنى تؤفكون(34) قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون))([2])0

((يا أيها الناست ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابـــا ولـــو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب))([3])0

ولقد يبدو للوهلة الأولى أن هذه الآلهة التى كان العرب فى جاهليتهم يعبدونها مع الله أو من دونه قد انتهى أمرها، فلم يعد لتلك الآيات الكثيرة فى كتاب الله التى تتحدث عن ((الشركاء)) مكان فى عالم اليوم ((المتحضر)) ((المتقدم)) ، وأن هذا القسم من كتاب الله يحفظ ((للذكرى))! ولكن ليـــست لـــه مهمة يؤديها اليوم، وليس له نداء يخاطب عقول المتحضرين! ولكن ليست له مهمة يؤديها اليوم، وليس له نداء يخاطب عقول المتحضرين! وليس هناك وهم أبعد عن الحقيقة من هذا الوهم! فهـــذه الجاهليـــة المعاصرة بالذات ربما تكون أحوج الجاهليات لهذا النداء! فإنسان الجاهلية المعاصرة قد أله نفسه، وهـــو أبعد الكائنات عن أن يكون إلها، مع الله أو من دونه!

لقد كانت الآلهة المزعومة فى الجاهلية العربية – وغيرها – كانت أسطورية، نعم، ولكنها فى وهم أصحابها كائنات فائقة، لها صفات غير عادية، تؤهلها – فى ظنهم– لمشاركة الإلـــه فى ألوهيتـــه. أمـــا الجاهلية المعاصرة التى تؤله الإنسان فهى هى التى تصفه بأنه ذلك الحيوان (الدوارويني)) المتطور، الـــذى

[1] سورة الفرقان : 3
[2] سورة يونس : 31 – 35
[3] سورة الحج : 73

تطور عن أحد القردة العليا: الشمبانزى والغوريلا والأورانج أوتانج (إنسان الغاب) والجيبون.. فيا له من إله!

الإله الذى سفك من الدماء فى هذا القرن الأخير وحده ما لم تسفكه وحوش الأرض ربما فى تاريخها كله! والذى جعل قانونه الأسمى هو قانون الغاب: القوى يأكل الضعيف أو يزيحه من الطريق. والذى لم يكذب فى تاريخ البشرية كلها أحد مثله ما بين الشعارات المرفوعة والواقع الفعلى، الذى لا يمت بصلة للشعار المرفوع! والذى سخر عقله الذى منحه الله إياه فى صنع الشر أضعاف أضعاف ما سخره فى فعل الخير، والذى نشر من الفساد والانحلال الخلقى فى الأرض ما تعف عنه كثير من الحيوانات ذات الفطرة السوية التى لم تفسدها ((حضارة)) ذلك الإله المزعوم. ومع ذلك يقول قائلهم : إن الإنسان قد خضع لله فى الماضى بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله!([1])0

ونعوذ بالله من الكفر 00

ونعوذ إلى كتاب فنجده قد تعرض لتبجح المتبجحين اليوم، كأنما نزل الآن ليرد على تبجحهم، مع أنه قد أنزل من قبل أربعة عشر قرنا 00 وإن هذا ذاته لمن الإعجاز!

إن الذى ألم بالجاهلية المعاصرة – بسبب ما حصلت عليه من المعرفة – أشنع بكثير مما كان يلم بالجاهلية العربية بسذاجة أفكارها وسذاجة معتقداها، فضلا عما تتصف به هذه الجاهلية الحديثة من الغرور العلمى الذى يخيل إليها أنها ((شبت عن الطوق، ولم تعد فى حاجة إلى وصاية الله([2])! والذى يخيل إليها من جانب آخر أنها سيطرت على البيئة!

إن زلزلة واحدة كالزلزال الذى حدث فى تركيا وخسف القاعدة الحربية البحرية التى تطاول فيها أحد ضباطهم على رب العرش فى علاه، ومزق المصحف وداسه بأقدامه، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وراح ضحية الزلزال عشرة آلاف من البشر([3])، وإن عاصفة واحدة كالعاصفة التى اجتاحت شمالى فرنسا

[1] هذه قولة جوليان هكسلى فى كتابه ((الإنسان فى العالم الحديث Man in the modern world

[2] هذه قولة شائعة فى كتاباقم0

[3] حدث هذا الزلزال فى صيف عام 1420هـ (1999م)

فاقتلعت أربعين ألف شجرة راسية شامخة، وقتلت من قتلت، وحطمت ما حطمت فى شتاء عام 1420هـ (1999م) .. لكفيلة أن ترد الناس إلى صوابهم، لو كانوا يعقلون00

ولقد أنذرهم الله فى كتابه الذى أنزله قبل أربعة عشر قرنا، ولا يزال الإنذار قائما إلى قيام الساعة :

((أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور(16) ام أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير))[1]0

((أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور))[2]0

إن العلم هبة من عند الله سبحانه وتعالى:

((وعلم آدم الأسماء كلها 000))[3]0

((اقرأ وربك الأكرم(3) الذى علم بالقلم(4) علم الإنسان ما لم يعلم))[4]0

وهو قمين فى النفس السوية بأن يجعل الإنسان أكثر تقربا إلى الله وخشية له:

((.. إنما يخشى الله من عباده العلماء))[5]0

ولكن الجاهلية المعاصرة – التى تستمد مفاهيمها ومشاعرها من التراث الرومانى الإغريقى الوثنى – قد ورثت فيما ورثت من ذلك التراث أن العلم شيء انتزعه الإنسان من الإله على كره منه، فهو يستخدمه للتمرد على سلطان الله، وتأليه نفسه بدلا من الله[6]، حتى يقول ذلك الملحد الذىأشرنا إليه من قبل – جوليان هكسلى – إن الإنسان كلما ازداد علما ارتفع فى حس نفسه درجة، وهبط الإله فى حسه فى ذات الوقت درجة، حتى يأتى اليوم الذى يخلق فيه الإنسان الحياة، فيصبح هو الله!

---

[1] سورة الملك : 16،17

[2] سورة الملك : 20

[3] سورة البقرة : 31

[4] سورة العلق : 3-5

[5] سورة فاطر : 31

[6] راجع أسطورة ((بروميثيوس سارق النار المقدسة))

نعوذ بالله مرة أخرى من الكفر 00

ونعود إلى كتاب الله فنجد فيه الرد على تبجح المتبجحين اليوم، كأنما أنزل اليوم ليرد عليهم:

((أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون(35) أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون))([1])

((أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور))([2])0

فلو حجب عنهم العلم فكيف كانوا يعلمون؟ ولو أمسك عنهم الرزق فكيف يعيشون؟

وهم أنفسهم – أو عقلاؤهم على الأقل- قد بدءوا يدركون أن ما كشفه لهم العلم من الأسرار لا يقاس إلى جانب ما اكتشفوا أنهم يجهلونه من أسرار الكون! وأن كل كشف جديد يفتح الباب على مجاهيل جديدة لم يكونوا أصلا يدركون وجودها، وأنهم فى كل مرة يقفون أمام حاجز جديد عليهم أن يتخطوه.. وأن الحاجز الأكبر الذى يقفون أمامه من مبدأ الأمر إلى آخر الأمر، هو : لماذا تتصرف الأشياء على النحو الذى اكتشفوا أنها تتصرف عليه، وليس على أى نحو آخر؟! أى بعبارة أخرى: سر الخلق! ((ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى))([3]) وهم فى النهاية كما وصفهم الله فى كتابه المترل: ((يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون))([4])0

* * *

أما قضية الشفاعة المزعومة – التى تقوم على توهم أن بعض هذه الآلهة المدعاة لها شفاعة مقبولة عند الله – فقد عنى القرآن بتفنيدها عناية واضحة، لأنها – فوق بطلانها فى عالم الحقيقة – ذات أثر مفسد لعقائد الناس وسلوكياتهم، إذ تفسد التصور الصحيح لحقيقة الألوهية، وتغرى البشر بمعصية أوامر الله اتكالا على شفاعة الآلهة التى تنجيهم من العقاب!

((أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون))([5])0

---

[1] سورة الطور : 35،36

[2] سورة الملك : 21

[3] سورة طه : 50

[4] سورة الروم : 7

[5] سورة الزمر : 43

((وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعـــد أن يـــأذن الله لمـــن يـــشاء ويرضى))([1])0

((يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلـــة ولا شـــفاعة والكافرون هم الظالمون(254) الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى الـــسموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه))([2])0

((الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم مـــن دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون))([3])0

((ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له000))([4])0

ومرة أخرى قد يبدو لأول وهلة أن معتقدات الجاهلية العربية حول الشفاعة والشفعاء قد انتهى أمرها، وأن هذا القسم من كتاب الله الذى يتحدث عن الشفاعة هو للذكرى! وليس له مكان فى عـــالم اليوم! فنقول إن العالم الإسلامى ذاته – فى غربة الإسلام الحالية – أحوج ما يكون إلى تدبر آيات الله فى هذا الشأن، وقد أفسدت الصوفية الجانحة عقائد الناس، وضخمت الشيخ فى حس المريـــد حـــتى صـــار واسطة بينه وبين الله، وشفيعا له عند الله، لا فى أثناء حياته فحسب، بل حتى بعد أن يموت ألف عام!

وذلك فضلا عن وثنيات شتى ما تزال تعيث فسادا فى الأرض!

* * *

قضية الغيب – كما أسلفنا – من موقظات الفطرة، ومن المؤثرات التى توقع إيقاعات شتى على الحس البشرى. فهناك باستمرار غيب لا يستطيع الإنسان إدراكه، هو المستقبل كله، ســـواء المـــستقبل البعيد أو المستقبل القريب، وهناك – دائما – رغبة ملحة عند الإنسان أن يعرف ما يحدث له غدا، ولو

---

[1] سورة النجم : 26

[2] سورة البقرة : 254 ، 255

[3] سورة السجدة : 4

[4] سورة سبأ : 23

فى خطوط عريضة إن تعذر التفصيل. ولكنه – فى واقع الأمر – عاجز عن معرفة شىء يقـــين بالنـــسبة لذلك الغيب لا بالإجمال ولا بالتفصيل00

ومن هنا يهزه حديث الغيب!

والقرآن لا يفتأ يحدث هذه الهزة فى القلوب!

((وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمهـــا ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين))([1])0

هل هناك إحاطة أدق أو أشمل من هذه الإحاطة؟! حتى الورقة الساقطة من غصنها، حتى الحبة فى ظلمات الأرض، حتى الرطب واليابس.. إحاطة تدير الرءوس! يلهث الخيال البـــشرى فى تتبعهـــا فـــلا يستطيع اللحاق بها وهى تنتقل به من مكان فى الأرض إلى مكان، ومن مجال إلى مجال!

((قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله))([2])0

((عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال() سواء منكم من أسر القول ومن جهر بـــه ومـــن هـــو مستخف بالليل وسارب بالنهار() له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله))([3])0

((وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى))([4])0

((إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير))([5])0

((إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله علـــى كل شىء قدير))([6])0

---

[1] سورة الأنعام : 59
[2] سورة النمل : 65
[3] سورة الرعد : 9-11
[4] سورة طه : 7
[5] سورة لقمان : 34
[6] سورة آل عمران : 29

((ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر من ذلك إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عيم))([1])0

ويلاحظ أن حديث الغيب يأخذ مسارين اثنين، كلاهما ذو تأثير عميق فى الحس البشرى. أحد المسارين هو إبراز حقيقة علم الله الشامل بالغيب، التى تهز الوجدان البشرى من ناحية عجز الإنسان عن استكناه الغيب، ومن ثم يروعه أن يقف – بعجزه – أمام القدرة القادرة التى لا يخفى عليها شيء، ولا يغيب عنها شيء . والمسار الثانى هو إبراز حقيقة علم الله الشامل بالغيب، الذى يراقب الإنسان فى حركاته وسكناته، والذى يعلم جهره وسره، بل ما هو أخفى من السر، وهو مكنونات القلب التى لا يبوح بها الإنسان حتى لنفسه! فأنى يستخفى الإنسان عن رقابة الله التى تلاحقه فى كل مكان وفى كل حال، وأنى يلجأ ليدارى أفعاله عن علم الله، الذى يعلمها حال وقوعها، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة ولو كانت مثقال ذرة!

((يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير))([2])0

((يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم(6) فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره(7) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره))([3])

((ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين))([4])0

* * *

ولا يكمل حديثنا عن الإعجاز القرآنى فى مجال العقيدة دون أن نشير إلى أسماء الله الحسنى التى ترد ورودا ظاهراً فى كتاب الله، والتى تختم بها كثير من الآيات فى القرآن الكريم:

---

[1] سورة المجادلة : 7
[2] سورة لقمان : 16
[3] سورة الزلزلة : 6-8
[4] سورة الأنبياء : 47

((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الـذين يلحـدون فى أسمائـه سـيجزون مـا كـانوا يعملون))([1])0

((قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله السماء الحسنى00))([2])0

((الله إلا إله إلا هو له الأسماء الحسنى00))([3])0

إن الأسماء والصفات التى يكثر ورودها فى القرآن الكريم لتؤدى مهمتين رئيـسيتين إحـداهما فى مجال الدعوة، والأخرى فى مجال التربية0

ونتحدث هنا عن مجال الإعجاز الدعوى، ونعود إلى الحديث مرة أخـرى فى مجـال الإعجـاز التربوى0

إن هدف الدعوة الأول هو تعريف الناس بربهم الحق، وإزالة كل غبش حول قضية الألوهيـة فى نفوس الناس، سواء كان ناشئا من قصور فى العلم، أو فساد فى التصور، أو عرف فاسد، أووهم عـالق بالأذهان، أو جنوح إلى خرافة أو أسطورة لها ثقل الحقيقة فى نفوس المؤمنين بها وهى مجرد ظن لا يقـين فيه 00 وقد كان ذلك كله موجودا فى الجاهلية العربية، وهو دائما موجود فى صورة منالصور فى كـل جاهلية، لا يستثنى منها الجاهلية المعاصرة، التى ابتدعت إلها سمته ((الطبيعة)) وأعطته صفة الحقيقة العلمية، وهو مجرد أسطورة لا وجود لها فى عالم الواقع([4])، وابتدعت شيئا سمته ((الخلق الذاتى)) وهو أسـطورة أخرى لا وجود لها فى عالم الواقع، وألهت ((العقل) وهى ذاتها تعترف بأن ما يجهله ((العلم)) من أسرار الكون والحياة أكثر بكثير مما يعلمه! ثم ألهت الهوى والشهوات التى توشك أن تدفع الإنسان إلى درك من الهبوط لم يصل إليه فى تاريخه كله!

إن الداء الأكبر فى الجاهلية – كل جاهلية – أنها تجهل حقيقة الألوهية!

---

[1] سورة الأعراف : 180

[2] سورة الإسراء : 110

[3] سورة طه : 8

[4] نقصد أسطورة الطبيعة الخالقة التى قال عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق!

ومن ثم كانت عناية القرآن الكبرى بجلاء هذه الحقيقة، بحيث تأخذ مساحتها كاملة فى الـــنفس، وشفافيتها الكاملة فى الحس، وتأثيرها الكامل فى الوجدتان.. فتستقيم حياة الإنسان فى الأرض – وهـــى لا تستقيم بغير ذلك! – لأن أى غبش فى هذه القضية يحدث اختلالات مدمرة فى كيان الإنسان، ويقوده إلى الضلال. وسوف نفصل الحديث عن هذه النقطة عند الحديث عن الإعجاز التربوى فى كتاب الله0

أما هنا فنشير إلى أن إحدى الوسائل الرئيسية فى تعريف الناس بربهم هـــى الأسمـــاء والـــصفات الواردة فى القرآن، التى يتكرر ورودها كثيرا جدا فيه، وكثيرا ما تكون ختاما للآيات القرآنية فتختم الآية بقوله تعالى : ((والله سميع عليم))([1]) أو قوله تعالى: ((إن الله لطيف خبير))([2]) أو قولـــه تعـــالى: ((والله على كل شىء قدير))([3]) إلى غير ذلك من الأسماء والصفات0

ويجئ ذكر الأسماء والصفات إما بتعبير مباشر كقوله تعـــالى: ((قـــل هـــو الله أحـــد (1) الله الصمد(2) لم يلد ولم يولد (3) ولم يكن له كفوا أحد))([4])، أو قوله تعالى: ((هو الله الذى لا إلـــه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم(22) هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القـــدوس الـــسلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون(23) هو الله الخالق البارئ المـــصور لـــه الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم))([5]).. وإما يجئ تعقيبا على مشهد من المشاهد الدنيوية أو الأخروية بما يناسب طبيعة المشهد، وبما يدل فى الوقت ذاته على بعض الهدف من إيراد المشهد، أى أنه يورد للدلالة على صفة من صفات الله جل وعلا، إلى جانب ما يكون من أهداف أخرى فى السياق.

((ثم أنز عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنـــون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شئ قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الـــذين كتـــب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلـــوبكم والله علـــيم بـــذات

---

[1] سورة البقرة : 224

[2] سورة الحج : 63

[3] سورة البقرة : 284

[4] سورة الإخلاص : 1-4

[5] سورة الحشر : 22-24

الصدور(154) إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم))([1])0

((لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم(117) وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم))([2])0

((فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم))([3])0

((ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين))([4])0

((وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير))([5])0

((وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً(30) يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما))([6])0

((يا أليها الإنسان ما غرك بربك الكريم(6) الذى خلق فسواك فعدلك(7) فى أى صورة ما شاء ركبك))([7])0

((فما يكذبك بعد بالدين(7) أليس الله بأحكم الحاكمين))([8])0

((أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور(9) وحصل ما فى الصدور(10) إن ربهم بهم يومئذ لخبير))([9])0

---

[1] سورة آل عمران : 154 ، 155

[2] سورة التوبة : 117،118

[3] سورة الأنعام : 96

[4] سورة الأنعام : 62

[5] سورة الأنعام : 73

[6] سورة الإنسان : 30-31

[7] سورة الانفطار : 6-8

[8] سورة التين : 7،8

[9] سورة العاديات : 9-11

((يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين))([1])0

((قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير))([2])0

والأمثلة أكثر من أن تحصى.. والهدف الذى يتحقق من خلالها – مع كثرتها وتعددها – هو تكوين تصور واضح لحقيقة الألوهية يشمل كل المجالات وكل الأحوال التى تعرض للبشر، بحيث يشعر الإنسان أيا كان توجهه أن الله تجاهه، بصفة من صفاته أو اسم من أسمائه، فلا يكون شىء فى حياة الإنسان أو فكره أو مشاعره إلا وهو مرتبط ارتباطا وثيقاً بالله سبحانه وتعالى. وسوف نعاود الحديث عن هذه النقطة لنزيدها جلاء حين نتحدث عن الإعجاز التربوى فى القرآن الكريم0

* * *

بهذه الوسائل جميعا، ومن هذه المنافذ جميعا تنفذ إلى القلب البشرى حقيقة لا إله إلا الله، فتتعمق وتتوثق وترسخ، حتى تصبح يقينا لا يتزلزل، وعقيدة صافية لا غبش فيها ولا خفاء، ولا أوهام ولا التواء 00

ولسنا نعرف – بصورة يقينية – ماذا كان فى الكتب المنزلة قبل القرآن فى قضية لا إله إلا الله، قبل أن تحرف على أيدى الكهنة ورجال الدين ومن تبعهم من عامة الناس، وإن كنا نعرف يقينا – من كتاب الله – أنها كلها دعت لتوحيد الله، وعبادته وحدهن بلا شريك00

ولكن القرائن كلها تقول إنه ما من كتاب – قبل القرآن – تحدث عن هذه القضية بهذا العمق، وهذه السعة،وهذا الوضوح، وهذا الشمول، ودخل بها من كل منافذ الفطرة، ومن كل مسارب النفس، بحيث تستوعب النفس من جميع أقطارها، وتتغلغل فيها إلى أعمق أعماقها كما فعل القرآن 00 كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التى تمت بها النعمة واكتمل الدين:

((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا))([3])0

---

[1] سورة النور : 25

[2] سورة المجادلة : 1

[3] سورة المائدة : 3

وذلك جانب من جوانب الإعجاز فى هذا الكتاب الجليل، جدير بالتأمل، والتدبر، والالتفات0

من الإعجاز التربوى

نستطيع فى كلمة مختصرة أن نقول عن الإعجاز التربوى فى كتاب الله إنه هو الذى أخرج من القبائل المتناحرة فى الجزيرة العربية ((أمة)) لأول مرة فى تاريخها، وليس أى أمة، إنما خير أمة أخرجت للناس00

لقد عاشت هذه القبائل أمدا لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، تتكلم لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها ما بين قبيلة وقبيلة، وتسكن أرضا متصلة وإن تباعدت أرجاؤها، وتتشابه عقائدها وإن اختصت كل قبيلة بوثن أو بضعة أو ثان، وتتماثل عاداتها وتقاليدها.. ولكنها مع ذلك لا تكون ((أمة))، لأن النزاعات والحروب المستمرة بين القبائل، وما يتخلف عنها من الثارات والحزازات المتجددة على مر الأيام، لا تجعل القلوب تصفو ولا تتوحد، ولا تتيح فرصة للنفوس كى تتقارب على أمر عام تلتقى عليه فتلتقى عنده، وتتجمع من الشتات00

وقد كانت تحدث أحيانا تحالفات بين بعض القبائل وبعض، ولكنها أبعد شىء عن أن تشكل ((أمة)) متحدة متجانسة. فإنما هى تحالفات تقوم بها بعض القبائل ضد بعضها الآخر، لتزيد من قوتها فترهبها القبائل الأخرى، فلا تفكر فى العدوان عليها أو الإغارة على مائها أو كلئها، بينما تتاح لها هى فرصة الإغارة والعدوان معتمدة على قوتها المستمدة من تحالفها مع قبيلة أخرى أو جملة قبائل تتقاسم معا على الولاء فى السراء والضراء00!

وربما كان حلف الفضول أقرب شىء إلى التجمع على أمر عام، وهدف سام لا صلة له بالعدوان، وإنما هو لدفع العدوان ورد الحقوق المغتصبة وحماية الضعفاء، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه: دعيت إلى حلف فى الجاهلية لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت.. ولكنه مع ذلك كان ما يزال فى محيط ((القبائل)) وليس نابعا من الرغبة فى إقامة أمة موحدة، أو دولة موحدة00

وكان القرآن هو الذى حقق المعجزة 00

جمع القلوب المتنافرة، فتقاربت، فاتحدث، فالتحمت، لأول مرة فى التاريخ، وعلـــى نحـــو غـــير مسبوق فى التاريخ ((واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون))([1])0

* * *

كيف تحققت المعجزة؟

أما أنها معجزة.. وأما أنها تحققت بالفعل، فأمر يشهد به الواقع التاريخى..

ولقد حاولت دعوى ((القومية العربية)) ذات يوم أن تزعم لها طريقا إلى هذه الوحدة، فقالت إن الأمة العربية كانت تتوق إلى التجمع والتوحد ولكنها لا تجد ((الزعيم القائد)) الذى يوحـــدها، فلمـــا وجدته فى شخص رسول الله صلى الله عليهم وسلم، سارعت إلى تحقيقه00

وليس شىء أكذب من هذا على التاريخ 00

فإن هذه ((الأمة)) المزعومة لم تجتمع على شىء اجتماعها على حرب ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإيذائه والصد عنه وعن دعوته، واتهامه بالسحر والجنون والتلقى من الشياطين!

((وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد(7) أفترى على الله كذبا أم به جنة))([2])0

((وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونكم بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون))([3])0

((وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولاً(41) إن كاد ليضلنا عن آلهتنـــا لولا أن صبرنا عليها))([4])0

إنما الذى حقق المعجزة هو القرآن 00

[1] سورة آل عمران : 103

[2] سورة سبأ : 7،6

[3] سورة القلم : 51

[4] سورة الفرقان : 41 ، 42

هو الذى ألان تلك القلوب الصلدة، وأذاب الران الذى كان يغشى القلوب فيكسوها بالطبقــة المتحجرة التى تمنع النور من النفاذ إليها، وتصدها عن بشاشة الإسلام:

((الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلــودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد))([1])0

فأى شيء فى هذا الكتاب هو الذى جمع تلك القبائل المتناحرة فى أمة، ثم أخرج منها خير أمــة أخرجت للناس؟

((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))([2])0

* * *

إذا استعرضنا الكتاب نجد أن القضية الكبرى فيه هى قضية لا إله إلا الله0

ولو تحرينا الأداة التى أخرج الله بها هذه الأمة إلى الوجود، لوجدنا أنها هى قضية لا إلــه إلا الله! فكيف تفعل لا إله إلا الله فى القلوب والعقول، وكيف تفعل فى الوجدان والسلوك، وكيــف تــصل فى النهاية إلى بناء أمة متضامة متماسكة من لبنات كانت متنافرة من قبل، تأبى أن تجتمع فى كيان غير كيان القبيلة، الذى يشكل فى حس أصحابه ربا من الأرباب:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد!([3])

بل كيف وصلت إلى تفتيت القبيلة، التى تقوم على رابطة الدم، إذا لم تستقم على الحق، وتنشئ بدلا منها كيانا متماسكا يقوم على رباط لا ينبع أساسا من رابطة الدم، وهو فى الوقت ذاته أقوى مــن رابطة الدم بما لا يقاس؟!

((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمــان ومــن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون(23) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم

---

[1] سورة الزمر : 23،24

[2] سورة آل عمران : 110

[3] البيت لدريد بن الصمة

وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهـــاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين))([1])0

فلنأخذ لبنة من اللبنات، ولنتتبع تحولاتها من الجاهلية إلى الإسلام00

هذا إنسان جاهلى 00 يعيش بفكر جاهلى، وقلب جاهلى، وسلوك جاهلى00 فما اهتماماته؟ لأى شيء يعيش؟! ما غاية الوجود فى حسه وفى تصوراته؟

مجموعة من الشهوات من كل نوع: شهوة المال. شهوة القوة. شهوة الجنس. شـــهوة الطعـــام والشراب.. ((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا))([2])0

((ألهاكم التكاثر(1) حتى زرتم المقابر))([3])0

((زين للذين كفروا الحياة الدنيا))([4])0

والفرصة المتاحة لهذا المتاع هى هذه الحياة الدنيا التى هى فى حس أصحابها فرصـــة واحـــدة، إذا انقضت لا تعود . فضلا عن كونها ليست مضمونة من حيث استمرار الصحة أو القـــوة أو الثـــروة أو التمكن 00 ومن ثم فكل فرصة تسنح للاستمتاع فلا ينبغى أن تفوت، وكل نوع من المتاع ينبغـــى أن يباح، فلا حلال ولا حرام، ولا امتناع عن المتاح :

فلولا ثلاث هن من شيمة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى!

فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا — نبهته — المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهنكة تحت الطراف المعمد

---

[1] سورة التوبة : 24،23

[2] سورة آل عمران : 14

[3] سورة التكاثر : 2،1

[4] سورة البقرة : 212

فيذكر الشاعر([1]) الخمر والحرب والنساء على أنها هى التى يحرص على الحياة من أجلها، ولولاها ما كان حريصا على الحياة ولا مباليا بالمرض أو الموت، وذلك بعد أن قال :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات، هل أنت مخلدى؟!

فما دام أنه لا خلود، فدعنى إذا أعب من هذه الشهوات!

ولكن الانقياد لهذه الشهوات لابد أن ينشأ عنه الصراع والصدام بين البشر، ما لم يكن هناك ما يمنع الاحتكاك أو يلطفه. وهنا تنقسم المجتمعات فى الجاهلية إلى نوعين: نوع همجى متبربر، لا نظام فيه ولا ضوابط، تؤخذ فيه الأمور بقوة الذراع

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم([2])

ونوع (متحضر) تحكمه قوانين، تحدد الطريقة التى يتم بها استمتاع كل إنسان ((بحقوقه))، مع تقليل الصراع إلى أقصى حد مستطاع. وإن كانت اهتمامات الناس فى تلك الحضارات الجاهلية هى ذات الاهتمامات التى عيشها الناس فى المجتمعات الهمجية، وإن طليت بطلاء يزينها فى أعين الناس! ثم إن التنظيم الذى يمنع التصادم أو يقلله محدود بحدود ((القوم)) أو ((الوطن)) 00 أما فى محيط البشرية الواسع فالقوة هى الوسيلة المعتمدة، وويل للمغلوب!

هذا فى السلوك.. أما فى التصورات فخذ هذا النموذج المعبر عن موقف الجاهلية 00 كل جاهلية:

جئت لا أعلم من أين، ولكنى أتيت

ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت

وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أو أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟ لست أدرى!([3])

---

[1] هو طرفة بن العبد 0

[2] البيت لزهير بن أبى سلمى

[3] هذه الأبيات للشاعر الجاهلى المعاصر ((إيليا أبو ماضى))0

لو أتيح لسائمة من السوائم أن تعبر بالغة التى نتحدث بها نحن، فماذا كانت تقول غير ما قالتــه هذه الأبيات؟!

وذلك كله فضلا عن الضلال الروحى والفكرى والسلوكى الذى ينشأ من عقيدة لا تؤمن بــالله الواحد، ولا تؤمن بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، فتنتهى الحياة فى حسها عنــد الحيــاة الــدنيا، وتنحصر الأهداف فى الغلبة والمتاع، وهى ذات الأهداف التى يعيش من أجلها الحيوان، وإن اختلفــت الصور، واختلفت الأدوات0

ولا يحسبن أحد أن الجاهلية المعاصرة ناجية من هذه الضلالة. بل هى غارقة فيها إلى الآذان، وإن كان لديها من الأدوات ما تزيف به الواقع، وتزخرفه بشتى الزخارف، وتتحدث به عن ((القيم العليــا)) و((حقوق الإنسان)) و ((العدالة)) و((الروح الإنسانية)) و((حق تقرير المصير)) 00 وعشرات أخــرى من القيم الجميلة الخلابة التى لا رصيد لها فى عالم الواقع 00 إنما يحكم الواقع قانون الغاب: القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق. ومن كان فى شك من هذا فلينظر إلى قضية واحدة من قضايا الحاضــر، قضية الأرض المغتصبة فى فلسطين، ووقوف ((القوى العظمى)) مع المجرم المغتصب ضد صاحب الحــق المستضعف المأكول!

ولكنا معنيون هنا بالحدث عن الجاهلية العربية بالذات، التى عاشت آماداً من الزمن لا يعلمها إلا الله، عاجزة عن تكوين ((أمة))، حتى آمنت بلا إله إلا الله، فتكون منها خيرة أمة أخرجت للناس0

نريد أن نتعرف على نوع التغيير الذى حدث فيها، والكيفية التى حققت بها لا إلــه إلا الله مــا حققت من النتائج فى عالم الواقع، لا فى عالم الوهم، ولا فى عالم الشعارات المطلقة فى الهواء0

لا إله إلا الله.. إذن فهو إله واحد، ومعبود واحد، ومتجه واحد محدد السمات00

ويكفى هذا لتغيير كل شىء !

((أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار(39) ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنـــتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))([1])0

لا إله إلا الله00 فلا تشتت بعد الآن بين الآلهة المتعددة التى تشتت النفس وتمزق وحدتها، فتفقد طمأنينتها، فينشأ القلق والحيرة والاضطرابات النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة التى تعج بها الجاهليات0

((الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب))()0

لا إله إلا الله00 فمنهجه هو المنهج، وأمره هو الأمر، وشرعه هو الشرع: ما أحله هو الحـــلال، وما حرمه هو الحرام، وما أباحه هو المباح، وما منعه هو الممنوع0

وقوله هو الحق00

وهو يقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسوله، والقرآن هو الوحى الذى أنزل على رسوله، وإن هناك بعثا ونشورا، وحساباً وجزاء، وجنة وناراً00 فذلك كله حق وهو حق اليقين00

وإذن، كيف تصير الآن الأمور؟

فلننظر إلى صفحة((القيم))00 كيف كانت فى الجاهلية؟

ماذا كان على رأسها؟

القبيلة00 وشرف القبيلة00 وأرض القبيلة، ومراعى القبيلة، ومنعة القبيلة00 ثم بالنسبة للكيـــان الفردى: الخمر والنساء، البيع والشراء، وما يقدر عليه الفرد من ألوان المتاع00

والحياة الدنيا هى مبلغ العلم، وغاية الهم، ومجال التطلع، ومسرح السعى، وغاية الغايات00

والآن فلننظر كيف صارت صفحة القيم على هدى لا إله إلا الله00

[1] سورة يوسف : 39،40

شواغل الحياة الدنيا ما تزال00 ولكن بضوابط00

ورابطة الدم ما تزال00 ولكن بضوابط00 والمال والبنون00 والبيع والشراء00 وقسط من المتاع00 كل ذلك ما زال موجودا فى الصفحة ولكن فى حدود تلك الضوابط التى تحدد الحرام والحلال والممنوع والمباح00

ولكن أين مكانها فى الصفحة؟! على رأس القائمة؟! أم إن أمر آخر هو الذى أصبح اليوم يحتل رأس القائمة، ويلون بلونه كل ما عداه؟

هنا التحول الأكبر، الذى صنع كل التحولات00

على رأس القائمة اليوم الإيمان بالله، ومن ثم التوجه إليه بالخوف والرجاء00 بكل مشاعر القلب، وكل ألون السلوك00

وعلى رأس القائمة بعد الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، وجنة ونار00

وعلى رأس القائمة مع الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بمحمد ﷺ نبيا ورسولا ومعلما وقائدا ومرشدا وهاديا إلى الصراط المستقيم 00

ثم يجئ كل شيء بعد ذلك 00 فهو موجود، ولكنه موجود بالضوابط التى يصنعها الإيمان بالله واليوم الآخر .. ثم إنه فى وجوده لا هو مبلغ العلم، ولا غاية الهم، ولا غاية السعى، إنما هو متاع – بضوابطه – تمارسه النفس المؤمنة ولكن لا تتعلق به، وتتخلى عنه فى يسر إذا اقتضى ذلك أمر يتعلق بالقيم العليا، المسطورة فى رأس الصفحة ، وعلى رأسها الجهاد فى سبيل الله. الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا ..

ما أعظم التغيير !

ثم أمر آخر 00

لا غبش اليوم ولا أوهام حول غاية الوجود الإنسانى، التى قاتم عنها الشاعر الجاهلى المعاصر لست أدرى! والتى تفضى بها اللاأدرية إلى الشعور بعبثية الحياة، ومن ثم عبثية كل ((القيم)) الموجودة فى الحياة!

اليوم تملك النفس المؤمنة ((دليل الرحلة)) من أولها إلى آخرها، وتملك إجابة واضحة محددة لأسئلة الفطرة التى ما تفتأ تلح – بوعى أو بغير وعى – تطلب إجابة محددة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومن أين جئنا؟ إلى أين نذهب بعد الموت؟ لماذا (لأى غاية) نعيش؟ كيف (بأى منهج) نعيش؟

القرآن يحوى دليل الرحلة..

من أين؟ من عند الله.. هو الخالق الذى يخلق كل شىء، ولا خالق غيره.

من أين؟ إلى الله مرة أخرى، ليحاسبنا على ما عملناه فى الحياة الدنيا.. ثم خلود فى الجنة أو النار 00

لماذا لنعبد الله.. بشتى أنواع العبادة .. نعبده بالاعتقاد بوحدانيته، ونعبده بالشعائر، ونعبده بتحكيم شريعته، ونعبده باتباع ما أنزل00

كيف؟ باتباع منهج الله، المبين فى الكتاب والسنة بشتى أنواع البيان من تفصيل أو إجمال..

ومن ثم فلا عبثية فى الحياة، ولا هى مخلوقة بالباطل:

((أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون))([1])0

((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذيل كفروا من النار))([2])0

والحياة الدنيا فترة ابتلاء، يترتب عليها فى النهاية الجزاء 00

ومادة الابتلاء هى متاع الأرض :

---

[1] سورة المؤمنون : 115

[2] سورة ص : 27

((إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا))([1])0

وخلاصة القضية أن الأرض مزينة بألوان من المتاع، وفى النفس البشرية ميل إليـــه مركـــوز فى الفطرة :

((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفـــضة والخيـــل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا))([2])0

والله الخالق صاحب الأمر لم يحرم المتاع :

((قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة))([3])0

ولكنه وضع له ضوابط سماها((حدود الله))، وقـــال عنـــها مـــرة: ((تلـــك حـــدود الله فـــلا تقربوها))([4])0 ومرة((تلك حدود الله فلا تعتدوها))([5])000

ومن ثم كان الابتلاء- بمعنى الاختبار- هو فى هذا الأمر: إلى أى مدى يستجيب الإنسان لرغبـــة المتاع؟ هل يقف عند الحدود التى فرضها الله أم يتجاوزها؟

ثم كان الجزاء فى الحالتين متفقا مع سلوك الإنسان تجاه تلك الحدود:

((فأما من طغى(37) وآثر الحياة الدنيا(38) فإن الجحيم هى المأوى(39) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى(40) فإن الجنة هى المأوى))([6])0

---

[1] سورة الكهف : 7

[2] سورة آل عمران : 14

[3] سورة الأعراف : 32

[4] سورة البقرة : 187

[5] سورة البقرة :229

[6] سورة النازعات : 37-41

وتلك هى قصة الحياة00!

وتلك هى غاية الوجود الإنسانى كما حددها خالق الإنسان وخالق الحياة00

أى تحول فى داخل النفس يحدث حين تؤمن بلا إله إلا الله؟!

* * *

ولا يقف الأمر عند الإنسان الفرد00

فتلك اللبنات التى شكلتها لا إله إلا الله ذات خواص معينة، تتميز بها عن غيرها من اللبنات0

ومن خواصها- التى تشبه ظاهرة المغنطيس- التجاذب الذى يؤدى إلى الالتحام!

والتجاذب فى أصله موجود فى الفطرة0 فالنفس البشرية ذات نزعتين فى آن واحد: نزعة فردية ونزعة جماعية0 الأولى تهدف إلى تحقيق الذات، والثانية تهدف إلى الاجتماع بالآخرين([1])، ولكنها فى الجاهلية لم تصل إلى حد الالتحام الحقيقى00 لأن الإنسان فى الجاهلية يصنع حول نفسه سياجا أكبر من حجمه الحقيقى، فمهما تجاذبت الوحدات، فهذا السياج الخارجى قد يسمح بالاقتراب ولكنه يمنع الالتحام! أما فى النفوس المؤمنة، التى تواضعت لله، وذهب عنها كبرياء الذات، فلا يوجد ذلك السياج الوهمى الذى يقيمه الفرد حول ذاته، ومن ثم تقترب القلوب- التى يجذبها كلها الحب لله ولرسوله- فتلتحم ذلك الالتحام الرائع الذى شهدنا نماذج رائعة منهفى ذلك الجيل الفريد الذى رباه رسول اللهﷺ، ولم يخل منه جيل من أجيال المسلمين0 وهو هو الذى أنشأ تلك((الأمة)) لأول مرة فى تاريخها، ثم اتسع حتى شمل شعوبا وأجناسا لا يجمع بينها لون ولا لغة ولا مصالح قريبة00 ولكن تجمع بينها لا إله إلا الله00

وهكذا تنشئ لا إله إلا الله((الإنسان الصالح)) الذى يقيم الخلافة الراشدة فى الأرض فرداً وجماعة -:

((وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة))([2])0

---

[1] أنظر إن شئت كتاب ((دراسات فى النفس الإنسانية))

[2] سورة البقرة : 30

والإنسان الراشد ليس هو أى إنسان، وإنما هو شئ متميز لم تعرفه الأرض إلا على خط الإيمـــان الذى بثه الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى محمدﷺ، ولكنه- بشهادة الله سبحانه وتعالى- لم يبلغ سمتــه الأعلى كما بلغه فى أمة محمدﷺ التى شهد لها خالقها بكونها ((خير أمة أخرجت للناس))([1])0

أما مواصفات ذلك الإنسان الراشد فهي مبثوتة فى كتاب الله، تكون فى مجموعها منهجا شـــاملا متكاملا لم يعرفه- فى شموله وتكامله- أى منهج من المناهج التى تعج بها الأرض، والتى تهـــدف- كمـــا تنص صراحة- إلى إنشاء((المواطن الصالح))، و((الإنسان الصالح))00 فالروسى الذى يقتل الشيشانيين مواطن صالح فى عرف قومه! واليهودى الذى يقتل المسلمين ويغتصب أرضهم وديـــارهم وكرامتـــهم مواطن صالح فى عرف قومه! والهندى الذى يقتل أهالى كشمير ويحرم علـــيهم أن يقـــرروا مـــصيرهم لأنفسهم مواطن صالح فى عرف قومه! وما أبأسهم جميعا وما أبعدهم عن صفة الإنسانية فضلا عن صفة الإنسان الصالح!

* * *

وإذا عدنا إلى الإعجاز التربوى فى القرآن الكريم، ذلك الذى أخرج خير أمة أخرجت للناس، فنحن أمام بحر زاخر، من حيث وردته فهو زاخر، ومن حيث نظرت إليه بهرك ما يشتمل عليه من أعماق0

إن الركيزة الكبرى فى هذا المنهج الربانى- كما أشرنا من قبل- هى الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر00 وعلى قدر رسوخهما فى النفس يكون مدى تحقق الخيرية، وتحقق الصلاح فى الإنسان00

فإذا أدركنا ذلك، فإن الإعجاز التربوى فى القرآن لا ينحصر مجرد بث هذه العقيدة فى النفوس، وإنما فى تعميقها وترسيخها وتثبيتها، حتى تخالط بشاشتها القلوب فتصبح جزءا منها لا ينفصل عنها0

وهنا لابد أن يحضرنا الإعجاز البيانى، والإعجاز الدعوى اللذان تحدثنا عنهما من قبل00 كـــل منهما هو فى ذاته إعجاز قائم بذاته، ولكنه فى الوقت ذاته أداة لإعجاز آخر!

---

[1] سورة آل عمران : 110 0

كان الإعجاز البيانى – كما بينا – أداة عظمى فى مسيرة الدعوة، جعلت العقيدة تنفذ إلى الـــنفس من كل منافذها، وتصل إلى أعماقها، بالبيان الأخاذ، وبتنوع العرض، وباستخدام أساليب مختلفة تشمل البيان المباشر، والقصة، والمثل، وغيرها من أساليب البيان00

ثم كان الإعجاز البيانى والإعجاز الدعوى معاً أداة للإعجاز التربوى، الذى يرتكز أساساً تعميق الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر فى نفس الإنسان، وصولا إلى الإنسان الراشد الذى قال الله فى وصـــفه : –

((00 ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعـــصيان أولئك هم الراشدون))([1])0

((إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنـــة التى كنتم توعدون))([2])0

* * *

ولنحاول هنا أن نغترف غرفة من البحر الزاخر 00

أشرنا من قبل إلى تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر على أنه الأداة العظمى فى المنـــهج الربـــانى. وأشرنا من قبل كذلك إلى تحديد أبعاد رحلة الإنسان فى الوجود، منذ النشأة إلى المعاد، وما يقدمه هـــذا التحديد من إجابات واضحة محددة لأسئلة الفطرة التى تلح على النفس بوعى وبغير وعى: من أين؟ وإلى أين ؟ ولماذا وكيف؟.. وأثر ذلك فى وضوح الرؤية عند الإنسان لأبعاد الرحلة وأهدافها، ونوع الابتلاء (الاختبار) الذى يجرى له فيها، مما يدعوه إلى التناغم مع هذه الأهداف وعدم الخروج عليها، ويؤدى به فى الوقت ذاته إلى الطمأنينة فى أثناء المسيرة، والصبر على مصاعبها إيمانا منه بأن ((أمـــر المـــؤمن كلـــه خير))([3])، وبأنه ((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب))([4])0

---

[1] سورة الحجرات : 7

[2] سورة فصلت : 30

[3] يقول عليه الصلاة والسلام ((عجبى للمؤمن كل أمره خير، إذا أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإذا أصابته ضراء صبر فكان خيرا له))0

[4] سورة الزمر : 10

ونشير هنا إلى التوازن الذى ينشئه المنهج الربانى فى النفس المؤمنة بين الرغبة والقيد، وبين الـدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، وأثر ذلك التوازن فى إنشاء ((الإنسان الصالح))0

فأما بين الرغبة والقيد، فالإسلام لا يكبت الرغبات الفطرية ولكنه يضبطها وفرق هائـل بـين الكبت والضبط. فالكبت هو استقذار الدافع الفطرى، وعده – فى ذاته – دنسا لا يليق بالإنـسان أن يشتمل عليه ، بينما الضبط هو اعتراف بالدافع الفطرى نظيفا فى ذاته، مع الـتحكم فى القـدر الـذى يستجيب به الإنسان إليه، والطريقة التى يستجيب بها0

الكبت عملية مفسدة للمشاعر، مفسدة للأعصاب، مدمرة للطاقة الحيوية 00 والضبط عمليـة صحية تكسب الإنسان قوة فى الشخصية، وقدرة على التحمل، ورفعة فى الأهداف00

((قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة))([1])0

فلا تحريم للطيبات 00

ولكن فى الوقت ذاته لا إسراف فى التناول :

((وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين))([2])0

وهكذا يتوازن الإنسان بين الرغبة والقيد 0 فلا الرغبة تؤدى بالإنسان إلى الإسراف الذى يفسد الشخصية ويؤدى بها إلى الترهل أو إلى الطغيان وكلاهما من الأمراض0 ولا القيد يـؤدى إلى الامتنـاع البتة الذى يؤدى إلى الاضطرابات النفسية والعصبية والقلق وغيرها من الأمراض0

وأما بين الدنيا والآخرة فالتوازن كذلك مطلوب :

((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا))([3])0

لا رهبانية فى الإسلام 00

---

[1] سورة الأعراف : 32 0

[2] سورة الأعراف : 31

[3] سورة القصص : 77

الرهبانية تعطيل لدفعة الحياة، وتعطيل لدور الإنسان فى عمارة الأرض وترقيتها وتجميلها، وتحقيق ((التسخير)) الذى منحه الله للإنسان ليؤدى به دور الخلافة فى الأرض:

((وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه))([1])0

وذلك فضلا عن كون أصحابها لا يستقيمون عليها، إنما تعتل نفوسهم ويفسدون:

((ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون))([2])0

وفى الوقت ذاته، فإن الاستغراق فى المتاع الأرضى ونسيان الآخرة فتنة ضخمة يتعرض لها الإنسان إذا ترك نفسه على هواها، فينتهى به الأمر إلى البوار، لأنه لا يقف فى إشباع رغباته وشهواته عند الحد المأمون، وإنما يتجاوزه بما يهلكه فى الدنيا، ويجعل نصيبه فى الآخرة هو النار!

والمنهج الربانى يقول للإنسان: لا تحرك نفسك من المتاع المتاح، ولكن التزم فيه بالحدود التى حددها الله، فكل شىء جعل الله له حدودا يعلم اللطيف الخبير أنها تحقق الخير وتمنع الشر، فأباح الطيبات وحرم الخبائث ودعا إلى عدم الإسراف حتى فى المباح.. وفى الوقت ذاته، يركز المنهج الربانى تركيزا شديدا على اليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، لأن اللطيف الخبير يعلم أن ذكرى اليوم الآخر هى الأداة الكبرى التى تساعد الإنسان على ضبط شهواته ورغباته، والوقوف بها عند الحلال الذى أحله الله، والقدر الذى أباحه الله؛ لأن القضية فى حس المؤمن تصبح موازنة بين الإنسياق وراء الشهوات، ويقابلها فى الآخرة عذاب لا قبل للإنسان باحتماله، والقناعة بالقدر المباح من المتاع، ويقابلها فى الآخرة جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فيقنع ويرضى، وتطمئن نفسه، ولا يشعر بالحرمان، فضلا عن الشعور بالرفعة والطهارة والارتقاء0

((إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيماً(56) والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا))([1])0

---

[1] سورة الجاثية : 13
[2] سورة الحديد : 27

وأما التوازن بين الفرد والجماعة، فهو من أبرز ومن أجمل سمات المنهج الربانى00

إن الجاهليات كلها فى القديم والحديث تجنح إلى أحد طرفى الميزان فيختل الطرف الآخر.. تجنح إلى تكبير الفرد، وتعطيه من ((الحقوق)) ومن ((الحريات)) ما يجعله يأخذ حجما أكبر مما ينبغى له، فيختل المجتمع فى المقابل وتنحل روابطه، ثم يفسد الفرد ذاته بالتدليل الزائد عن الحد، فلا يجد مجتمعا يردعه، أو يرده إلى الجادة .. وأبرز مثال على ذلك المجتمعات ((الليبرالية)) فى الجاهلية المعاصرة، التى انحلت أخلاقها، وتعالن الناس فيها بالفاحشة سوية وشاذة، بحجة ((الحرية الشخصية)) الممنوحة لكل فرد، يصنع بها ما تمليه عليه شهواته، ويحرم على المجتمع أن يتدخل فى الأمر.. وثم جاهليات أخرى تركز على المجتمع فتسحق الفرد وتكتم أنفاسه بحجة أن المجتمع هو الأصل، ومهمة الفرد هى خدمة المجتمع والمحافظة على تماسكه وترابطه00

كلتا النظرتين جانحة، والظلم واقع فيها على الناس بصورة من الصور، سواء بطغيان الفرد الذى يفتت المجتمع، أو بطغيان المجتمع الذى يسحق الفرد 00

والإسلام ليس كذلك 00

إنه يعطى الفرد حقوقا وضمانات، تحقق له كرامته، وتحقق له مجالا معقولا لنشاطه، فيستطيع أن ينشط كما يشاء، فى الحدود التى لا تؤذى غيره، ولا تؤدى إلى الانحلال والتفسخ، فيختار التعليم الذى يناسبه، ويختار العمل الذى يناسبه، ويختار الزوجة التى تناسبه، والعلاقات التى تناسبه فى الحدود التى لا توقع ضررا على غيره حسب قاعدة ((لا ضرر ولا ضرار)). فلا يباح له التملك بالغصب أو السرقة أو أكل أموال الناس بالباطل، ولا الربا ولا الاحتكار لأن هذا كله يوقع الضرر بالآخرين. ولا يباح له الفاحشة ولا مقدماتها التى تفضى إليها، ولا يباح له الغيبة ولا النميمة ولا التجسس ولا تتبع عورات الناس أو اقتحام خصوصياتهم.. وفى الوقت ذاته، يعطى المجتمع حق ((الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)) بل يجعله واجبا تكليفيا على المجتمع، لكى لا يخرج الأفراد عن حدودهم، ولا يتسببوا فى إيذاء المجموع. ويوجب على المجتمع التكافل، والتعاون على البر والتقوى، وإزالة المظالم، والجهاد لتكون كلمة الله هى العليا .. وكلها أعمال جماعية يقوم بها المجتمع0

---

[1] سورة النساء : 56 ، 57

ويصف الرسول ﷺ طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع فى هذه الصورة الرائعة :

((مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة فكان بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا يمرون على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا فى مكاننا خرقا و لم نؤذ من فوقنا! فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً))([1])

والإسلام يصل إلى هذا التوازن بين الفرد والجماعة بطريقة غاية فى البساطة وغاية فى الإبداع كذلك 00 فهو ابتداء لا يعد العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة صراع وتضاد كما تعدها الجاهليات سواء منها ما يرتكز على الفرد وما يرتكز على المجتمع. فالأولى ترى الفرد هو الأساس، وترى المجتمع هو القيد الذى يسعى إلى التضييق على الفرد وخنقه وكبته، ومن ثم تحيط الفرد بالضمانات التى تمنع المجتمع قدر الطاقة من التدخل فى شأنه، حتى لو ألحد، أو حتى لو فسق، ما دام فسقه ((قانونيا))! والثانية ترى المجتمع هو الأساس، والفرد هو المتربص أبدا للعدوان عليه، والخروج على طاعته، فتظل تضع حوله القيود، وتهدده بالعقوبات!

والإسلام دين الفطرة 00

والفطرة – كما أشرنا آنفا – تشتمل على نزعتين أصيلتين: نزعة فردية ونزعة جماعية، إحداهما تسعى إلى إثبات الذات والأخرى تسعى إلى الاجتماع بالآخرين. والنزعات الفطرية لاعداء بينها فى الأصل، كما تكون فى الفطرة السوية، إنما ينشأ الخلل حين تزيد جرعتها أو تنقص عن الوضع السوى، فيحدث المرض، مثلها كمثل إفرازات الجسم. فالجسم يكون فى وضعه الصحيح طالما كل جهاز فيه يقوم بوظيفته الطبيعية بصورة سوية، ولكنه يمرض حين تختل بعض وظائفه بالنقص أو الزيادة. والنفس كذلك هى فى وضعها الصحيح طالما كل جهاز أجهزتها يقوم بعمله الفطرى فى صورته الطبيعية، ولكنها تمرض حين تختل بعض وظائفها بالنقص أو الزيادة. وعند بعض الناس تنشط النزعة الفردية أكثر من اللازم،

---

[1] أخرجه البخارى 0

فيصبح الشخص أنانيا، وميالا إلى العدوان على حقوق الآخرين، أو تنشط النزعة الجماعية أكثـــر مـــن اللازم، فيخنع، وتنبهم شخصيته، ويصير إمعة لا كيان له00([1])

والإسلام يهدف إلى أن تكون النفس فى وضعها الفطرى السوى، فيصبح الإنـــسان((فى أحـــسن تقويم))([2]) كما خلقه الله، كما يسعى إلى علاج الخلل حين يحدث، بتوجيهاته التى تعيـــد التـــوازن إلى النفس، وتدفع بها إلى الرشد.. وعندئذ يتوازن الفرد والمجتمع، ويقل الصراع إلى أدنى حد مستطاع ويحل محله التكافل والتعاون والترابط والتحاب:

((مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجـــسد بالحمى والسهر))([3])

وبهذه الألوان من التوازن: بين الرغبة والقيد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والمجتمع، ينـــشئ الإسلام ((الإنسان الصالح)) الذى تعمر به الأرض00

* * *

وهلم الآن نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر 00

ما مواصفات الإنسان الصالح؟

إنها مبثوثة فى تضاعيف الكتاب 00 لا تكاد تخلوا سورة من السور قصيرة أو متوسطة أو طويلة من إشارة إلى صفة – أو مجموعة صفات – للإنسان الصالح، أو –0 من الجانب الآخـــر – صـــفة أو مجموعة صفات للإنسان المنحرف الذى يحذر القرآن الناس من أن يكونوه00

وهنا يجئ دور ((الترغيب والترهيب)) فى منهج التربية القرآنى([4])0

---

[1] انظر إن شئت حديثا عن هذه النقطة فى كتاب ((دراسات فى النفس الإنسانية))، فصل ((خطوط متقابلة فى النفس الإنسانية)) وكذلك فصلا بنفس العنوان فى كتاب ((منهج التربية الإسلامية))0

[2] سورة التين : 4

[3] متفق عليه 0

[4] وفى السنة كذلك 0

خذ أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ :

((اقرأ باسم ربك الذى خلق(1) خلق الإنسان من علق(2) اقرأ وربك الأكرم(3) الذى علـــم بالقلم(4) علم الإنسان ما لم يعلم(5) كلا إن الإنسان ليطغى(6) أن رآه اســـتغنى(7) إنـــإلى ربـــك الرجعى(8) أرأيت الذى ينهى(9) عبدا إذا صلى(10) أرأيت إن كان علـــى الهـــدى(11) أو أمـــر بالتقوى(12) أرأيت إن كذب وتولى(13) ألم يعلم بأن الله يرى (14) كلا لـــئن لم ينتـــه لنـــسفعا بالناصية(15) ناصية كاذبة خاطئة ..))([1])0

فهنا يوصف الإنسان المنحرف ببعض صفاته: إنه يطغى لأنه يتوهم أنه غنى عن الله، ويروح ينهى عبدا عن الصلاة والعبادة لربه، وفى الأخير يكذب وتيولى، والقرآن يذكره بأنه راجع إلى ربه وهو مـــا غفل عنه فلج فى طغيانه، وينذره بالعذاب الأليم فى الآخرة. كما يوصف الإنسان الصالح ببعض صـــفاته فهو عابد مصل، وهو مهتد إلى ربه ، أمر بالتقوى .. فتتقابل الصفات، وتحدث العظات00

فإذا كانت هذه أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ، فقد توالى نزول القرآن حتى تم التتريـــل، وفى كل سورة إشارة أو إشارات00

خذ بعض النماذج، وارجع إلى كتاب الله تجد المزيد والمزيد والمزيد 00

((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (63) والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما(64) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما(65) إنها ساءت مستقرا ومقاما(66) والذين إذا انفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا وكان بين ذلـــك قوامـــا(67) والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما(68) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا(69) إلا من تاب وآمن وعمـــل عمـــلا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما(70) ومن تاب وعمل صـــالحاً فإنـــه يتوب إلى الله متاباً(71) والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما(72) والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا(73) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين

[1] سورة العلق : 1-16

واجعلنا للمتقين إماما(74) أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما(75) خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما))([1])0

وخذ على الجانب الآخر :

((ولا تطع كل حلاف مهين(10) هماز مشاء بنميم(11) مناع للخير معتد أثيم(12) عتل بعد ذلك زنيم(13) أن كان ذا مال وبنين(14) إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين(15) سنسمه على الخرطوم))([2])0

وخذ هذه التوجيهات :

((وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما(23) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيرا(24) ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا(25) وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا(26) إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا(27) وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً(28) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسيط فتقعد ملوما محسوراً(29) إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا(30) ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا(31) ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا(32) ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا(33) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ اشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا(34) وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا(35) ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا (36) ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا (37) كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها(38) ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها أخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً))([3])0

---

[1] سورة الفرقان : 63-76

[2] سورة القلم : 10-16

[3] سورة الإسراء : 23-39

وخذ توجيهات فى مجالات معينة يطلب لفت النظر لها والتركيز عليها:

((قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم(263) يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلــه كمثــل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كــسبوا والله لا يهــدى القــوم الكافرين(264) ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنــة بربــوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير))([1])0

((كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعــسى أن تحبــوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون))([2])0

((وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا))([3])0

((يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحيــاة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل))([4])

وعشرات وعشرات وعشرات من التوجيهات، يتخرج على هداها الإنسان الصالح فى مدرســة القرآن0

* * *

وهلم الآن نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر 00

هناك ما نستطيع أن نطلق عليه اسم ((دروس تربوية فى القرآن الكريم))

والقرآن كله توجيهات تربوية، هدفها هداية الإنسان إلى ربه، ليعبده العبادة الحقة، فيستقيم حاله فى الدنيا والآخرة ويكون من الفائزين0

---

[1] سورة البقرة : 263-265

[2] سورة البقرة : 216

[3] سورة النساء : 19

[4] سورة التوبة : 38

ولكن هذه التوجيهات أنواع مختلفة. فمنها توجيهات مباشرة، أوامر ونواه واضحة محددة: افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا. ومنها ما يؤثر عن طريق الترغيب والترهيب: الترغيب فى الخصال الحميدة والأفعال الحميدة، والترهيب من الخصال السيئة والأفعال السيئة. ومنها ما هو ((درس)) يعرض للعبرة، ويحتاج إلى تدبر لاستخلاص العبرة المطلوبة، وهذا الذى نريد الآن أن نعرض بعض النماذج منه لا على سبيل الحصر، ولكن على سبيل المثال 0

خذ هذا الدرس من سورة آل عمران :

((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب(190) الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار(191) ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار(192) ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار(193) ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد(194) فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب))([1])0

فهؤلاء قوم يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ((أولو الألباب))، وهو فى الحقيقة وصف للصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا على الصورة التى يصفها سبحانه فى هذه الآيات00

فماذا يقول أولو الألباب هؤلاء وماذا يفعلون؟!

إنهم بادئ ذى بدء يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، أى أنهم لا يكفون عن ذكر الله فى جميع أحوالهم. ثم إنهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض، فيهديهم تفكيرهم إلى أن السموات والأرض لم تخلقا باطلا، وإنما خلقتا بالحق. وإذ كان الأمر كذلك، فلا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هى نهاية المطاف. فكم من ظالم فى الحياة الدنيا ظل ظالما حتى القطرة الأخيرة من حياته ومات وهو ظالم. وكم من مظلوم ظل مظلوما فى الحياة الدنيا حتى أخر قطرة من حياته ومات هو مظلوم. فلو كانت

---

[1] سورة آل عمران : 190-195

الحياة الدنيا هى نهاية المطاف، فهل حق الحق الذى خلقت به السموات والأرض؟ كلا! إنما يحق الحـــق حين تكتمل الحلقة. حين يجئ اليوم الآخر فيجازى كل بما اكتسب فى الحياة الدنيا، فيعاقب الظالم، على ظلمه ويعوض المظلوم على صبره فى الحياة الدنيا0

وحين يصل تفكيرهم إلى هذه النقطة، يسارعون إلى التضرع إلى ربهم أن يقيهم عـــذاب النـــار. وكأنما يتقدمون بمؤهلات تسوغ ما طلبوا من ربهم من الوقاية من النار، فيقولون إنهم سمعوا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فأمنوا.. والمنادى هو الرسول ﷺ ، وقد سارعوا إلى إجابة النداء بما توحى بـــه الفاء فى قوله ((فآمنا)) فالفاء تفيد التعقيب السريع0

ومن ثم يدعون ربهم أن يكفر عنهم سيئاتهم ويتوفاهم مع الأبرار، ولا يخزيهم يوم القيامة، ويحقق لهم ما وعدهم على لسان الرسل من إدخال الصالحين الجنة 00

((فاستجاب لهم ربهم))0

هؤلاء قوم يتذكرون، ويتفكرون، ويتدبرون، ويتضرعون.. فلأى من هذه استجاب لهم ربهم؟!

هل استجاب للتذكر وهو مجرد تذكر؟ أو للتفكر وهو مجرد تفكر؟ أو للتدبر وهو مجرد تدبر؟ أو للتضرع وهو مجرد تضرع؟!

هنا الدرس التربوى 00

((فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى..))0

فالاستجابة هى على العمل، الذى انبثق عن التذكر والتفكر والتدبر والتضرع0

وإذ كانت سورة آل عمران كلها مشغولة بمعركة لا إله إلا الله، فقد اختير من الأعمـــال مـــا يناسب تلك المعركة الهائلة: ((فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا)).. هؤلاء هم الذين يكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة التى وعدها إياهم00

وتلك هى العبرة من الدرس المعروض00

المطلوب أن تتحول المشاعر والأفكار إلى عمل مشهود فى واقع الحياة.. وعندئذ يستجيب رب العالمين0

* * *

وخذ هذا الدرس الذى يتجه ذات الوجهة وإن كان فى جو مختلف :

((ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون))([1])0

التوجيه هو ذات التوجيه 00

ليس الإيمان مجرد مظاهر .. إنما هو صدق فى العمل نابع من صدق فى المشاعر، فالأصل هو الاعتقاد الصحيح، الذى يقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، والذى يترجم إلى عمل مشهود فى واقع الأرض، يذكر منه هنا إيتاء المال ذوى القربى واليتامى والمساكين وبان السبيل والسائلين وفى الرقاب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس.. سلوك كامل شامل ينبثق من العقيدة الصادقة ويشمل مساحات واسعة من المشاعر والتصرفات00

من هنا كان من أعجب العجب أن يتسرب الفكر الإرجائى إلى هذه الأمة، ذلك الفكر الذى يقول إن الإيمان هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان([2])، والذى يقول: ((من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام!))0

قالوا: إن الله يخرج من النار قوما لم يعملوا خير قط.. ولا حرج على فضل الله. ولكن انظر إلى حال الأمة إن قال كل واحد فيها أنا مؤمن ما دمت مصدقا ومقرا، ولا على أن أعمل ! كيف يكون

---

[1] سورة البقرة : 177 0

[2] المسمى ليس هو الاسم، إنما هو الشيء أو الشخص الذى يحمل الاسم. ومنه قولهم: اسم على مسمى، أى شخص يتصف بالصفات التى يدل عليها الاسم. ولكن كثيرا من الناس يستخدمون لفظ المسمى ويقصدون به الاسم0

حالها؟ إنها تكون ذلك الغثاء الذى أخبر عنه رسول الله ﷺ، الذى تتداعى عليه الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها([1])00 فهل تكون عندئذ هى الأمة التى أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، والــتى تكون شاهدة على كل البشرية؟!

تستطيع الشجرة أن تعيش وتثمر وتمد أفرعها فى الفضاء، وهى تحمل من بين أوراقها بضع أوراق صفراء.. ولكن يوم تقول كل ورقة فى نفسها: من حقى أن أكون صفراء ذابلة وإن جفــت الميــاه فى عروقى مادمت لم أسقط على الأرض بعد، فكم تعيش هذه الشجرة على ظهر الأرض؟! وهل تكــون حينئذ هى الشجرة الطيبة الموصوفة فى كتاب الله: ((كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء(24) تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها))([2])، أم تكون شجرة متهالكة لا تؤتى أكلاً ولا تظل أحدا؟!

وإن كان ((مرجئة الفقهاء)) قد قالوا إن العمل ليس داخلا فى مــسمى افيمــان ((يقــصدون الاسم)) ولكنه مطلوب كالإيمان، فالخلاف معهم هين. وإنما المرجئة الذين أسقطوا العمل إسقاطا مــن الحساب وقالوا يكفى التصديق والإقرار ليكون الإنسان مؤمنا كإيمان جبريل(!) هؤلاء قدموا للأمة مرضا هو اليوم مستعص على العلاج.. إلا أن ترجع الأمة رجوعا صحيحا إلى كتاب الله، لتستوعب ما فيه من الدروس0

* * *

وخذ هذا الدرس فى مجال آخر فى ذات الاتجاه :

((هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين(62) وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعــا مــا ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم(63) يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعــك مــن المؤمنين(64) يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال00))([3])0

النصر من عند الله :

((وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم))([1])0

---

[1] قال عليه الصلاة والسلام: ((يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)). رواه أحمد وأبو داود 0

[2] سورة إبراهيم : 24،25

[3] سورة الأنفال : 62-65

((إن ينصركم الله فلا غالب لكم))([2])0

ولكن عل من يتنزل النصر من عند الله؟

إن هذه الآيات الأربع المتتالية من سورة الأنفال تحدث عن أربعة شروط أساسية للنصر0

أو هذه الشروط أن يكون هناك مؤمنون.. والله لا يعجزه أن يقهر الأعداء بغير مؤمنين، وهو الذى يقول للشيء كن فيكون، ويقول سبحانه : ((وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض))([3]) ولكن هكذا اقتضت سنته: أن يكون هناك مؤمنون فى الأرض يدفع الله بهم الكفار، ويكونون ستاراً لقدر الله، فقد قال سبحانه: ((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين))([4]). وقال((ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض))([5])0

وقال كذلك : ((فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم))([6])0

والشرط الثانى أن يكون هؤلاء المؤمنون متآلفة قلوبهم. فقال قال سبحانه : ((ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم))([7]) فتآلف القلوب شرط لتنزل النصر من عند الله0 وفى الآية الكريمة إشارة إلى نوع التآلف المطلوب، فليس هو التآلف على مصالح الأرض القريبة – حتى إن حدث ذلك التآلف فى واقع الأرض – إنا هو التآلف على العقيدة ((ولكن الله ألف بينهم)). لا المال ولا غيره من مصالح الأرض0

والشرط الثالث هو التجرد لله والتوكل الصادق عليه((حسبك الله)). وعلى أحد التفسيرين يكون المعنى، حسبك الله ومن معك من المؤمنين، فإن التوكل الصادق لا يتنافى مع اتخاذ الأسباب. ووجود المؤمنين مع الرسول ﷺ هو من الأسباب التى لابد من اتخاذها مع التوكل على الله. وعلى التفسير

---

[1] سورة آل عمران : 126

[2] سورة آل عمران : 160

[3] سورة فاطر : 44

[4] سورة البقرة : 251

[5] سورة محمد : 4

[6] سورة الأنفال : 17

[7] سورة الأنفال : 46

الآخر: حسبك الله، ومن معك من المؤمنين حسبهم الله كذلك. وعلـــى أى التفـــسيرين، فـــالتجرد لله مطلوب من أجل تتزل النصر0

والشرط الرابع هو الاستعداد للقتال حين يدعو الداعى إليه : ((يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال))([1])0

وفى آيات أخرى فى كتاب الله ترد شروط أخرى تؤهل لتتزل النصر من عند الله، ولكن هـــذه الشروط الأربعة المذكورة فى سورة الأنفال أساسية فى جميع الأحوال0

وفى ذلك درس تربوى لهذه الأمة، وبالذات للذين لا يأبهون لهذه الشروط ولا يحققونهـــا فى ذات أنفسهم، ثم يقولون: ما بال النصر لا يتتزل علينا؟.. ألسنا مؤمنين؟!

* * *

وهذا الدرس فى مجال آخر، فى اتجاه آخر

((أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كـــل شىء قدير(165) وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المـــؤمنين(166) ولـــيعلم الـــذين نافقوا))([2])0

الإشارة فى الآيات هى لهزيمة المسلمين فى أحد.. وقد كان فى وقعة أحد دروس كثيرة للمؤمنين، أبرزها سورة آل عمران، ومنها هذا الدرس.. فقد بدأت المعركة بنصر المسلمين، ولكن الرمـــاة الـــذين أمرهم رسول الله ﷺ ألا يغادروا أماكنهم بأى حال من الأحوال ولو رأوا المسلمين تـــتخطفهم الطـــير، أباحوا لأنفسهم التصرف فى الأمر حين ظنوا أن المعركة قد انتهت، وخافوا أن يـــضيع نـــصيبهم مـــن الغنائم، فحالفوا أمر الرسولﷺ ونزلوا من فوق الجبل، فاغتنم الفرصة خالد بن الوليد- وكان يقاتـــل فى صفوف الكفار إذ لم يكن قد أسلم بعد – فكر بخيله من وراء الجبل وعاد يهاجم جيش المسلمين وهـــم بغير حماية، إذ كانت الحماية التى خطط لها القائد ﷺ هى الرماة من فوق جبل الرماة.. فوقعت الهزيمـــة المرة التى قتل فيها سبعون من الصحابة فيهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وشج وجه الرســـولﷺ

[1] سورة الأنفال : 65

[2] سورة آل عمران : 165-167

وكسرت رباعيته.. فأصاب المؤمنين غم كبير وقالوا: أنى هذا؟! كيف وقع هذا؟ كيف هزمنا ونحن المؤمنون وهم الكفار؟!

وتنزل القرآن يعطيهم الدرس، أو مجموعة الدروس 00

((ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة))([1])0

فالتنازع، والاختلاف، وعصيان أمر القائد كان السبب فى الهزيمة: ((قل هو من عند أنفسكم))0

ولكن الدرس لا ينتهى هنا 00

إن الله يقول لهم إن ما أصابهم يوم التقى الجمعان هو بإذن الله! وإن له حكمته عند الله: كى يتميز الصف، ويعلم المؤمنون، ويعلم المنافقون00

وهذا فى ذاته درس هائل 00 فقدر الله لا ينفى مسئولية الإنسان عن عمله حين يخطئ! بل يظل مسئولا عن خطئه، وعن نتائج خطئه، ولا ينفى المسئولية عنه أنه قدر مقدر من عند الله0

درس ضد الاحتجاج بقدر الله لنفى مسئولية الإنسان عن أخطائه.. ودعوة للإنسان أن يقوم بالعمل على وجهه الصحيح، فإذا جاء قدر الله على غير ما يرغب، فعندئذ يقول إنه قدر مقدور لا حيلة له فيه، ولكن يعلم فى الوقت ذاته أنه قدر له حكمته عند الله، سواء أدرك الحكمة فى لحظتها أم غابت عنه 00

وإذا تتبعنا السورة فسنجد درسا آخر :

((الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم(172) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل(173) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم))([2])0

---

[1] سورة آل عمران : 152

[2] سورة آل عمران : 172 – 174

إن وقع قدر الله على غير ما يرغب الإنسان ليس معناه القعود والاستكانة بحجة التسليم بقـــدر الله! إنما التسليم بقدر الله معناه ألا يتفطر قلب الإنسان ولا تذهب نفسه حسرات ويتوقف عن العمـــل، بل يعمل، متطلعا إلى قدر من الله جديد، يغير الله به من حال إلى حال. فهؤلاء الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى معاودة القتال، فذهبوا بجراحاتهم، من الله عليهم بأن جعل الأعداء ينكلون عن القتال، ويكتفون من الغنيمة بالإياب!

ومن قبل جاء فى سياق السورة درس أخر :

((ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين))([1])0

فليست الهزيمة العسكرية مسوغا للانكسار النفسى ولا الهزيمة الداخلية، فاســتعلاء المــؤمن لا ينخدش بالظروف العارضة التى تعرض له، لأنه يعتز قبل كل شىء بالإيمان:

((وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى ســبيل الله ومــا ضــعفوا ومــا استكانوا والله يحب الصابرين(146) وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنــا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين(147) فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخــرة والله يحب المحسنين))([2])0

* * *

وخذ هذا الدرس عن طبيعة العلاقة بين قدر الله وواجب الإنسان من زاوية أخرى:

((ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون(59) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومــن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى ســبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون))([3])0

---

[1] سورة آل عمران : 139

[2] سورة آل عمران : 146-148

[3] سورة الأنفال : 59،60

فقد الله هنا فى صالح المؤمنين. فهو يتوعد الذين كفروا بالهزيمة، لأنهم لا يسبقون قدر الله مهمـــا كان لديهم من القوة، ولأن قوتهم لا تعجز الله. وقد قدر الله التمكين لهذا الدين، وللمؤمنين، حيث قال سبحانه: ((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الـــذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يـــشركون بى شيئا))([1])0

فماذا يكون من أمر المؤمنين وقد أعلن الله لهم قدره المقدور :

((هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون))([2])0

أيتواكلون .. ويقولون : قد تكفل الله بهزيمة الكفار، فلنقعد ولننتظر وعـــد الله، والله لا يخلـــف الوعد :

((وعد الله لا يخلف الله وعده))([3])0

كلا! إن الآية التالية مباشرة للآية التالية مباشرة للآية التى أخبر الله فيها بهزيمة الكفار هى أمـــر للمؤمنين أن يعدوا القوة بكل ما يستطيعون من وسائل الإعداد 00

وقد يسأل سائل: وهل الله فى حاجة لجهد المؤمنين لينفذ قدره بالقضاء على الكفار؟

كلا! ولكن – كما قلنا –هكذا اقتضت سنته .. أن يكون هناك مؤمنون مجاهدون يدفع الله بهم أهل الباطل، ويبليهم الله البلاء الحسن على جهادهم، وإن كان هو الذى ينصرهم على أعدائهم..

وقد يسأل سائل: ولنفترض أن الناس تقاعسوا عن الجهاد، فهل يعجز الله عن إنفاذ وعده بسبب تقاعس الناس؟!

كلا ! ولكنه يجرى سنة أخرى من سننه :

((وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم))([1])0

---

[1] سورة النور : 55

[2] سورة الصف : 9

[3] سورة الروم : 6

((يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم))([2])0

وفى جميع الأحوال ينفذ الله قدره، ولكن من خلال سننه التى لا تتبدل:

((إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً))([3])0

* * *

وهذا درس فى مجال مختلف 00

((وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين(44) ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين(45) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح))([4])0

لقد كان نوح قد تلقى وعدا من ربه أن أهله سينجون من الغرق إلا من سبق عليه القول:

((حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول))([5])0

ولقد نادى ابنه – وكان فى معزل- فلم يصخ للنداء وقال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء!

((ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين(42) قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين))([6])0

---

[1] سورة محمد : 38
[2] سورة المائدة : 54
[3] سورة الطلاق : 3
[4] سورة هود : 44-46
[5] سورة هود : 40 0
[6] سورة هود : 42 ، 43

ونجا نوح ومن معه، واستقروا على اليابسة. ولكن الفجيعة فى ولده كانت ما تزال تثير لواعجه، فتوجه إلى ربه بهذا التساؤل الحزين: لقد وعدتنى يارب أن ينجو أهلى، وها هو ذا ولدى قد غـــرق00 ووعدك حق لا يخلف 00 فكيف حدث ما حدث؟!

ويجيئه الجواب الحاسم : ((يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح))([1])0

يا لله! ما أعظم المفاجأة!

لم يقل له إنه ليس ولدك! فهو ولده من صلبه.. ولكن قال له : ((إنه ليس من أهلك)).. وعلـــل انقطاع الرابطة بينهما تعليلا واضحا: ((إنه عمل غير صالح))0

إن الرابطة التى يعدها الله سبحانه وتعالى ليست رابطة الدم 00 وإنما هى رابطة العقيـــدة. هـــى الرباط الأول والأقوى، هى العروة الوثقى.. هى التى تحكم الروابط جميعا.. فإذا انقطعت فلا باط!

((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمـــان ومـــن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون(23) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهـــاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين))([2])0

ورابطة الدم ليست ساقطة من الحساب، فالله يقول: ((وأولوا الأرحام بعضهم أولى بـــبعض فى كتاب الله))(). ولكن متى؟ حين تتحقق الرابطة الأولى التى لا رابطة قبلها.. فإن اجتمع الكـــل علـــى الإيمان، فأولو الأرحام – بحكم الفطرة – بعضهم أولى ببعض وأقرب لبعض0 أما إذا افترق الطريق فلا يعود هناك رابط يربط على الإطلاق، بل يصير الرباط خروجا على أمر الله، محرما فى دين الله0

والعجب كل العجب لهذه الأمة حين دخلت فى التيه، فنادت بالقومية والوطنية رباطا يلغى رباط العقيدة، فخرجت عن أمر بها ((ويحسبون أنهم مهتدون))([3])0 و لم تدرك أنه كان من كيد أعدائها لهـــا للتخلى عن منبع قوتها الحقيقى وتصبح غثاء كغثاء بالسيل.. والدرس موجود فى كتاب الله!

---

[1] سورة هود ك 46

[2] سورة التوبة : 23 ، 24

[3] سورة الأنفال : 75

* * *

وهذا درس أخر فى المجال نفسه، ولكن من مدخل مختلف:

((ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير))([1])0

فهناك بادئ ذى بدء إشارة خاصة إلى دور الأم ومقامها واستحقاقاتها على أولادها. فالوصية هى للوالدين، ولكن الذى يذكر فى السياق ذكرا مفصلا هو الأم، بما يوحى بأن حقها على أبنائها أكبر من حق أبيهم. وذلك ما فصله حديث الرسولﷺ حين سأله سائل: من أولى الناس بحسن صحابتى قال : أمك . قال: ثم من؟ قال أمك؟ قال: ثم من؟ قال أمك! قال: ثم من؟ قال : ثم أبوك!

ولكن الدرس الذى نحن بصدده هو فى مجال آخر من مجالات التربية الإسلامية.

فالوصية هى للوالدين : ((ووصينا الإنسان بوالديه))0

ولكن انظر موضوع الوصية: ((أن اشكر لى ولوالديك))0

درس هائل فى الحقيقة 00

إن العلاقات كلها، بما فيها علاقات الأولاد بوالديهم، ليست مباشرة بين بعضهم وبعض! إن هناك علاقة سابقة، علاقة أقوى وأشمل، تندرج تحتها كل العلاقات، حتى العلاقات التى تنشئها رابطة الدم ورابطة الرحم 00 إنها العلاقة مع الله! ومن خلال تلك العلاقة الكبرى – وفى ظلها – تأتى كل علاقات البشر بعضهم ببعض0

ويتضح من ذلك – ضمنا – أن أى علاقة تقوم بين إنسان وإنسان، لا تتصل ولا تنبع من تلك العلاقة الكبرى فلا وزن لها فى المنهج الربانى، وهى ساقطة من الحساب!

ويتضح كذلك – ضمنا –0 أن كل العلاقات بين البشر، التى يجب أن تكون متصلة بالعلاقة الكبرى ونابعة منها، يجب أن تكون مصطبغة بصبغتها غير مناقضة لها ولا حائدة عنها:

---

[1] سورة الأعراف : 30

((صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون))([1])0

((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولـــو كـــانوا آبـــاءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئـــك حـــزب الله ألا إن حـــزب الله هـــم المفلحون))([2])0

وليس معنى ذلك أن علاقة المسلمين بغيرهم هى دائماً علاقة العداء والحرب:

((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين))([3])0

فالمعاملة الحسنة للآخرين – غير المحاربين- خلق إسلامى أصيل. ولكن البر والقسط شئ والموالاة شىء آخر !

بر وقسط ، نعم ، ولكن لا ولاء!

((إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون))([4])0

* * *

وهذا درس فريد فى مجال الإيمان :

((يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً))([5])0

---

[1] سورة لقمان : 14

[2] سورة البقرة : 138

[3] سورة المجادلة : 22

[4] سورة المائدة : 55

[5] سورة النساء : 136

والذى يلفت النظر فى هذا الدرس أن المخاطبين الذين يطلب منهم الإيمان هم مؤمنون بالفعـــل! وهم مؤمنون بكل ما يطلب منهم الإيمان به، والدليل من الآية ذاتها أنهم يخاطبون بلقب الإيمان ((يا أيها الذين آمنوا)).. ولا يكونون مؤمنين – ولا يخاطبهم الله بلقب الإيمان – حتى يكونوا قد آمنوا بالفعـــل بالله ورسوله، والكتاب الذى نزل على رسوله، والكتاب الذى أنزل من قبل، والملائكة والنبيين واليـــوم الآخر 00

فما دلالة التوجيه الربانى؟!

لو كان الخطاب لغير المؤمنين لكان بلا شك دعوة لهم إلى الإيمان . أما وهو خطاب للمـــؤمنين بالفعل، فالخطاب له معنى آخر 00

إنه دعوة لترسيخ الإيمان وتثبيته فى قلب المؤمن. وتذكير له بأن الإيمان ليس درسا يلقى ثم ينتقل منه إلى غيره. إنما هو درس يستوعب ثم ينتقل معه إلى غيره. درس دائم فى حياة المؤمن. درس لا ينبغـــى أن يغفل عنه ولا عن مقتضياته، ولا أن يفرط فيه، أو يتغافل عنه، أو يتقاعس عن تكاليفـــه الدائمـــة فى القلب والجوارح. فى الفكر والسلوك. فى الوجدان وفى واقع الحياة0

وهذا يلفتنا إلى أمر له أهمية خاصة بالنسبة لهذه الأمة بالذات00

إنها ليست مجرد أمة من الأمم. ولكن الله أخرجها لتكون ((خير أمة))، وليـــست مهمتـــها أن تهتدى فى ذات نفسها فحسب كغيرها من الأمم السابقة، بل أن تكون شاهدة على كل البشرية0

((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً))([1])0

وذلك لأنها أمة خاتم النبين، الذى لن يجئ نبى بعده، والذى أرسل إلى البشرية كافة. وهى المكلفة بحمل رسالته من بعده. وأداتها الأولى فى حمل هذه الرسالة والقيام بتكاليفها هى صدق الإيمان، ورسوخ الإيمان، والمحافظة الدائمة على الإيمان0

لذلك يخاطبهم – وهم مؤمنون – فيقول لهم ((آمنوا بالله ورسوله..))0

---

[1] سورة البقرة : 143

وبهذه المناسبة نقول إن عالمية الدعوة منصوص عليها نصا صريحاً فى الايات المكية ذاتها، و لم تكنن ((تطوراً)) فى فكر الرسولﷺ بعد أن دانت له الجزيرة ودخل الناس أفواجاً فى ديـــن الله كمـــا يـــزعم المستشرقون فى أباطيلهم. ففى السور المكية الأولى التى نزلت والمسلمون فى مكة مشردون مضطهدون، والرسولﷺ لا يجد من قريش أذنا صاغية، نزل قوله تعالى: ((وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون(51) وما هو إلا ذكر للعالمين))([1])0 وقوله تعالى: ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين))([2])0

كما يتوجه الخطاب فى القرآن فى أكثر من موضع إلى ((الإنسان)) لا إلى قوم بعينهم مـــن بـــنى الإنسان:

((يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم(6) الذى خلقك فسواك فعدلك(7) فى أى صورة مـــا شاء ركبك))([3])0

((يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه))([4])0

فالمخاطبون المباشرون بهذه الآيات هم قريش، أو هم العرب، ولكنهم لا يخاطبون بوصفهم قريشاً بالذات، ولا بوصفهم عربا، ولكن بوصفهم من بنى ((الإنسان)) الذين توجه إلـــيهم الـــدعوة جميعـــا، فيسمعها منهم من يتاح له أن يسمع!

وكذلك يأتى الحديث عن ((الإنسان)) عامة فى مثل قوله تعالى:

((وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض))([5])0

((إن الإنسان خلق هلوعا(19) إذا مسه الشر جزوعا(20) وإذا مسه الخـــير منوعـــا(21) إلا المصلين))([6])0

---

[1] سورة القلم : 51-52

[2] سورة الأنبياء : 107

[3] سورة الأنفطار : 6-8

[4] سورة الانشقاق: 6

[5] سورة فصلت : 51

[6] سورة المعارج : 19-22

((هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً(1) إنا خلقنا الإنسان نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً))([1])0

((لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم(4) ثم رددناه أسفل سافلين(5) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون))([2])0

((والعصر (1) إن الإنسان لفى خسر(2) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر))([3])0

ولكن ربما كانت ألطف إشارة إلى أن المخاطب بهذا القرآن هو البشرية كلها- على سبيل القطع- وليس قوما معينين منها، هى التى وردت فى موضعين اثنين، بصورتين مختلفتين، فى آيتين مكيتين:

((وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون))([4])0

((إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية))([5])0

فالذين حملوا فى الفلك المشحون لم يكونوا – قطعا – ذرية المخاطبين بهذا القرآن! سواء كانوا قريشا، أو من يتاح له من العرب أو يسمع، أو كل من استمع بعد ذلك! إنما كانوا ذرية البشرية الأولى على عهد نوح. والمحمولون فى الجارية لم يكونوا كذلك هم العرب المخاطبين بالقرآن أول مرة، ولا غيرهم ممن جاء بعدهم. ولكن الله يقول لهم: ((حملناكم))! حملناكم يا بنى الإنسان! فالخطاب موجه إلى البشرية كافة، من خلال كل من يستمع إلى الخطاب!

وهكذا تتأكد عالمية الدعوة، وعالمية الخطاب، وعالمية الرسالة، سواء بالنصوص المباشرة الصريحة، أو بالإشارة الصريحة، أو بالإشارة المتضمنة للمعنى، أو بالأوصاف التى تصف النوع الإنسانى كله، ويدخل المخاطبون المباشرون فيها من بين المعنيين بالخطاب!

---

[1] سورة الإنسان : 2،1

[2] سورة التين : 4-6

[3] سورة العصر : 1-3

[4] سورة يس : 41

[5] سورة الحاقة : 11

ولقد كانت هذه التوجيهات كلها لونا من التربية لهذه الأمة، لتوسيع آفاقها، وإعدادها لرسالتها، لكيلا تنحصر فى ذاتها، فضلا عن أن تنحصر فى قبيلة أو عرق أو لون أو جنس أو لغة أو أرض – وإنما تتعامل مع ((الإنسان)) من حيث هو إنسان ملتزمة فى الوقت ذاته بالمعيار الربانى. ((إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير))[1]0

* * *

وهناك دروس أخرى تأتى من خلال التقديم والتأخير فى السياق نضرب لها الأمثلة الآتية:

(1) ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))[2]0

يلاحظ فى سياق الآية أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قدم – لفظا – عن الإيمان بالله. والإيمان بالله لا يتقدم عليه شىء. تلك بديهية من بدهيات العقيدة. والمتدبر لكتاب الله يدرك التركيز الشديد فى القرآن كله على هذه القضية، وأنها محور العقيدة، ومحور الدعوة، ومحور الرسالة التى أرسل بها الرسل جميعا إلى أقوامهم. فما معنى تقديم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – لفظا – فى الآية على الإيمان بالله؟

معناه أولاً أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شىء مهم فى ذاته. يبلغ من أهميته أن يقدم – لفظا – على الإيمان بالله0

ومعناه كذلك أن حقيقة هذا الدين لا ترسخ فى الأرض إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى إن خيرية هذه الأمة تتقرر – أول ما تقرر – بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر0

ويؤكد هذه الأهمية أن الأمة التى تقاعست عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنت فى كتاب الله : ((لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون(78) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون))[3]0

---

[1] سورة الحجرات : 13

[2] سورة آل عمران : 110

[3] سورة المائدة : 78 ، 79

فإذا كانت الخيرية هنا ترتكز على قيام الأمة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واللعنة هنـــاك سببها – أو من أسبابها– عدم قيام الأمة بتلك المهمة، فإن هذا يبين لنا مدى أهمية هذا الأمـــر فى حيـــاة الأمة. ذلك أن التفلت من التكاليف طبع موجود فى البشر، فإن لم يعالج بالأمر بالمعروف والنهى عـــن المنكر، فإن الفساد ((يظهر)) – أى يستشرى – فى الأرض :

((ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس))([1])0

والطريقة الوحيدة لمنع الفساد من الأرض هى الأمر بالمعروف والنهى عـــن المنكـــر، بدرجاتـــه المختلفة، وباختلاف المكلفين بكل درجة من درجاته00

وهذا هو الدرس الذى تبرزه الآية عن طريق تقديم لفظ على لفظ فى السياق0

(2) ((قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وســـبحان الله ومـــا أنـــا مـــن المشركين))([2])0

هنا أيضاً قدم شىء فى السياق على الإيمان.. فقوله تعالى: ((وسبحان الله وما أنا من المشركين)) هو الأمر المختص بالعقيدة. أى المختص بالإيمان. ولكنا نجد فى السياق أن البصيرة قدمت – لفظا – على الإيمان الذى لا يتقدم عليه شىء. فما معنى التقديم؟

معناه أولا أن البصيرة أمر مهم فى الدعوة، يبلغ من أهميته أن يقدم فى السياق على قضية الإيمـــان التى لا يتقدم عليها شىء 00 وتلك إشارة واضحة إلى أهميتها0

ومعناه ثانيا أن الدعوة إن لم تكن على بصيرة، فإنها لا تؤدى مهمتها المرجوة. وهذا أمر نلحظـــه جيدا فى وقتنا الحاضر، حيث يذهب كثير من الجهد الذى يبذله بعض الدعاة بلا مردود حقيقى، بـــرغم إخلاصهم فى الدعوة، لنقص عندهم فى البصيرة، يجعلهم لا يسلكون بدعوتهم المسلك الـــذى يـــؤثر فى النفوس، بل قد يؤدى أحيانا إلى انصراف الناس عنهم، وعدم الاستفادة من المادة الدعوية التى يقدموها، وفى ذلك من الخسارة ما فيه .

---

[1] سورة الروم : 41

[2] سورة يوسف : 108

(3) ((من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فنحيينه حياة طيبـــة ولنجزينـــهم أجـــرهم بأحسن ما كانوا يعملون))([1])0

((ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما))([2])0

((فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون))([3])0

((ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنـــة ولا يظلمـــون نقيرا))([4])0

((ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقـــون فيهـــا بغـــير حساب))([5])0

فى هذه الآيات كلها يتقدم العمل الصالح على الإيمان – لفظا – فى الاية. وقد قدمنا أن الإيمان لا يتقدم عليه شىء. فتقديم العمل هنا له دلالة.. بل دلالات!

الدلالة الأولى أنه ذو أهمية بالغة، حتى إنه يقدم على الإيمان لا فى آية واحدة بل فى آيات متعددة فى كتاب الله0

والدلالة الثالثة أنه لا يمكن أن يخرج العمل من مسمى الإيمان كما يزعم المرجئة، طالما كانت له هذه الأهمية الواضحة التى تجعله يتقدم على الإيمان فى تلك الآيات0

والدلالة الرابعة أنه لا يمكن أن يكون ((مغايراً)) لحقيقة الإيمان كما يـــزعم المرجئـــة كـــذلك، ويستدلون استدلالا خاطئا بأن واو العطف تقتضى المغايرة لأن الشىء لا يعطف على ذاته! مخالفين بذلك ما يعرفه البلاغيون وأهل اللغة من جواز عطف الخاص على العام، والعام على الخاص، كقوله تعـــالى :

---

[1] سورة النحل : 97
[2] سورة طه : 11
[3] سورة الأنبياء : 94
[4] سورة النساء : 124
[5] سورة غافر : 40

((من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين))([1]). فجبريل وميكال هما من الملائكة دون شك، وهما معطوفان فى الآية على كلمة ((ملائكته))0

ثم إنه وردت فى كتاب الله آيات تحدد المؤمنين الذين يدخلون الجنة بأهم همن الـذين يعملـون الصالحات بغير فصل بين الأمرين ولا عطف، كقوله تعالى: ((ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسناً))([2]). وقوله تعالى: ((إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملـون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا))([3]). بما يؤكد أن العمل لا ينفصل عن الإيمان!

(4) ((الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به))([4])0

فى هذه الآية تقدم ذكر التسبيح على ذكر الإيمان. والدلالة الواضحة لذلك هى إبـراز أهميـة التسبيح بالنسبة للمؤمن. فالمؤمن لابد أن يسبح الله. والتسبيح بالسنبة له هو نوع من العبادة التى يؤديها لله، بل هو عنوان العبادة ومقتضاها؛ فلا إيمان بغير تسبيح. كما أن التسبيح هو التعبير التلقـائى عـن الإيمان، وهو الأداة التى يتقرب بها العبد من ربه، فيقربه إليه، فيكون من الصالحين0

(5) ((إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى))([5])0

هذا موسى عليه السلام يكلمه ربه، فيشتاق إلى رؤية ربه، ويتوجه بهذه الرغبة إلى مولاه:

((ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلمـا أفـاق قـال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين))([6])0

إنها تجربة هائلة تلك التى خاضها موسى عليه السلام، لا يطيقها إلا أولو العزم من الرسل. ولـو شاء الله سبحانه وتعالى أن يقول له ((لن ترانى)) وكفى، فذلك يحسم القضية لأن الله لا يراه أحـد فى الحياة الدنيا. ولكن الله أراد أن تمتلئ روح موسى عليه السلام بمشاعر الرهبة تجاه ربه، ويعلم سبحانه أن

---

[1] سورة البقرة : 98
[2] سورة الكهف : 2
[3] سورة الإسراء : 9
[4] سورة غافر : 7
[5] سورة الأعراف : 144
[6] سورة الأعراف : 143

ذلك معين له فى مهمة الدعوة التى أرسل من أجلها، فهى تعمق إيمانه، وتعمق طاقته فى الدعوة، وتعينه على تحمل الجهد الذى تقتضيه الدعوة من الدعاة00

ولما أفاق من ا لهول الذى غشيه حين اندك به الجبل وهو واقف يترقب رؤية ربه، كلمه ربه مرة أخرى ليطمئنه، ويزيل عنه آثار الهول الذى غشيه، ويتوقع الإنسان أن يقول له ربه إنه اصطفاه على الناس بتكليمه إياه.. وأى اجتباء أكبر من تكليم الله له؟ وأى رفع لدرجاته؟ وأى قربى إلى الله أعظم من هذه القرى؟!

ولكنا نجد فى السياق أن أمرا آخر قد قدم على هذا الشرف العظيم الذى تفضل الله به على موسى ! إنه الرسالة!

((إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى))0

الرسالة إذن هى المقدمة .. هى التشريف الأعظم، وهى التكريم الأعظم 00

نعم .. إن تكليم الله لموسى هو تكريم عظيم له، ولكن الأهمية الكبرى هى للرسالة. هى التى فيها الهدى للناس، لجمهور كبير من الناس..

التكليم أمر يعتز به موسى عليه السلام، ولكنه أمر يخصه وحده. أما الرسالة فلا تخصه وحده، وإنما يعم خيرها محيطا واسعا من البشر .. ولهذا تقدم فى السياق!

(6) ((وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله))([1])0

فى الآية السابقة على هذه فى السياق يحذر الله المؤمنين من الاستماع إلى الخبثاء من أهل الكتاب، الذين يسعون إلى إغواء المسلمين عن دينهم، حسدا وحقدا:

((يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين))([2])0

وقد تكرر هذا التحذير فى أكثر من آية :

---

[1] سورة آل عمران : 101

[2] سورة آل عمران : 100

((ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم))([1])0

((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق))([2])0

ويتوقع الإنسان أن يقول الله لهم – تنبيها وتحذيرا – كيف تكفرون ورسول الله بين ظهرانيكم؟! فلا شك فى أن وجود الرسولﷺ بشخصه بين المؤمنين كان له أعظم الأثر فى تنشئة ذلك الجيل الفريد – جيل الصحابة رضوان الله عليهم – الذى رباه الرسولﷺ على عينه، والذى بلغ الذروة فى قوة افيمان ورسوخه، اقتداء بالرسولﷺ ، وتأثرا بالمثل الحى أمامهم، الذى تجسد فى شخصه الكريم كل ما فى القرآن من توجيهات وتعليمات، حتى لتقول عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق الرسولﷺ : ((كان خلقه القرآن))([3])0

ولكن السياق يظهر لنا أن هناك أمرا آخر تقدم على وجود الرسولﷺ بشخصه الكريم بين المؤمنين.. إنه آيات الله التى تتلى عليهم!

آيات الله المتلوة عليهم هى ركيزة الإيمان الأولى، ووجود الرسولﷺ بين ظهرانيهم ركيزة إضافية، ولكنها ليست هى الأصل!

والرسولﷺ ذاهب إلى ربه ذات يوم :

((إنك ميت وإنهم ميتون))([4])0

ولكن العنصر الدائم المصاحب لهذه الأمة فى مسيرتها هو آيات الله.. هو القرآن المترل عليهم. ومن ثم يقول الله لهم: ((وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله)) ثم يقول لهم : ((وفيكم رسوله))0

[1] سورة البقرة : 120

[2] سورة البقرة : 109

[3] أخرجه أحمد 0

[4] سورة الزمر : 30 0

آيات الله هى منبع الإيمان. وهى الحصن الحصين الذى يحمى المسلمين من كيد الأعـــداء حـــين يتمسكون بها ويعملون بمقتضاها :

((إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط))([1])0

(7) ((لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم))([2])0

هؤلاء قوم من الكفار الذين حل بهم عقاب من الله فى الدنيا يقول الله عنهم :

((وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين(11) فلما أحسوا بأسنا إذ1ا هم منها يركضون))([3])0

أى أنهم تركوا مساكنهم خوفا وهلعا من مصيبة حلت بهم: رجفة أو صيحة أو زلزال عنيف، أو ما يكون من الوسائل التى يرسلها الله على الكفار عقابا لهم على كفرهم.. والله يوجه لهم القول، فيقول لهم: ((لا تركضوا)) ويتوقع الإنسان أن يقول الله لهم: ارجعوا إلى مساكنكم التى ركضتم منها خوفـــا وهلعا، فسوف تسألون عن كفركم وجرائمكم..

ولكن السياق يخبرنا بشىء أخر غير المساكن.. قبل المساكن.. يطلب منهم الرجوع إليه من باب السخرية بهم والتبكيت لهم: إنه ((ما أترفتم فيه))!

((وارجعوا إلى ما أترفتم فيه))، فذلك هو الذى جعل الله يسلط عليكم عقابه، وهو الذى يؤدى بكم إلى الهلاك0

تلك نماذج من نوع خاص من التوجيهات00

دروس تربوية، يبرز الدرس فيها من خلال تقديم كلمة واحدة فى السياق0

* * *

---

[1] سورة آل عمران : 120

[2] سورة الأنبياء : 13

[3] سورة الأنبياء : 11،12

وتعالوا نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر 00

إن القرآن حافل بقصص الأنبياء .. ترد فى سور شتى ولأغراض شتى. ولنأخذ نموذجاً منها مــا جاء فى سورة الأعراف :

((لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخــاف علــيكم عذاب يوم عظيم (59) قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين(60) قال يا قوم لــيس بى ضــلالة ولكنى رسول من رب العالمين(61) أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون(62) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون(63) فكــذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين(64) وإلى عاد أخــاهم هودا قال يا قومن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون(65) قال الملأ الذين كفروا من قومه إنــا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين(66) قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكــنى رســول مــن رب العالمين(67) أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح آمين(68) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون(69) قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنــت من الصادقين(70) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموهــا أنــتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين(71) فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين(72) وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم(73) واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخــذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين(74) قال المــلأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بمــا أرسل به مؤمنون(75) قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون(76) فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين(77) فأخذتهم الرجفــة فاصــبحوا فى دارهــم جاثمين(78) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رســالة ربى ونــصحت لكــم ولكــن لا تحبــون الناصحين(79) ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العــالمين(80) إنكــم

لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون(81) وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون(82) فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين(83) وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين(84) وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين(85) ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين(86) وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين(87) قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودون فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين(88) قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين(89) وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون(90) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين(91) الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين(92) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين))([1])0

واضح من السياق جملة أمور 00

فالرسل جميعا أرسلوا إلى أقوامهم بكلمة واحدة، وقضية واحدة: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره 00

هذه هى قضية الرسل جميعا، وهذه هى قضية الوجود كله.. قضية الإله الواحد الذى لا إله غيره، والذى لا ينبغى أن يعبد غيره 00

وقد أسلفنا أن الرسل لم يرسلوا ليقولوا للناس إن هناك إلها، فالفطرة تدرك ذلك من غير إرسال رسول :

[1] سورة الأعراف : 59-93

((وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قـــالوا بلى شهدنا))([1])0

ولا أرسل الرسل ليقولوا للناس اعبدوا إلهكم .. فالفطرة تتجه إلى عبادة الإله الذى تؤمن به من غير إرسال رسول، لأن الدين فطرة، والعبادة للإله مركوزة فى الفطرة 0

إنما أرسل الرسل جميعا ليقولوا : ((ابعدوا الله ما لكم من إله غيره))00

إنها قضية التوحيد 00 وليست قضية الإقرار بوجود إله 0

والضلالة الكبرى التى وقعت فيها البشرية فى تاريخها الطويل هى ضلالة الشرك، وليست ضلالة إنكار وجود الله، باستثناء الجاهلية المعاصرة التى أغواها ((شعب الله المختار))([2])!

ثم كان مع تلك الضلالة الكبرى ضلالات موازية، سواء فى تصور الإله على غـــير حقيقتـــه، أو إنكار الوحى المترل من الله على رسله، أو إنكار البعث والحساب، أو اتباع غير ما أنزل الله00

وكلها ضلالات يقع فيها البشر فى جاهليتهم، فيرسل الله لهم الرسل ليهتدوا إلى الحق، ويعبـــدوا الله وحده، ويصدقوا ما جاءت به رسلهم، ويتبعوا ما أنزل الله 00

كما يتضح من السياق أن الأقوام كلهم كذبوا رسلهم، وأبوا أن ينقادوا لهم، وطـــالبوهم ببينـــة تثبت دعواهم أهم رسل من عند الله، فلما جاءهم البينات أصروا على كفرهم وتكذيبهم وأبو الانقياد !

إنها إذن ليست مرة عارضة فى تاريخ البشرية.. إنها قصة مكرورة منتظمة الحدوث :

((كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون(52) أتواصوا به بل هـــم قوم طاغون))([3])0

((يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون))([4])0

---

[1] سورة الأعراف : 172

[2] اقرأ إن شئت فصل ((دور اليهود فى إفساد أوربا)) من كتاب ((مذاهب فكرية معاصرة))0

[3] سورة الذاريات : 52 ، 53

[4] سورة يس : 30

((ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبـــل كذلك نطبع على قلوب المعتدين))([1])0

* * *

الدروس التى تحملها قصص الأنبياء هى دروس موجهة للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ولكنها موجهة إلى الدعاة خاصة، الذين هم ورثة الأنبياء، فإن لهم فيها عبرا قد لا يدركها غيرهم، أولا يعيرهـــا التفاتا00

الدرس الأول أن أهم ما تقوم عليه حياة الناس هو العقيدة 00

إن الطعام والشراب وغيره من ألوان النشاط الحسى لهى أمور يشترك فيها الإنسان والحيوان، وإن كان الإنسان ينبغى أن يمارسها على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان([2])!

ولكن الإنسان – الذى كرمه ربه – لم يكن قط مجرد قبضة الطين. إنما هو صار إنسانا بالنفخة العلوية فيه :

((إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين(71) فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين))([3])0

فالنفخة العلوية من روح الله هى التى جعلته إنسانا، وهى التى منحته الوعى والإرادة والحريـــة – عناصر الإنسان الأصيلة – وهى التى جعلته موضع التكريم الإلهى، وأسجدت له الملائكة:

((ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممـــن خلقنا تفضيلا))([4])0

((وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين))([5])0

---

[1] سورة يونس : 74
[2] راجع إن شئت كتاب ((دراسات فى النفس الإنسانية))
[3] سورة ص : 71،72
[4] سورة الإسراء : 70
[5] سورة البقرة : 34

وأول مقتضياقا عبادة الله على بصيرة ووعى وإرادة.. وذلك هو الدين القيم المركوز فى الفطـــرة .. الفطرة السوية:

((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))([1])0

ولكن قوما من البشر تفسد فطرهم، فينطفئ فى أرواحهم ذلك النور الذى تبعثه النفخة العلوية فى روح الإنسان، فيفقدون إنسانيتهم، ويصبحون كالأنعام، بل هم أضل:

((ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بهـــا ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون))([2])0

ومن ثم ينقسم الناس تجاه الحقيقة الكبرى، حقيقة الألوهية، إلى قسمين اثنين:

((هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن00))([3])0

منهم من يعبد الله، ومنهم من يعبد الشيطان.. وكل عبادة لغير الله هى من عبادة الشيطان؛ لأنه هو الذى يوحى بها للناس:

((ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين(60) وأن اعبدونى هـــذا صراط مستقيم))([4])0

ويرسل الله الرسل لهداية الناس إلى ربهم، فيستجيب الذين يسمعون يستجيب أصحاب الفطـــر السليمة، ويقف مطموسو البصيرة الذين انتكست فطرهم يعاندون الدين ويعادون المرسلين.

ذلك هو الدرس الأول ..

---

[1] سورة الروم : 30

[2] سورة الأعراف : 179

[3] سورة التغابن : 2

[4] سورة يس : 60،61

والدرس الثانى أن أول من يتصدى لدعوة الرسل هم ((الملأ)).. ثم تتبعهم ((الجماهير)) الضالة المضللة!

و لم تتخلف هذه الظاهرة مع أى رسول أرسل إلى الناس!

((لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم(59) قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين))([1])0

((وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون(65) قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين))([2])0

((وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم..))([3]). ((قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون(75) قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون))([4])

((وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ..))([5]). ((قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا))([6])0

إن الملأ لا يصدهم عن الهدى مجرى انطماس البصيرة، ولا مجرد اتباع عرف الآباء والأجداد، ولا مجرد النفور من شيء لم يألفوه .. فهذه كلها قد تفعل فعلها مع ((الجماهير)) فتصدها عن الهدى بادئ ذى بدء إلا من فتح الله بصيرته. أما الملأ فقد يشاركون الجماهير فى ضلالاتهم، ولكن لهم سببا خاصا بهم ، يجعلهم يقفون ضد دعوة لا إله إلا الله، ويتصدون لها أول المتصدين.. إنها قضية الولاء.. قضية السلطان! فهم يريدون الولاء والسلطة لهم، بينما لا إله إلا الله تجعل الولاء والسلطان لله.. ودون ذلك وتندق الأعناق! إن لهم سلطة على ((الجماهير)) – على الذين استضعفوا – يوجهونهم كما شاءوا،

---

[1] سورة الأعراف : 59،60

[2] سورة الأعراف : 65،66

[3] سورة الأعراف : 73

[4] سورة الأعراف : 75،76

[5] سورة الأعراف : 85

[6] سورة الأعراف : 88

ويشرعون لهم ما شاءوا، وتطيعهم هذه الجماهير المستضعفة فيتألهون عليها، ويشعرون بنشوة الـسلطان بنشوة السلطان القاهر عليها، فتجئ دعوة لا إله إلا الله، فترد الألوهية لله وحده، والسلطان له وحـده، والطاعة المطلقة له وحده، وهم لا طاعة لهم إلا فيما يطيعون هم ربهم فيه:

((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فـردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً))([1])0

ومعنى ذلك سلبهم أعز ما يعتزون به، وأشد ما يبعث الكبريـاء فى نفوسـهم، وتنتـشى لـه أحاسيسهم.. فيقفون للدعوة أول الواقفين، ويصرون ويعاندون..

والدرس الثالث أن طلبهم الآية التى تثبت صدق ما يدعيه الرسول من كونه مرسلاً من عند الله، لا ينبع فى الحقيقة من الرغبة فى التثبت والاستيثاق قبل اتخاذ القرار .. فلو أنه كان كذلك لكان المسلك الطبيعى والسوى أن يؤمنوا حين تجيئهم الآية.. إنما هو مجرد تكأة للصد وعدم الانقياد .. فإذا جـاءت الآية التى علقوا إيمانهم عليها زادوا عنادا وإصراراً واستكباراً ليغطوا على الحرج الذى يحسونه فى دخيلـة أنفسهم من وضوح الحق وانكشاف الباطل وأنه لا يستند على شىء حقيقى00

والدرس الرابع أن الملأ لا يكتفون تجاه دعوة لا إله إلا الله بالصد والتكذيب، والتشهير والتشويه، إنما يتعدون ذلك إلى الإيذاء! ويشتد الإيذاء كلما استجاب للدعوة نفر من ((المستضعفين)).. لأن معنى استجابتهم أنهم خرجوا على ألوهيتهم المزعومة، واستقلوا بكيانهم عن سلطانهم، أى لم يعودوا خاضعين – نفسيا على الأقل – لسيطرتهم! وأى شىء يمكن أن يتقبل إلا هذا! حتى وإن أعلن الـدعاة المـسالمة، وطلبوا المهادنة :

((وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننـا وهو خير الحاكمين(87) قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا 00))([2])0

[1] سورة النساء : 59 0

[2] سورة الأعراف : 87،88

والدرس الخامس أن الرسل وأتباعهم الذين آمنوا لا يتخلون عن الحق بسبب ما يتعرضون له من الإيذاء، لأن الحق أغلى عليهم حتى من أنفسهم؛ وتعلقهم بربهم، حبا وخشية، أقوى من كل عوامل الضغط والإرهاب الذى يواجههم، ولأنهم – بعمق إيمانهم – يدركون أن الأمر بيد الله وليس بيد البشر، مهما بدا فى ظاهر الأمر من جبروتهم، فيتوكلون عليه وحده، ويتوجهون إليه وحده بطلب النجاة من قبضة الأعداء :

((وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فيتوكل المتوكلون))([1])0

((ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين))([2])0

والدرس السادس أن الباطل ينتفش فترة من الوقت – بقدر من الله – ثم يأتى نصر الله، فيزهق الباطل، وينتصر الحق ويثبت ويتمكن:

((فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض))([3])0

والدرس السابع أن الفترة التى ينتفش فيها الباطل – بقدر من الله- هى فترة التمحيص للمؤمنين، التى تسبق محق الكافرين، ولها حكمتها عند الله :

((وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين))([4])0

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(2) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))([5])0

---

[1] سورة إبراهيم : 12

[2] سورة الأنعام : 34

[3] سورة الرعد : 17

[4] سورة آل عمران : 141

[5] سورة العنكبوت : 2،3

وليس عن قلى من ا لله للذين آمنوا به يتركهم يبتلون ويعذبون ويضطهدون على يد الكفـــار.. ولكن حتى تصفو نفوسهم من كدرها، وتتعلق بالله وحده، وتتوكل عليه وحده، وتتجرد له. فإذا علـــم الله من نفوسهم أنها خلصت له، و لم يعد حب الدنيا يشغلهم عن ربهم وعبادتهم وآخرتهم، مكن لهم وهم مهيئون نفسيا للتمكين، بمعنى أن التمكين لا يطغيهم فى الأرض لأنهم باعوا الحياة الـــدنيا، ولا يفـــسد مشاعرهم لأنهم تجردوا لله، وتعلقوا به حبا ورهبة: ((ويرجون رحمته ويخافون عذابه))([1]).. فينـــشرون العدل والسلام فى الأرض، ويقومون بحراسة الحق: ((الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتـــوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور))([2])0

والدروس لا تحصى 00

ولكنا نختار درسا معينا نختم به حديثنا فى هذه الفقرة 00

إنه قصة فرعون 00

وربما كانت قصة فرعون أكثر القصص ورودا فى القرآن الكريم، فقد ذكر فى القـــرآن أربعـــا وسبعين مرة([3]). وفرعون من أشد الطغاة طغيانا فى التاريخ .. ويكفى أن نعرف من جبروته أن موســـى عليه السلام حين أمره ربه أن يذهب إلى فرعون ليطلب منه إطلاق سراح بنى إسرائيل، أدركه الخوف، وطلب من ربه أن يعينه بأخيه هارون، فآتاه الله ما سأل، وأرسل معه أخاه هارون، وأمرهما أن يذهبا إلى فرعون، فأعلنا – معاً – خوفهما من المواجهة!

((اذهب إلى فرعون إنه طغى(24) قال رب اشرح لى صدرى (25) ويـــسر لى أمـــرى(26) واحلل عقدة من لسانى(27) يفقهوا قولى (28) واجعل لى وزيرا من أهلى(29) هرون أخـــى (30) اشدد به أزرى(31) واشركه فى أمرى(32) كى نسبحك كثيرا(33) ونذكرك كثيرا(34) إنك كنت بنا بصيرا(35) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى))([4])000 ((اذهب أنت وأخوك بآيـــاتى ولا تنيـــا فى

[1] سورة الإسراء : 57

[2] سورة الحج : 41

[3] انظر المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى0

[4] سورة طه : 24 – 36

ذكرى(42) اذهبا إلى فرعون إنه طغى(43) فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى(44) قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى(45) قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى))([1])0

فماذا كان من أمر السحرة حين آمنوا، فهددهم فرعون بأنه سيقتلهم ويصلبهم فى جذوع النخل:

((00 فلأقطعن أيديكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى))([2])0

كيف استعلى الإيمان فى قلوبهم على كل متاع الأرض، وكل مخاوف الأرض؟!

((قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا(72) إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى))([3])

إنها الروعة التى تجل عن التعبير !

* * *

وبهذه المناسبة، نقول إن هناك درسا للدعاة خاصة فى قصة سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الكهف 00 فهؤلاء آمنوا، ثم ذهبوا ضحايا الظلم والطغيان، ولم يمكنوا فى الأض00

والقصص فى القرآن لا يرد لمجرد تسجيل الوقائع التاريخية، وإنما للعبرة 00

فما العبرة من إيراد هذه القصص الثلاث فى وسط الحشد الضخم من قصص الأنبياء الذين مكن الله لهم، وأنجاهم من أعدائهم، ودمر على الطغاة بشتى الوسائل:

((فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون))([4])0

---

[1] سورة طه : 42- 46

[2] سورة طه : 71

[3] سورة طه : 72 ، 73

[4] سورة العنكبوت : 40

العبرة – للدعاة خاصة – أنه ليس من الضرورى فى كل مرة أن يمكن الله لأشخاص المؤمنين فى أعمارهم الدنيوية المحدودة .. ولكنه – فى كل مرة – يمكن للدعوة!

إن هؤلاء الذين قضى عليهم الطغيان فلم يمكنوا فى الأرض، و لم يروا النصر متحققا لأشخاصهم فى عمرهم المحدود .. هؤلاء لم يذهبوا .. إنهم زاد ضخم لدعوة الحق.. زاد باق فى الذكر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. زاد يملأ قلوبا من قلوب المؤمنين جيلاً وراء جيل، فيستصغرون الحياة الدنيا، ويرتفعون بإيمانهم على كل متاع الأرض، وعلى كل مخاوف الأرض، فيقفون بشجاعة وصبر وإيمان فى وجه الباطل، ويضحون بأنفسهم لتكون كلمة الله هى العليا00

كلا! لم يذهبوا! حتى فى الأرض لم يذهبوا .. فضلا عن جنات الخلد فى الآخرة :

((ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون))([1])0

((إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق(10) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير))([2])0

((وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين))([3])0

* * *

يلفت النظر فى قصص الأقوام السابقين فى كتاب الله ذلك الحديث المطول المفصل عن بنى إسرائيل 0

وفى قصصهم دروس وعبر 00

((لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون))([4])0

---

[1] سورة آل عمران : 169

[2] سورة البروج : 10،11

[3] سورة آل عمران : 140

[4] سورة يوسف : 111

إن بنى إسرائيل أمة اختارها الله، وأنزل إليها كتاباً مفصلاً، ومكن لها – بكتابها – فترة من الزمن فى الأرض، فقام لها ملك، وامتد لها سلطان، وأفاض الله عليها من نعمه 00 ثم 00؟

ثم كفرت بأنعم الله، وعتت عن أمر ربها، وأفسدت فى الأرض، وضلت وأضلت، فترع الله منها العهد، ومنحه لأمة أخرى 00

وهذه الأمة – أمة محمدﷺ - اختارها الله ، وأنزل إليها كتاباً مفصلا، ومكن لها – بكتابها – فترة من الزمن فى الأرض 00 فهى تحذر – من خلال قصة بنى إسرائيل المعروضة فى الكتاب المترل عليها – من أن تفعل مثلما فعلت الأمة الأولى فيترع منها العهد 00 وسنة الله لا تحابى00

ومما يؤسف له أن الأمة الثانية انحرفت – رغم التحذير – وإن لم تصل قط إلى ما وصلت إليه الأمة الأولى، وتحقق فيها ما أخبر عنه رسولها ﷺ : ((لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟! قال: فمن؟!))[1]0

ونأخذ بالذات ذلك الوصف الذى أشرنا إليه من قبل فى فل ((الإعجاز البيانى)):

((فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون))[2]0

فماذا فعلت الأمة الثانية بكتابها الذى مكنها الله به قرونا ممتدة فى التاريخ؟

لقد تحول فى حس كثير من أبنائها فى جيل الغثاء هذا إلى تراث 00

تراث من عهد الآباء والأجداد – كانوا – يطبقونه فى واقع حياتهم ويلتزمون به، فخلف من بعدهم خلف يحفظونه تراثا ولكن لا يعملون به، ولا يطبقونه فى واقع حياتهم، ولا يعدونه مصدر التلقى ولا منهج الحياة. إنما مصدر التلقى عندهم هو ((الحضارة الغربية)) ومنهج الحياة هو ما يسير عليه الغرب

[1] أخرجه مسلم
[2] سورة الأعراف : 169 0

فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر 00 وليتهم يجيدون تقليد الغرب فى إيجابياته .. لكنهم يقلدونه فى سلبياته، ويدخلون مثله فى جحر الضب!

وتشغلهم الحياة الدنيا فيأخذون عرض هذا الأدنى، ثم يقولون: سيغفر لنا! ((أمة محمد بخـــير))!! ((يا بختنا بالنبى))!!

وعلى أى أساس يتوقعون الغفران؟ على أساس ما لديهم من ((التراث))! فهم ((أمة القـــرآن))، وهم ((حفاظ القرآن)) وهم قراؤه!

أما العمل بمقتضاه، فقضية أخرى .. وربك غفور رحيم!

نعم .. إن الله لا يترك هذه الأمة تنفلت من دينها كما تفلتت أمم سابقة:

((يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها))([1])0

ولكن أين هى اليوم من رسالتها التى أخرجها الله لتؤديها؟ :

((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً))([2])0

منا أحوج الأمة إلى أن تعى الدرس 00 والدروس كلها فى كتاب الله 00

* * *

ولنغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر 00

ولنتأمل حديث القرآن على السنن الربانية التى يجريها الله فى حياة البشر، والتى قال عنها سبحانه إنها لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابى أحدا من البشر :

((00 فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا))([3])0

---

[1] رواه أبو داود والحاكم فى المستدرك

[2] سورة البقرة : 143

[3] سورة فاطر : 43

((وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين))([1])0

((ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا))([2])0

((وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير))([3])0

ونسأل بادئ ذى بدء : ما علاقة الحديث عن السنن الربانية بمنهج التربية القرآنى، وبالإعجاز التربوى فى القرآن؟

إن الله لا يورد الحديث عن السنن فى كتابه المنزل لمجرد إثبات الحقائق، وإنما لهدف تربوى وراء ذلك . ولقد تحدثنا من قبل عن إجابة القرآن الكريم عن أسئلة الفطرة التى تلح عليها بوعى أو بغير وعى: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ تلك الأسئلة التى إن لم تتلق إجابة واضحة محددة بعثت القلق والاضطراب والحيرة فى النفوس، وأدت – فى كثير من جاهليات الأرض – إلى ضلال كبير .. أوضحه ما تعانيه الجاهلية المعاصرة من القلق والأمراض النفسية والعصبية والجنون والانتحار، وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة 00

وهنا نقول إن القرآن لم يكتف بإعطاء ((رءوس المسائل)) فى ((دليل الرحلة)) التى يقوم بها البشر على الأرض، بإعطاء إجابة واضحة عن أسئلة الفطرة، بل مضى شوطا آخر فى ((البيان)) فبين للبشر خطوطا أدق فى ذلك الدليل، فبين لهم الطرق والمسالك، وبين لهم ما يؤدى إليه كل طريق يسلكه السالكون، حتى يعرفوا من مبدأ الطريق ما الذى تنتهى إليه نهايته، وماذا يجدون فى أثنائه فيختاروا لأنفسهم على بصيرة، ولا يكون أمرهم عليهم غمة وهم يختارون الطريق، ويتحملوا مسئوليتهم كاملة عن اختياره :

---

[1] سورة البقرة : 124

[2] سورة النساء : 123

[3] سورة المائدة : 18

((بل الإنسان على نفسه بصيرة(14) ولو ألقى معاذيره))([1])0

((رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل))([2])0

و((السنن) هى تلك الطرق.. التى يؤدى كل منها إلى نهاية محددة فى الحياة الدنيا، تترتب عليها نتيجة محددة فى الآخرة 0

ومن رحمة الله بالبشر أن ثبت لهم هذه السنن، وإلا فلو كانت غير ثابتة فأى ارتباك يمكن أن يصيب البشر فى رحلتهم، حين يسلكون طريقا قيل لهم إنه يؤدى إلى غاية معينة، فيجدون أنفسهم إزاء غاية أخرى غير التى اختاروا الطريق من أجلها؟

ومشيئة الله طليقة لا قيد عليها، يرتب ما شاء من النتائج على ما شاء من الأسباب، ولكنه رحمة منه بعباده، وتيسيراً لهم فى رحلتهم فى الحياة الدنيا، قد ثبت لهم سننه ليسلكوها على بصيرة، وليحملوا مسئوليتهم كذلك كاملة يوم القيامة0

ومن رحمته كذلك، أن بين لهم هذه السنن فى كتابه المترل، فلم يرد لهم أن يضيعوا الجهد فى التعرف على تلك السنن، حتى إذا عرفوها كان جهدهم قد أنهك فى المحاولة والخطأ، ويكون الأوان قد فات! بل اراد لهم أن يكون جهدهم مبذولاً فى الحركة المثمرة فى الطرق التى وضحها لهم وبين لهم عواقبها، حتى يفوزوا بأفضل النتائج فى عمرهم المحدود0

و لم يخف الله عنهم مشقة الطريق، حين تكون هناك مشقة فى الطريق! بل بينها لهم كاملة من أول الطريق! بل بين لهم أكثر من ذلك أن طريق الإيمان طريق محفوف بالمخاطر والمتاعب والتضحيات، وأن الطريق الآخر حافل بالمغريات! ولكنه وضح لهم نهاية هذا الطريق وذاك! ودعاهم إلى اقتحام الطريق الأول، والصبر على عقبائه وتضحياته، وحذرهم من سلوك الطريق الآخر المليئ بالمغريات. وقال لهم إن أمامهم طريقين: طريقا وعراً شاقا ينتهى بجنة الخلد، وطريقاً محفوفاً بالمغريات واللذائذ ينتهى إلى النار.. ثم تركهم يختارون!

---

[1] سورة القيامة : 14،15

[2] سورة النساء : 165

وليست القضية قضية فرد يسلك هنا أو يسلك هناك00 إنما هى قضية الجموع البشرية.. فالسنن المعروضة لا تخص الفرد وحده، إنما تشمل الجميع 00 وتبين مصائر الأمم كما تبين مصائر الأفراد. ومن ثم، فهى مناهج تربوية تربى كل فرد على حدة، وفى الوقت ذاته تربى الجموع، فتكون جموعاً مهتدية إذا التزمت، أو جموعا ضالة إذا تنكبت الصراط المستقيم0

((ولكن درجات مما عملوا))([1])0

بل إن الله – رحمة منه بعباده– لم يكتف ببيان ((رءوس المسائل)) فى كتابه المنزل، ولا بيان السنن التى يجرى قدره من خلالها، بل عرض عليهم مصداق هذه السنن من خلال التاريخ، ووجههم أن يسيروا فى الأرض فينظروا كيف انطبقت تلك السنن فى عالم الواقع خلال التاريخ0

والقصص فى القرآن يؤدى هذه المهمة 0

ففضلا عن الجانب الجمالى فى السرد القصصى، الذى أشرنا إلى بعض معالمه فى فصل الإعجاز البيانى، وما له من تأثير فى الوجدان، فإن له هدفاً تربويا واضحا، هو بيان التطبيق الواقعى للسنن الربانية فى واقع الحياة البشرية. وكثير من هذه السنن لا يستوعبها عمر الفرد المحدود، فقد تستغرق أجيالاً عدة من حياة البشر حتى تتحقق بتمامها. لذلك يجئ ذكرها مفصلا فى كتاب الله، وتعرض وقائعها ليرى الناس أنها سنن حقيقية فاعلة فى عالم الواقع، وليعلموا أنها متواترة لا تتخلف ولا تتغير ولا تتبدل، وليعتبروا بها فلا يسيروا فى اتجاه مضاد لها0

وهذا ينطبق على كل القصص الواردة فى كتاب الله بدءا من قصة خلق آدم، وقصة آدم مع الشيطان، التى يقول عنها رب العالمين إنها ((نبأ عظيم))، لأنها هى رأس القضية كلها بالنسبة للإنسان:

((قل هو نبأ عظيم(67) أنتم عنه معرضون(68) ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون(69) إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين(70) إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين(71) فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين(72) فسجد الملائكة كلهم أجمعون(73) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين(74) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت

[1] سورة الأنعام : 132 0

بيدى استكبرت أم كنت من العالين(75) قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين(76) قـــال فاخرج منها فإنك رجيم(77) وإن عليك لعنتى إلى يوم الـــدين(78) قـــال رب فـــأنظرنى إلى يـــوم يبعثون(79) قال فإنك من المنظرين(80) إلى يوم الوقـــت المعلـــوم(81) قـــال فبعزتـــك لأغوينـــهم أجمعين(82) إلا عبادك منهم المخلصين(83) قال فالحق والحق أقول(84) لأملأن جهنم منـــك وممـــن تبعك منهم أجمعين))([1])0

كما ينطبق على قصص الأنبياء مع أقوامهم، التى هى مصداق ما قدره وقـــرره رب العـــالمين فى عباده، والتى وقعت أحداثها بالفعل فى واقع الأرض، والتى هى سارية المفعول إلى يوم القيامة: فالفائزون فى الدنيا والآخرة هم الذين اعتبروا بالدرس ووعوه، وعملوا بمقتضاه، والخاسرون هـــم الـــذين غـــرهم الأمانى، وغرهم الحياة الدنيا، فاستمعوا لغواية الشيطان، فهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم، كما جاء وصفهم فى الآية الثانية عشرة من سورة ((محمد))0

والآن فلنأخذ فى الحديث عن بعض السنن الواردة فى كتاب الله0

هناك سنن تتعلق بالتمكين فى الأرض، ويبين الله لنا منذ البدء أن التمكين ليس خاصا بفئـــة دون فئة، فالمؤمنون يمكنون، والكفار يمكنون:

((كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً))([2]) 0

ولكن هؤلاء أو هؤلاء لا يمكنون بغير جهد يبذلونه، فقد كتب لعى الإنسان أن يكدح لينال ما يريد :

((يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه))([3])0

((لقد خلقنا الإنسان فى كبد))([4])0

فالأسباب التى لابد من اتخاذها للحصول على التمكين واحدة بالنسبة لهؤلاء وهؤلاء00

---

[1] سورة ص : 67 – 85

[2] سورة الإسراء : 20

[3] سورة الانشقاق : 6

[4] سورة البلد : 4

ولكن تفترق بعد ذلك الطريق.. فهناك نوعان من التمكين: تمكين الرضا، وتمكين الاســتدراج، الأول للمؤمنين والآخر للكفار، ولكن منهما سمات فى واقع الحياة الدنيا، وأما فى الآخرة فهما على طرفى نقيض0

يقول تعالى عن تمكين الاستدراج :

((والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمــون(182) وأملــى لهــم إن كيــدى متين))([1])0

((ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثمــا ولهــم عــذاب مهين))([2])0

((ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيهــا لا يبخــسون(15) أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون))([3])0

بل إن الله قد يزيد لهم فى التمكين – استدراجاً لهم – إذا أوغلوا فى الكفر، ولكن إلى حين:

((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون(44) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين))([4])

أبواب كل شىء من زينة الحياة الدنيا وزخرفها الحسى والمادى.. ولكن هناك بابين من أبــواب التمكين لا يعطيهما الله للكفار، وإنما يختص بهما المؤمنين، وهما الفارق الرئيسى بين تميكن الرضا وتمكين الاستدراج:

((ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض00))([5])

((الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب))([1])0

---

[1] سورة الأعراف : 182 ، 183

[2] سورة آل عمران : 178

[3] سورة هود : 15،16

[4] سورة الأنعام : 44،45

[5] سورة الأعراف : 96

البركة والطمأنينة بابان من أبواب التمكين لا يحصل عليهما الكفار فى الحياة الدنيا، برغم كـــل الأبواب المفتحة عليهم، من القوة السياسية والحربية والتكنولوجية والرخاء المادى.. ومن كان فى شـــك من ذلك فلينظر إلى واقع الغرب اليوم، الذى وصل فى قوته المادية إلى مـــستوى لم يـــسبق للبـــشرية أن وصلت إليه، ومع ذلك فهو يعج بالشقاء والكآبة التى توصل بعض الناس إلى الانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية وتسلم بعضهم إلى الخمر والمخدرات، وتدفع آخرين إلى الجريمة00

كلا! لا بركة ولا طمأنينة 00

بينما تمكين الرضا فيه كل أبواب القوة، مضافاً إليها الطمأنينة الروحية المنبثقة مـــن ذكـــر الله، والبركة التى تحيط المجتمع المسلم من فيض الرحمن :

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبـــدوننى لا يـــشركون بى شيئاً))([2])0

فقد تكفل الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين، فضلا عن البركة والطمأنينة، حين يعبدونـــه حق عبادته، ويقومون بمقتضيات دينهم وتكاليفه على الوجه الصحيح00

ومن ثم، فإن الذين ينبذون دينهم ويقولون إنهم ينبذونه ليحصلوا على القوة والتمكين واهمون فى دعواهم ومموهون. فقد جرفتهم أهواؤهم وشهواتهم، ولكنهم يتظاهرون بالعقلانية، وبأن عقلانيتهم هى التى تدفعهم إلى نبذ الدين! كلا! لقد كرهوا ما أنزل الله، ثم زينوا كفرهم بدعاوى ما أنزل الله بها مـــن سلطان0

إذا كان الغرب قد نبذ دينه – لأسباب كامنة فى ذلك الدين وفى رجاله وكنيسته – ثم حـــصل على القوة والتمكين، فذلك تحقيق للسنة التى يعامل بها الكفار :

((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء))([3])0

---

[1] سورة الرعد : 28

[2] سورة النور : 55

[3] سورة الأنعام : 44

أما المؤمنون فلا يمكنهم وهم عصاة! لا يمكنهم حتى يعودا إليه، ويستقيموا على طريقه.. وتاريخهم كله هو مصداق هذه الحقيقة: كلما تمسكوا بدينهم تمكنوا فى الأرض.. وكلما تخلخلت قبضتهم من حبل الله المتين جاءهم الأعداء، وعجزوا عن صدهم، وأدركهم الوهن، فذلوا 00

((فألا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها))؟!([1])

وهناك سنن لزوال التمكين 00

((ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها لى قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))([2])

((وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا))([3])

الترف هو الحمض الأكال الذى يأكل الأفراد والشعوب.. والشعوب بصفة خاصة 0

ولأن السنن الاجتماعية بطيئة فى تحققها، وقد تستغرق مئات السنين حتى يتكامل مفعولها، فإن كثيرا من الطغاة لا يدركونها حين لا تتحقق فى أعمارهم المحدودة، فيحسبون أنهم ناجون من آثارها، أو يقولون من جانب آخر: ((أنا ومن بعدى الطوفان!)) فيستغرقون فى الترف غير ناظرين إلى النتائج. فيقول الله لهم: سيروا فى الأرض فانظروا! انظروا كيف كانت مصاير من كان قبلكم. فالتاريخ هو معرض تحقق السنن الاجتماعية الطويلة الأمد، التى تتجاوز أعمار الأفراد .. ولكن الطغاة – خلال التاريخ – لا يعتبرون! وكل واحد منهم يظن أنه حالة فريدة غير مسبوقة، لا تنطبق عليها أحوال السابقين :

((وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكمن كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال(45) وقد مكروا مكرهم))([4])0

لذلك يعج التاريخ بأخبار الطغاة!

---

[1] سورة محمد : 24
[2] سورة الأنفال : 53
[3] سورة الإسراء : 16
[4] سورة إبراهيم : 45،46

* * *

ويلحق بسنن زوال التمكين سنة التداول :

((وتلك الأيام نداولها بين الناس))([1])0

لم تدم قوة فى الأرض مهما طال بقاؤها.. وإنما يحدث التغيير دائماً، وتنتقل القوة من مكـــان إلى مكان، ومن شعب إلى شعب، ومن جنس من أجناس البشر إلى جنس آخر0

وعلى الرغم من أنها سنة من سنن الله، لها حكمتها عنده، فإن لها أســـبابها.. فهـــى لا تحـــدث اعتباطا. إن الأمم فى نشأتها واضمحلالها تمر بأطوار 00

فى نشأتها تكون مستوفزة الطاقات، فهى تصارع القوى القائمة لتثبـــت وجودهـــا، ثم لتثبـــت وجودها. والصراع دائماً يحفز القوى الكامنة، فتعمل بكل طاقتها00

ثم تجئ فترة تكون الأمة ممكنة ولكنها خائفة من أعدائها، فتظل يقظة لنفسها وما حولها، فيستمر تمكينها 0

ثم تجئ فترة أخرى تطمئن فيها إلى أنها قد أصبحت فى مأمن من أعدائها، لأنها بلغت مبلغا مـــن القوة يرهب أعداءها فلا يفكرون فى العدوان عليها00

وفى هذه الفترة يبدأ التراخى، ويبدأ الترهل، ويبدأ الترف، ويبدأ الانحـــلال الـــذى يـــؤدى إلى الضعف، فيطمع الأعداء 00

وحين يصل الترف إلى حب الحياة وكراهية الموت، وكراهيـــة تكـــاليف الجهـــاد فى الأنفـــس والأموال، يبدأ الاضمحلال الذى يؤدى إلى الزوال! وتنتقل القوة إلى مولود جديد، يشب ثم يترعـــرع، حتى تدركه السنة فى نهاية المطاف 00

---

[1] سورة آل عمران : 140

وقد التفت ابن خلدون إلى هذه السنة وركز عليها كثيرا، وعنه أخذ توينبى، وشبه الأمة بالشجرة ، تبدأ صغيرة نابتة، ثم تقوى وتتمكن، ثم تشيخ فتموت، وقال إن تاريخ الأمم كتاريخ الأفـــراد يبـــدأ بالمبلاد وينتهى بالموت00

ولكنا حتى لو افترضنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون، وتابعه توينبى، فـــنحن نتـــساءل: هـــل الشيخوخة التى تؤدى إلى الموت هى السنة، أم هى الترف الذى يؤدى إلى الانحلال؟

ونسأل سؤالا آخر: هل الأمة الإسلامية تنطبق عليها تلك السنة المفترضة: سنة الشيخوخة الـــتى تؤدى إلى الموت؟

نحسب – والله أعلم– أن الله لم يكتب هذه السنة – إن كانت سنة حقا– على الأمة الإسلامية فى مجموعها. فقد شاخت الدولة الأموية وذهبت، وشاخت الدولة العباسية وذهبت، وشـــاخت دولـــة المسلمين فى الأندلس وذهبت، وشاخت الدولة العثمانية وذهبت حين أصيبت كلها بالداء القاتـــل، داء الترف، ولكن الأمة الإسلامية لم تذهب!

والصحوة الحالية دليل 00

والمستقبل مفعم بآمال العودة إلى التمكين، وخاصة حين تقع المعركة التى أخبر عنها الرسول ﷺ، التى يقول فيها الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله، هذا من خلفى يهودى فتعال فاقتله00

وقد يكون مفتاح الأمر هو قول الرسول ﷺ: ((يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها))[1]0

وإذا تجدد الدين تجددت القوة وعاد التمكين تحقيقا لوعد الله :

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبـــدوننى لا يـــشركون بى شيئاً))[2]0

---

[1] سبقت الإشارة إليه 0

[2] سورة النور : 55

* * *

من السنن التى يرد ذكرها كثيرا فى كتاب الله سنة الابتلاء :

((إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً))([1])0

((إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا))([2])0

((ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون))([3])0

والابتلاء أنواع00 بعضها عام يشمل البشر جميعا، وبعضها يختص بفئة معينة من الناس0

والابتلاء العام الذى يشمل البشر جميعا قد أشرنا إليه من قبل، ولا بأس بالتذكير به هنا مرة أخرى0

فى فطرة الإنسان رغبة عميقة فى الاستمتاع، والأرض مزينة بألوان مختلفة من المتاع، ولكن الله سبحانه وتعالى – وهوالحكيم الخبير – رسم حدوداً أباح المتاع فى داخلها وحرمه خارجها، وله حكمته فى التحليل والتحريم. فهو يحل الطيبات ويحرك الخبائث، فأباح ما يعلم سبحانه فى صالح الإنسان، وحرم ما يعلم أنه يضره. ولكن الرغبات فى نفس الإنسان حادة وعميقة :

((زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب))([4])

والاختبار الذى يوضع الإنسان فيه فى كل لحظة من لحظات حياته الواعية المريدة المختارة هو هذا: هل يلتزم فى تناوله للمتاع الأرضى بالحدود التى رسمها الله، أم تغلبه شهوته فيتجاوز الحدود؟ وفى كل لحظة تسجل له نقطة فى الاختبار، وفى النهاية تعلن النتيجة، فإما إلى الجنة وإما إلى النار0

[1] سورة الإنسان : 2
[2] سورة الكهف : 7
[3] سورة الأنبياء : 35
[4] سورة آل عمران : 14

ذلك هو الاختبار الأكبر الذى خلق الإنسان من أجله، وهو وثيق الصلة بالعبادة التى قال الله إنه لم يخلق الإنسان إلا لها:

((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون))([1])0

فالعبادة معناها – أو مؤداها – طاعة الله فيما أمر به وما نهى عنه. أى – بعبارة أخرى- الالتزام بالحدود التى حددها الله للمتاع. ومادة الاختبار هى نفس الأمر: هل يعبد الإنسان ربه – فيطيعه – أم يعبد الشيطان؟

وأداة الشيطان التى يفتن بها الناس عن عبادة ربهم هى تزيين المتاع الزائد عن الحد: ((قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين(39) إلا عبادك منهم المخلصين))([2])0

((قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم(16) ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين))([3])0

((قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً(63) واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً))([4])0

((وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا(118) ولأضلنهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم 00))([5])0

ويلاحظ فى الآية الخيرة وصف دقيق للخطوات التى يتبعها الشيطان فى غواية الناس، فهو ابتداء يضلهم، فيقودهم إلى الطريق الذى قال لهم الله لا تسلكوه، ويمنيهم أنهم سيجدون بغيتهم (من المتاع) فى هذا الطريق، فإذا استسلموا له أخذ يأمرهم أمراً بمخالفة أمر الله فيطيعونه00

---

[1] سورة الذاريات : 56

[2] سورة الحجر : 39،40

[3] سورة الأعراف : 16،17

[4] سورة الإسراء : 63-64

[5] سورة النساء : 118-119

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يخرجهمن من رحمته بمجرد هفوة يستجيبون فيها لوسوسات الشيطان
:

((والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون(135) أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين))([1])0

ومتى مرتكب الكبيرة لا يخلده فى النار، إنما المخلدون فى النار هم الذين يكفرون بآيات الله، والذين يشركون به، والذين يستحلون ما حرم الله، ويشرعون بغير ما أنزل الله0

إذا كان هذا هو الاختبار العام الذى يدخل فيه الناس جميعاً، فينجح من هداه الله، ويرسب من وقع فى الضلال، فهناك أنواع أخرى من الاختبار – أو الابتلاء- لا تقع لكل الناس، إنما فئات وفئات00

فبعض الناس يبتلون ببسط الرزق، وبعضهم يبتلون بقدر أرزاقهم:

((فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن(15) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن(16) كلا 00))([2])0

كلا! ليست القضية كذلك! ليست بسط الرزق أو تقديره.. إنها قضية الابتلاء ببسط الرزق، أو الابتلاء بتقديره! أى اختبار سلوك الإنسان حين يبسط له الله فى الرزق.. كيف يتصرف؟ وحين يقدر له رزقه كيف يتصرف؟! وهو فى الحالين موضع اختبار 00

فأما الذى بسط الله له فى الرزق، فإن شكر النعمة، وأعطى حق المال فلم يبخل به، و لم يسرف فى إنفاقه، و لم ينفقه فى سرف ولا ترف ولا مخيلة، فقد نجح فى الاختبار، وأما غير ذلك:

((كلا بل لا تكرمون اليتيم(17) ولا تحاضون على طعام المسكين(18) وتأكلون التراث أكلا لما(19) وتحبون المال حباً جما))([1]). أولئك راسبون!

---

[1] سورة آل عمران : 135-136

[2] سورة الفجر : 15-17

وأما الذى قدر الله عليه رزقه فإن صبر وحمد الله على ما أعطى، وسأل الله من فضله، و لم يلجأ إلى وسيلة حرام يزيد بها ماله، فقد نجح فى الاختبار.. وأما إن سخط، وقال ((ربى أهانن)) و لم يكرمنى كما أكرم غيرى وأنا أحق بفضل الله من غيرى.. فهذا من الراسبين!

وهناك ابتلاء بفضل خاص يعطيه الله فرداً أو جماعة أو أمة، لينظر كيف يفعلون. كما قال سليمان عليه السلام : ((قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم))([2])0

وكما قال موسى عليه السلام لبنى إسرائيل: ((عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون))([3]). وكما قال الله عن بنى إسرائيل : ((وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين))([4])0

وهناك ابتلاء لكشف المؤمن من المنافق، وتصفية الصف من المنافقين :

((أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون(2) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين))([5])0

((ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين(10) وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين))([6])0

((ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم))([7])0

واختبار الصبر هو أشد درجات الاختبار، وهو فى الوقت ذاته أعلى درجات الاختبار:

---

[1] سورة الفجر : 17 - 20

[2] سورة النمل : 40

[3] سورة الأعراف : 129

[4] سورة الدخان : 33

[5] سورة العنكبوت : 2،3

[6] سورة العنكبوت : 10،11

[7] سورة محمد : 31

((ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين(155) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون(156) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون))([1])0

((أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين))([2])0

((أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب))([3])0

والأجر على الصبر أعلى الأجر :

((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب))([4])0

* * *

أشرنا من قبل إلى بعض الشروط التي اشترطها الله على المؤمنين لكى يستحقوا تنزل النصر عليهم :

((هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين (62) وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم(63) يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين(64) يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال))([5])0

لابد من وجود مؤمنين متآلفة قلوبهم، متجردين لله، مستعدين للقتال.. وثمة شروط أخرى:

((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة))([6])0

((يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون))()0

[1] سورة البقرة : 155 - 157
[2] سورة آل عمران : 142
[3] سورة البقرة : 214
[4] سورة الزمر : 10
[5] سورة الأنفال : 62 -65
[6] سورة الأنفال : 60

((يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار))()0

((وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين))()0

وهناك سنن غالبة – أى ليست حتمية- يتحقق فيها انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة :

((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين))()0

بينما الفئة الكثيرة قد تغلب إذا أعجبتها كثرتها، ونسيت التوكل على الله :

((ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين(25) ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين))()0

* * *

وأخيرا نتحدث عن سنة التدافع :

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين))()0

وبعض الناس يخلط بين هذه السنة وبين ما يسمى ((صراع البقاء)) الذى أشار إليه دارون، وقال فيه ((البقاء للأنسب)) "Survival for the fittest" فحرفها من حرفها إلى ((البقاء للأصلح)). ثم زعم الزاعمون من الغرب أنهم هم الأولى بالبقاء، لأنهم هم الأصلح!

فدارون أولا لم يتحدث قط عن((القيم))! ولم يذكر الصلاح بالمعنى المعروف عليه0 إنما قال حين تحدث تغيرات جيولوجية فإن الكائنات التى لا يتناسب تركيبها مع الأحوال الحادثة تنقرض(كما انقرض الديناصور) وتبقى الكائنات التى يتناسب تركيبها- أو لا تتأثر- مع الأحوال الحادثة، ولا صلة برقى الكائن أو عدم رقيه فى سلم التطور0 فإن الديناصور الذى انقرض كان أرقى بما لا يقاس من الصرصار، ومع ذلك انقرض الديناصور الأرقى وبقى الصرصار! والأمر أولا وأخيراً فى عرف دارون لا صلة له

بالصلاح النفسى أو الخلقى، فذلك موضوع لم يتطرق له دارون قط، وهو من عيوب نظريته، حين زعم أن الإنسان قد انحدر عن أحد القردة العليا، وأهمل تماما الجانب النفسى والأخلاقى والروحى الذى يفرق بين الحيوانات جميعا وبين الإنسان، والتفت إلى التركيب الجسدى وحده00

ولكن بصرف النظر عن كل ذلك، فالسنة التى يتحدث عنها القرآن الكريم ليست هى ((صراع البقاء)) الذى يتحدث عنه الغرب، والذى هو غارق فيه إلى الأذان، والذى يحسبه هو الغاية القصوى من الوجود!

إن صراع البقاء لمجرد البقاء، أو من أجل الغلبة والسيطرة، بغير قيم ولا أخلاق، وهو السائد فى عالم اليوم، لهو صراع مدمر، لأنه هو الذى جعل شريعة الغاب هى العملة المتداولة بين الشعوب، القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق0

بينما التدافع الذى قرره الله وجعله من سننه هو تدافع الخير والشر، الذى ينتهى بغلبة الخير والقضاء على الشر. والله يمن على عباده بأنه جعل من سننه أن يوجد فى الأرض أهل حق وأهل إيمان وأهل صلاح يدفع الله بهم أهل الباطل، فيزهق الباطل وينتصر الحق، وتخلو الأرض من الفساد أو فى القليل ينحسر الفساد فلا يصبح هو المسيطر. وتلك كانت مهمة الأمة التى أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، والأمة الوسط التى تكون شاهدة وقائدة ورائدة لكل البشرية.. وإن غياب هذه الأمة عن الساحة لهو الكارثة الكبرى التى أصابت البشرية بما أصابها من فشو الفساد فى الأرض، وفشو الظلم والاستبداد وصنوف الانحراف، ويكفى منه السيطرة العالمية لليهود، والعولمة التى تريد أن تفرض الظلم الاقتصادى والانحلال الخلقى فى الأرض00

كلا! ما أبعد سنة الله التى تهدف إلى حفظ الأرض من الفساد، عن أعراف البشر الضالة فى عصر عبادة الشيطان، التى تجعل الفساد هو الغالب فى الأرض!

* * *

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن الإعجاز التربوى فى كتاب الله الكريم، هو أسماء الله الحسنى0

إن تكرار ورود الأسماء والصفات فى القرآن الكريم هو ظاهرة تلفت النظر 00 ولقد تحدثنا عن هذه الظاهرة من قبل فى الحديث عن الإعجاز الدعوى بوصفها وسيلة مثلى لتعريف الناس بربهم، وترسيخ الإيمان فى نفوس المؤمنين، وأشرنا إلى أنها كثيرا ما ترد فى ختام الآيات القرآنية بما يناسب المعنى الذى تشمله الآية 0

والآن نتكلم عن الظاهرة ذاتها كفى مجال الإعجاز التربوى. وإن أثرها فى المجال التربوى لا يقل بحال عن أثرها فى المجال العقدى. ولا عجب، فالعقيدة هى الركيزة الأولى والكبرى فى منهج التربية الإسلامى. فغذا رسخت العقيدة – فى صورتها الصحيحة – فقد أصبحت النفس مهيأة للتلقى من عند الله، والالتزام بما جاء من عند الله، والتخلق بأخلاق الله. وهذه هى التربية الحقة، التى تنشئ ((الإنسان الصالح))0

ومن هنا كانت الحكمة فى التركيز على الأسماء والصفات، وترديدها فى كل مناسبة، سواء كانت المناسبة قصة تروى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، أو توجيها روحياً، أو توجيهاً أخلاقياً، أو توجيهاً عقلياً ، أو توجيهاً اجتماعياً أو سياسياً أو حربياً أو اقتصادياً.. إلى آخر هذه التوجيهات التى يزخر بها القرآن 0

خذ مثلاً من سورة الشعراء، حيث ترد قصص مجموعة من الأنبياء مع أقوامهم. ففى نهاية كل قصة يرد قوله تعالى : ((إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين(103) وإن ربك لهو العزيز الرحيم))([1])0

وأحياناً يكون ورود الأسماء والصفات فى افتتاح القصة لا فى عقبها كما جاء فى سورة الحجر : ((نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم(49) وأن عذابى هو العذاب الأليم(50) ونبئهم عن ضيف إبراهيم 00))([2])

وأحياناً يكون فى أثناء القصة كما جاء فى سورة القصص فى أثناء قصة موسى عليه السلام: ((قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم))([3])0 وكما جاء فى سورة النمل:

---

[1] سورة الشعراء : 103، 104

[2] سورة الحجر : 49 - 51

[3] سورة القصص : 16

((إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون(76) وإنه لهدى للمؤمنين(77) إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم))([1])0

وخذ هذا التوجيه : ((لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير))([2])0

وهذا التوجيه : ((إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير(29) يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد))([3])0

وهذا التوجيه : ((وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً(30) يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً))([4])0

وهذا التوجيه : ((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم))([5])0

وهذا التوجيه : ((يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم))([6])0

وهذه التوجيهات : ((ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً (147) لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً(148) إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً))([7])0

---

[1] سورة النمل : 76 – 78

[2] سورة البقرة : 284

[3] سورة آل عمران : 29 ، 30

[4] سورة الإنسان : 30 ، 31

[5] سورة المائدة : 38

[6] سورة المائدة : 54

[7] سورة النساء : 147 ، 149

وهكذا 00 وهكذا 00 وهكذا عشرات التوجيهات أو مئاتها تنتهى بذكر اسم من أسمـــاء الله الحسنى أو صفة من صفاته العلا 00 فما المقصود ؟

هل أنزلت هذه الأسماء والصفات لنحولها إلى جدل ذهنى أو قضايا فلسفية كما فعلـــت الفـــرق الضالة بتأثير الغزو الفكرى اليونانى أو غير من التأثيرات؟!

إن أسوأ ما فعلته هذه الفرق الناشزة أنها أفرغتن الأسماء والصفات من شحنتها التربوية الهائلـــة، وحولتها قضايا ذهنية باردة لا حيوية فيها ولا حرارة ولا تأثير 00

إنما كانت هذه الإشارات المتكررة المتعددة المتنوعة إلى أسماء الله وصفاته لتحيط بالقلب البشرى فى جميع أحواله، وتربطه بالله برباط وثيق 0

فأيا تكن حالة الإنسان، وأيا تكن الظروف التى يمر بها، أو المشاعر التى يعانيها فثم الله. الله هـــو المدبر. الله هو الفعال لما يريد. الله هو الرزاق. الله هو الفتاح. الله هو مفرج الكـــرب. الله هـــو مـــنزل الغيث. الله هو الباسط القابض. الله هو المحيى المميت . الله هو الضار النافع. الله هو مالك الملك. الله هو مقدر المقادير 00

فماذا يفعل الإنسان فى أى ظرف يمر به؟ أو أى شعور يلم به؟ أو أى رغبة يرغبها؟ أو أى مخافة يخافها؟ لمن يتوجه؟ ممن يطلب؟ من يستغيث؟ من يرجو؟ من يخاف؟ من يستعين؟ لمن يركن؟ على مـــن يتوكل؟

إنه الله 000

ذلك هو الأثر التربوى المطلوب :

((إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألبـــاب(190) الـــذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم))([1])0 أى فى جميع أحوالهم 0

يريد مالا وغنى وسلامة وعافية؟ فمن المغنى؟

---

[1] سورة آل عمران : 190 ، 191

يريد نصرا على الأعداء؟ فمن الناصر ؟

يريد النجاة من شيء يخافه؟ فمن المنجى؟

يريد بنين وحفدة؟ فمن المعطى؟

أينما توجه 00 فعند من حاجته؟

وإن الإنسان لينسى 00

يغرق أحياناً بين الأسباب فيظنها هى الفاعلة، فيركن إليها وينسى من وراء الأسباب0

يغرق أحياناً فى خوف من طاغوت يفزعه، فيحسب أن بيده الضر والنفع، فيتزلف إليه، على حساب دينه أو كرامته، يبتغى النجاة من طغيان، وينسى أن البلاء حين يقع فهو مقدر له من عند الله، ((وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم))([1])0

يغرق أحياناً فى تطلع إلى أمل يرجوه أو رغبة يريد تحقيقها، فينسى.. ينسى عند من هى؟ وما الطريق السليم إليها؟ فيندفع، فيعصى ربه، ويغفل عن رقابة الرقيب سبحانه، فيقع فى الضلال00

وحين يعيش مع القرآن لا ينسى!

لا فرصة له إلى النسيان!

فالتذكير قائم أمامه لا ينقطع، ولا يفتر، يحيط به من كل جانب، فلا يدع له فرصة للتفلت أو النسيان:

((إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد))([2])0

---

[1] سورة البقرة : 49

[2] سورة ق : 37

وتلك هى المهمة العظمى التى تؤديها الأسماء والصفات فى كتاب الله، والتى أفسدها الفرق الضالة بما أثارته حولها من جدل ذهنى عقيم، لا يسمن ولا يغنى من جوع!

* * *

بهذه الوسائل كلها التى ذكرناها تتم التربية فى رحاب القرآن.

وبهذه الوسائل كلها أخرجن الله ((خير أمة أخرجت للناس)) من تلك القبائل المتناحرة الـــتى لم تكن لتهتدى لولا أن هداها الله، ولا لتأتلف قلوبها أن ألف بين قلوبها الله.

وبهذه الوسائل كلها تكون تربية الأجيال حين يراد حقا تربية الأجيال على الإسلام0

فأى إعجاز أعظم من هذا الإعجاز؟

لقد كان الإعجاز البياى هدفا مقصودا فى ذاته لتحدى المكذبين المنكرين من العرب المخـــاطبين بهذا القرآن أول مرة، وكل مكذب يأتى بعدهم فى التاريخ 00

ولكنه كان فى الوقت ذاته أداة للإعجداز الدعوى، لتجلية عقيدة لا إلـــه إلا الله، وتثبيتـــها فى القلوب0

ولقد كان الإعجاز الدعوى، المشتمل على الإعجاز البيانى، هدفا مقصودا فى ذاته، لتعريف الناس بربهم الحق، ليعبدوه وحده بلا شريك0

ولكنه كان فى الوقت ذاته أداة للإعجاز التربوى لإنشاء ((الإنسان الصالح))

وهكذا تلتقى كل مجالات الإعجاز، متعانقة متآلفة لتحقيق الهدف المنشود 0

وإن هذا ذاته لهو إعجاز !

من الإعجاز التشريعي

كل رسالة جاءت من عند الله كانت عقيدة وشريعة ومنهاجا للحياة 00

فأما العقيدة، فهى واحدة فى الرسالات جميعاً و لم تتغير و لم تتطور كما يزعم علم مقارنة الأدبيان الجاهلى.. فقد كانت منذ أول رسالة إلى آخر رسالة هى ((لا إله إلا الله)) ((اعبدوا الله ما لكم من إلــه غيره))0 إنما الذى تغير وتطور هو عقائد الجاهلية، لأنها صناعة بشرية، تتأثر بــأحوال البــشر الــذين يصنعونها، وتتغير معهم من حال إلى حال. ويجوز أن تكون قد تطورت كما يزعم علم مقارنة الأديــان الجاهلى من عبادة الأب، إلى عبادة الطوطم، إلى عبادة قوى الطبيعة، إلى عبــادة الأفــلاك إلى عبــادة الأصنام.. أما العقيدة الصحيحة منذ آدم إلى محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فهى عقيدة التوحيد، تفئ إليهــا البشرية حينا مع بعثة رسول أو نبى، ثم تنحرف عنها لونا من الانحراف، حتى يأتى رسول آخــر يعيــد الناس إلى العقيدة الصحيحة، فيعود من اهتدى، ويضل من يضل:

((ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة))([1])0

ثم جاء خاتم الرسلﷺ ليبلغ الكلمة ذاتها ((لا إله إلا الله)) ((اعبدوا الله ما لكم من إله غــيره))، ولكن لا لقوم معينين، بل للبشرية جمعاء :

((قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون))([2])0

هذا أمر العقيدة 00

أما أمر الشريعة فهو مختلف 00

((لكل جعلنا منكم شرعة ومهاجاً 00))([3])0

---

[1] سورة النحل : 36

[2] سورة الأعراف : 158

[3] سورة المائدة : 48

ثم كانت الشريعة الخاتمة التى تمت بها النعمة واكتمل الدين :

((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً))[1]0

وقبل أن نتحدث عن بعض جوانب الإعجاز التشريعى فى القرآن الكريم، نشير إلى قضية مهمة من القضايا التى تنحرف فيها الجاهلية المعاصرة، التى تدعو إلى دين يتمثل فى عقيدة بلا شريعة.. أى علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى، فذلك – زعموا – من شأن البشر، وهم الذين يفتون فيه من عند أنفسهم، دون الرجوع إلى ما أنزل الله. ويسمون الحكم بما أنزل الله، أو المطالبة بتحكيم شريعة الله ((تسييساً للدين)) تحرمه الدساتير!!

وأوربا صنعت ذلك فى دينها وشريعتها لظروف خاصة ألمت بها، تحدثنا عنها فى أكثر من كتاب، خلاصتها أن أوربا لم تعرف الدين المترل على حقيقته قط، إنما عرفت دينا محرفا، حرفه آباء الكنيسة، وهم لم يطبقوا شريعة الله قط (إلا فى الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والطلاق وشئون الأسرة))، وإنما طبقوا من عند أنفسهم – باسم الدين – طغياناً بشعا نفر الناس من الدين، فثاروا عليه ونحوه من حياتهم، وحجموه فى تلك العلاقة الخاصة بين العبد والرب، التى محلها القلب، ولا صلة لها بالواقع السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى، إنما تحكم هذا الواقع قوانين البشر0

وأوربا حرة تفعل بدينها ما تشاء، ويوم تلقى ربها يحاسبها بما شاء سبحانه00

أما المسلمون، فهذه الدعوى غريبة كل الغربة عليهم، مبعثها الغزو الفكرى والانبهار بما عند الغرب، ورفض التلقى من عند الله، واتخاذ ما تفعله أوربا وحيا لابد من اتباعه!

إن الدين – كما تمثل فى الرسالات السماوية كلها، والرسالة الأخيرة بصفة خاصة – يترل ((مسيساً)) من عند الله سحانه وتعالى، وليس البشر هم الذين يسيسونه من عند أنفسهم! كما أن البشر لا يحق لهم أن يقولوا برأيهم فى أمر قضى الله فيه سبحانه وتعالى بحكمه :

((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً))[1]0

---

[1] سورة المائدة : 3

والذى قضى به الله سبحانه هو قوله :

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون))([2])0

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون))([3])0

((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون))([4])0

((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً))([5])0

وبصرف النظر عن الجدل الذى يثار أحياناً، فإن إجماع الأمة الذى لم يخرج عليه عالم واحد فى تاريخ الأمة أن التشريع بغير ما أنزل الله كفر مخرج من الملة، وليس كفرا دون كفر كما يزعم المرجئة المحدثون!

إنه مسألة تتعلق مباشرة بعقيدة لا إله إلا الله 00 فالإله وحده – سبحانه وتعالى- هو الذى يحق له أن يقول: هذا حلال وهذا حرام0 هذا حسن وهذا قبيح. هذا مباح وهذا غير مباح (وهذا هو التشريع: منع وإباحة، وتحليل وتحريم، وتحسين وتقبيح) والله وحده هو صاحب الحق فى ذلك، بكل صفات الألوهية والربوبية التى يتصف بها وحده – سبحانه وتعالى – والتى لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وبصفة خاصة هذه الصفات: أنه هو الخالق، وأنه هو العليم الحكيم، وأنه هو اللطيف الخبير:

((ألا له الخلق والأمر))([6])0

((إن الله كان عليماً حكيماً))([7])0

((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))([1])0

---

[1] سورة الأحزاب : 36

[2] سورة المائدة : 44

[3] سورة المائدة : 45

[4] سورة المائدة : 47

[5] سورة النساء : 65

[6] سورة الأعراف : 54

[7] سورة النساء : 11

فبما أنه هوالخالق سبحانه فهو صاحب الأمر، وبما أنه هو العليم الحكيم، اللطيف الخـــبير، فهـــو الذى يضع بعلمه وحكمته ما يصلح لأمر هذا الإنسان الذى خلقه، ويعلم كـــل خصائـــصه ودقائقـــه ومسارب نفسه :

((ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد))([2])0

هذه هى القضية فى جوهرها، وهى قضية القضايا منذ وجد الإنسان على الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها 00 قضية من الإله؟ آلله أم غيره من الآلهة المزعومة؟ وهى فى الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة تأخذ صورة خاصة : الله أم الإنسان؟

فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الله، ويرتبون على علمهم هذا أن يعبدوه وحـــده بـــلا شـــريك، ويطيعوا أمره، ويتبعوا ما أنزل إليهم. وأما الذين استكبروا عن عبادته فهم يجادلون، ويستنكفون:

((فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين اســـتنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً))([3])0

تلك إشارة لابد منها لمواجهة الجاهلية المعاصرة التى تدعو إلى عدم تحكيم شريعة الله، وإلى محاربة ما يطلقون عليه اسم ((الإسلام السياسى)) واتخاذ العلمانية دينا بدلاً من الدين الإلهى0

ومن هذه الإشارة نعرج على بعض نواحى الإعجاز فى الشريعة الربانية، التى أنزلها الله لـــتحكم حياة البشر إلى قيام الساعة 00

* * *

يتردد على لسان العلمانيين دائماً هذا السؤال: أنى للشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنـــاً أن تحكم الواقع الموجود اليوم، وهو واقع يختلف أشد الاختلاف عن الواقع الذى نزلت فيه تلك الـــشريعة، فضلاً عن الزعم بأنها صالحة للمستقبل كذلك؟

---

[1] سورة الملك : 14
[2] سورة ق : 16
[3] سورة النساء : 173

ونقول نحن إن هذا أحد أوجه الإعجاز فى الشريعة التى أنزلها الله، وأمـــر باتباعهـــا، و لم يجعـــل لاتباعها حدا زمنياً معيناً يجوز للبشر بعده أن يتخلوا عنها، و لم يحدد أحوالاً بيئية أو سياسية أو اقتصادية معينة يكف البشر فيها عن تطبيق الشريعة0

وإن مجرد القول بأن الظروف تغيرت معناه الشك فى علم الله وحكمته. فكأنما علمه — نـــستغفر الله — كان ناقصا وقت تنزيل الشريعة، فلم يكن يعلم سبحانه أن الظروف ستتغير، وتأتى ظروف غـــير الظروف! وكأنما حكمته — نستغفر الله — كانت ناقصة، فلم يقدر سبحانه أثر تغير الظروف فى صلاحية هذه الشريعة التى أنزلها وأمر باتباعها اتباعاً مطلقاً بغير تحديد!

وقد لا يدرك الذين يرفعون لافتة تغير الظروف أنهم بذلك يطعنون فى علم الله وحكمته، ولكـــن هذا هو لازم قولهم، ولازم اعتقادهم، وعوا ذلك أو لم يعوه، وقصدوه أو لم يقصدوه. فلو أنهـــم آمنـــوا حقا بأن الله عليم حكيم لم تجرؤ تلك الخواطر الفاسدة أن تخطر على قلوبهم، وتفسد مشاعرهم تجاه الله ودينه وشريعته0

ولا عيب فى أن يكون الإنسان جاهلا لأمر من الأمور التى تتعلق بدينه، ولكن عليه عندئـــذ أن يبحث عن الحق حتى يزيل جهالته، وأن يقول: ((رب زدنى علماً))[1] 00 أما أن يكون جاهلاً ويـــصر على جهله، ثم يزيد فيزعم أنه هو العالم، وأن الذين يخالفونه هم الجهال المتأخرون المتخلفون أعداء العلم وأعداء العقلانية وأعداء التقدم 00 فهذا من مصائب الجاهلية.. كل الجاهلية.. والجاهلية المعاصرة بصفة خاصة التى ترفع لافتة ((العلم)) و((التنوير))، وتضعها فوق ما أسماه ((ألكسيس كاريل)) بالجهل المطبق فى كتابه الشيق ((الإنسان، ذلك المجهول))![2] 0

* * *

فى الحياة البشرية ما هو ثابت وما هو متغير00 وتلك من الحقائق التى لم تهتد إليهـــا أوربـــا فى جاهليتها: جاهلية القرون الوسطى، والجاهلية المعاصرة0

---

[1] سورة طه : 114 0

[2] يقول ألكسيس كاريل فى كتابه هذا: إن جهلنا بحقيقة الإنسان جهل مطبق. وإننا — بهذا الجهل — نصنع حضارة لا تصلح للإنسان، لذلك يزداد الإنسان انحدار كلما زاد توغله فى تلك الحضارة!

فأما فى جاهلية القرون الوسطى– المظلمة عندهم([1]) – فقد كان الفكـــر الأوربى الـــذى ثبتـــه الكنيسة وتشرف عليه، يرى الثبات فى كل شئ، وينظر إلى أى تغيير على أنه خروج علـــى نـــواميس الكون، وخروج على طاعة الله، ومن ثم فهو ضلال وهرطقة، ومصيرهما البوار!

وأما فى الجاهلية المعاصرة، التى اتخذت نظرية التطور الداروينية عمادا لكل تصوراتها، فإن الفكـــر الأوربى يرى أنه لا ثبات لشئ على الإطلاق فى هذا الوجود، وأن الثبات على أى شئ مخالف لنـــواميس الكون، و((قوانين الطبيعة))، ومن ثم فالدعوة إلى الثبات على أى شئ هو جهالـــة وجمـــود ورجعيـــة، مصيرها البوار!

وفى كلتا حالتيها كانت أوربا واقعة فى الضلالة!

فليس فى الكون الذى خلقه الله ثبات مطلق لا يتغير، وليس فيه كذلك تغير لا ثبات فيه لـــشئ على الإطلاق! وإنما فيه تغير دائم فى الأشكال تحكمه قوانين ثابتة هى سنن الله فى الكون، سواء فى ذلك الكون المادى، أو الحياة البشرية00 وهذه هى النظرية العلمية التى فاء إليها العلم أخيراً بعـــد البحـــث والدراسة والتجريب0

كيان الذرة ثابت، والعلاقة بين مكوناتها ثابتة لا تتغير00 ولكـــن الـــذرات يمكـــن أن تتخـــذ أشكالات شتى، لا يحصيها إلا خالقها سبحانه، ولكنها فى جميع أشكالها ذات كيان ثابت، والعلاقة بين مكوناتها ثابتة لا تتغير0

والحياة الإنسانية كذلك0

فطرة الإنسان ثابتة، ولكن حياته الواقعية يمكن أن تأخذ أشكالا شتى، فى الـــزمن الواحـــد، وفى الأزمنة المختلفة0 ولكنها فى جميع أشكالها، تدور حول المحاور الثابتة فى كيان الإنسان0

مع فارق أساسى بين الكون المادى وبين الإنسان: أن الكون المادى ليس له إلا طريق واحد، لا يغيره، ولا يملك تغييره، لأنه لا إرادة له فيه:

---

[1] كانت هذه الفترة ذاتها من أزهى العصور الإسلامية وأكثرها نورا!

((ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين))([1])0

أما الإنسان فإن له طريقين، طريق الهدى وطريق الضلال، وله القدرة على التمييز بين الطريقين ، والقدرة على اختيار أحدهما:

((وهديناه النجدين))([2])0

((إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً))([3])0

((ونفس وما سواها(7) فألهمها فجورها وتقواها(8) قد أفلح من زكاها(9) وقد خاب من دساها))([4])0

وهذا من التكريم الذى كرم الله به الإنسان، فليس مقهورا على الطاعة كالسموات والأرض، ولكنه يطيع باختياره وإرادته00 ويعصى إذا شاء، باختياره وإرادته:

((ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم))([5])0

بعبارة أخرى إن الكون كله- بما فيه الإنسان- مفطور على العبادة:

((فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))([6])0

ولكن الإنسان من بين الكائنات له حالتان: حالة يكون فيها على فطرته السوية، فيعبد الله حق عبادته، وحالة تفسد فيها فطرته ويمرض قلبه، فيعبد آلهة أخرى غير الله، معه أو من دونه، بأى لون من

[1] سورة فصلت: 11 0
[2] سورة البلد: 10 0
[3] سورة الإنسان: 3 0
[4] سورة الشمس:7-10 0
[5] سورة الحج: 18 0
[6] سورة الروم: 30 0

ألوان العبادة التى يزينها الشيطان، فيصبح عابدا للشيطان بدلا من أن يكون كبقية الكون كلــه عابــدا لله00

ومن ثم تفترق طريق البشر شعبتين لا التقاء بينهما: الشعبة التى يعبد فيها الله، والشعبة التى يعبــد فيها الشيطان؛ وجيلا وراء جيل، يسلك فريق من البشر هذا الطريق ويسلك فريق آخر الطريق الآخر00

وتلك قضية البشرية الأساسية0

أما قضية الثبات والتطور، التى يلوكها((التطوريون))، فهى ذات منحى مختلف0

يزعمون أن الإنسان ليس له كيان ثابت0 ليس له((فطرة)) إنما هو نتاج ظروفه وبيئته؛ وحيث إن الظروف دائمة التغيير، وأشكال البيئة لا تثبت على حال، فلا يمكن أن يكون هناك شئ ثابت فى حيــاة البشر0 ولا يمكن أن تحكمه شريعة- ولو كانت مترلة من عند الله، ولو كانت مناســبة لوقتــها تمــام المناسبة- لأن الظروف تتغير، فيتغير تبعاً لها((الإنسان))، فيصبح إنسانا جديدا غير الإنسان الذى أنزلت له الشريعة فى حينها، وكانت فى وقتها مناسبة لأحواله0

وهذه هى اللوثة التى أصابت الفكر الأوربى ابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عــشر إلى هذه اللحظة، وما تزال تعيث فسادا فى الأرض00

ونظرة موضوعية بسيطة تدحض هذه اللوثة وتفندها00 وخذ هذه((الحقائق)) على سبيل المثال:

فى فطرة الإنسان أن يحب الحياة، ويحب لو طالت حياته علــى الأرض، ويحــب أن يــستمتع بحياته00 هل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة حين صعد الإنسان إلى القمر، وحين صار يضغط على زر فينطلق فى الفضاء؟

فى فطرة الإنسان أن يحب التملك.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة حين تقــدم علمــه وامتد إلى الآفاق؟

فى فطرة الإنسان أن يحب أن يأوى إلى مسكن يقيه البرد والحر، ويشعر فيه بالخصوصية، ويشعر فيه بأنه آمن من أن يطلع أحد على حياته الخاصة أو ينفذ إليها بصورة من الصور .. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

فى فطرة كل جنس أن يميل إلى الجنس الآخر ويشتاق إلى الاجتماع به .. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

فى فطرة الإنسان أنه لا يكتفى بما فى ((المعرفة)) .. يتعرف على بيئته، ثم يتوسع فى المعرفة ويحب لو أنه يعرف كل شيء عن كل شيء.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

فى فطرة الإنسان أنه لا يكتفى بما فى يديه من الأدوات بالصورة التى هى عليها، إنما يحب أن يحسنها ويجملها على الدوام .. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

وعشرات أخرى من ((النوازع الفطرية))، التابعة من ا لفطرة التى فطر الله الناس عليها .. هل تغير منها شيء حين دخل الإنسان ((الألفية الثالثة)) التى يطنطن بها ((التطوريون))؟

نعم .. بعض هذه النوازع – وليس كلها – تغيرت وسائل الاستجابة إليها، وتغيرت صور الاستجابة .. فهل تغيرت أصولها ومنابتها؟!

يسكن الإنسان فى كوخ.. ويسكن فى خيمة .. ويسكن فى بيت من الطين .. ويسكن فى قصر مزين بكل أنواع الزينة .. ما الذى تغير؟ الصورة أم الجوهر؟

ولا أحد ينكر أن تغير الصورة يحدث تغيرات فى المشاعر والأفكار وأنماط السلوك، ولكن من السذاجة أن نظن أن التغير يتجاوز القشرة، ويصل إلى المنابت والمنابع، فيغير الترعة الفطرية من أساسها، فيلغيها مسارها فى داخل النفس.. وذلك فضلا عن حقيقة نفسية أخرى، هى أن الحس البشرى يتبلد بعد فترة على ((الصورة)) التى تتكرر أمامه، فلا تعود تحركه كما حركته أول مرة، ولا يعود يتأثر بها كما تأثر حين كانت جديدة عليه، بل يخفت تأثيرها رويدا رويدا.. بينما يبقى المؤثر الحقيقى الدائم هو ((الجذر)) الذى تنبت منه الترعة الفطرية .. وهو الذى لا يتغير، ولا يفتر، ولا يكف عن إعطاء دفعته طالما كان الإنسان باقيا عل حيويته ووعيه، حتى وإن فقد بعض قدراته.. لأنه هناك فى عمق الفطرة، وليس شحنة عارضة تذهب نبعد حين!0

ومن جانب آخر ينبغى أن نسأل: لماذا يخترع الإنسان مخترعات جديدة، ولا يكف عن الاختراع؟

إن نزعة الاختراع هى ذاتها نزعة فطرية، ناشئة من الرغبة الدائمة فى التحسين والتجميل، وقــد أودعها الله فى الفطرة من أجل أن يسعى الإنسان دائماً إلى الارتقاء بحياته إلى مــستوى الإحــسان، ولا يقف عند مستوى الضرورة، لا فى المشاعر ولا فى المحسوسات:

((إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته))!([1])0

فمن أجل تحسين الحياة وتجميلها ليصل إلى درجة الإحسان يخترع الإنسان على الــدوام أدوات جديدة ووسائل جديدة .. فهل يخترعها عبثا أم لتلبية دافع فى داخل النفس؟

لماذا اخترع الإنسان السيارة والقطار والطائرة والصاروخ؟ أليس لأن فى داخله رغبة فى الانتقال السريع من مكان إلى مكان 00 بل رغبة أن لو استطاع أن يغمض عينيه ويفتحهما فإذا هو فى المكــان الذى يريد أن ينتقل إليه؟

نعم 00 إن كل اختراع حين وجد أحدث تغييرات فى صورة الحياة وأشكالها ربما لم تكن تخطر على البال بنفس الصورة قبل أن تتحقق، ولكنه ما لم يلب رغبة أصيلة فى النفس، فلن يقدر له أن يعيش! فالذى يحرك الحياة إذن ليس هو المخترعات فى ذاتها، إنما هو الدوافع الفطرية الكامنــة)) الــتى أدت إلى الاختراع 00

وتلك الدوافع هى ((الفطرة)) التى يستوى فيها راكب الجمل وراكب الصاروخ، وإن اختلفــت صورة التلبية بين راكب الجمل وراكب الصاروخ!

ولكن الاختلاف الجذرى الذى يفرق بين إنسان وإنسان ليس هو اختلاف الوسيلة المادية الــتى يلبى بها دوافعه الفطرية بقدر ما هو نوعية الدوافع ذاتها فى داخل النفس، وترتيب أهميتها فى القائمة، أيها أكبر قيمة من الأخرى0

---

[1] اقرأ إن شئت فصلا بعنوان ((فليرح ذبيحته)) فى كتاب ((قبسات من الرسول)) يشرح أبعاد هذا الحديث من أحاديث الرسول ﷺ

ومن هنا لا ينقسم الناس فى ميزان القيم إلى راكب صاروخ! إنما ينقسمون إلى راكب جمل مؤمن وراكب جمل كافر، وراكب صاروخ مؤمن وراكب صاروخ كافر.. وهكذا، فى كل مجال من مجـــالات الحياة 0

((هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن))([1])0

والمؤمنون كلهم من راكب الجمل إلى راكب الصاروخ لهم سمات مشتركة، وإن اختلفت صور حياتهم، والكافرون كلهم من راكب الجمل إلى راكب الصاروخ لهم سمات مشتركة وإن اختلفت صور حياتهم0

وهذا الاختلاف الرئيسى بين الفريقين لا يلغى الفروق الجزئية الكائنة بين أفراد كل فريق، الناتجة عن اختلاف صور حياتهم، ولكنه يفقدها كثيرا من وزنها المبالغ فى تقديره عند التطوريين0

لقد وضع التطوريون كل الثقل فى الفروق الجزئية الناشئة عن اختلاف الصور المعاشة، وركـــزوا عليها وقسموا التاريخ البشرى على أساسها، فهذا العهد الرعوى، وهذا العهد الزراعى، وهـــذا العهـــد الصناعى، وهذا العد الذرى.. وكان هدفهم من ذلك نزع الثقل من ((القيم)) التى تحكم حياة النـــاس، لأنهم لا يؤمنون بتلك القيم، ويعملون على تحطيمها، لغايات خبيثة فى نفوسهم، لا لأن هذا هو الحـــق، ولا لأن النظرة الموضوعية تؤدى إلى ما زعموه0

ومحك القضية على أى حال هو الصورة التى آلت إليها حياة الناس حين فقدوا القيم أو أهملوها، وعنوا بأشكال الحياة الظاهرة، وجعلوها هى القيم البديلة0

وأوربا – فى جاهليتها المعاصرة – يمكن أن تقول نأى شىء ويمكن أن تفعل أى شىء، ولو أدى إلى تدمير حياتها من أساسها00 أما التطوريون الذين يحملون أسماء إسلامية، فما خطبهم؟!

ألا يراجعون ضمائرهم؟

نسألهم سؤلا واحدا، نطلب منهم أن يكونوا أمناء مع أنفسهم فى الإجابة عنه : أيهمـــا أفـــضل وأعلى وأرفع وأقوم: جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أم هذا الجيل النكد الذى يعيشون فيه؟

---

[1] سورة التغابن : 2

ثم نرتب على السؤال سؤالا آخر : هل الفارق الحقيقى بين جيل من البشر وجيل كامن فى القيم التى يتمسكون بها ويعيشون على هداها، أم فى ثورة التكنولوجيا وثورة المعلومات؟!

ولا يحسبن أحد أننا نريد بقولنا هذا أن نلغى قيمة التقدم المادى والعلمى والتكنولوجى الذى أحرزته البشرية بجهادها الطويل 00

كلا 00 على الإطلاق!

فالمتخلف عن الركب فى هذه الشئون كلها مخطئ فى الميزان الربانى . فقد خلق الله الإنسان لعمارة الأرض :

((هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها))[1]0

وأعطاه من الأدوات ما يعينه على هذا الأمر :

((والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون))[2]0

ثم سخر للإنسان طاقات السموات والأرض

((وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه))[3]0

فإذا قصر فى استخدام الأدوات التى وهبها له الله، وقصر فى عمارة الأرض، وقصر فى تحقيق ما سخر الله له من طاقات السموات والأرض، فهو مخطئ ومقصر بكل تأكيد 00

ولكن دعنا نعقد مقارنة بين رجلين، أحدهما متخلف عمرانياً وتكنولوجيا وماديا، ولكنه عفيف، لا يفكر فى العدوان على غيره، عفيف فى تناوله لطيبات الحياة لا يسطو على عرض، ولا يسطو على حق إنسان آخر فى الحياة، والثانى متقدم مادياً، ينبع التقدم المادى من بين أظافره، ولكنه يبيح لنفسه – أو

---

[1] سورة هود : 61

[2] سورة النحل : 78

[3] سورة الجاثية : 13

لشعبه – أن يقتل ويسفك الدماء فى سبيل السيطرة والعلو، ويبيح لنفسه – أو لشعبه– أن يتحكم فى أقدار الناس والشعوب 00

كلاهما مخطئ ولا شك، ولكن أيهما خطؤه أكبر واخطر، وأيهما جرمه أكبر وأخطر0

* * *

ونعود الآن بعد هذه الجولة إلى قضية الشريعة الربانية المترلة قبل أربعة عشر قرنا، وموقفها من ((الإنسان)) وموقف الإنسان منها، على ضوء قضية الثبات والتغير))([1])0

إذا تبين لنا من البحث الموضوعى أن فى الحياة البشرية أصولا دائمة لا تتغير، هى المركوزة فى أصل الفطرة، وصوراً متغيرة من الممارسة لبعض النوازع الفطرية ((وليس كلها)) مع ثبات أصولها ومنابعها فى الفطرة، فما الطريقة المثلى لتنظيم الحياة البشرية على أسس سليمة تتجاوب مع تلك الفطرة فى ثوابتها ومتغيراتها: تثبيت الشريعة فى مجالات الحياة كافة بصرف النظر عما يجد فى حياة البشر؟ أم تركها تتغير فى جميع مجالاتها كلما عن للبشر أن يغيروا؟ أم تثبيت ما من شأنه الثبات، وإتاحة المجال للمتغيرات أن تتغير مع تثبيت الأصول التى تحكمها فى تغيرها؟

هنا – فى هذا المجال بالذات – يتجلى لنا عنصر من عناصر الإعجاز فى التشريع الربانى0

فى الحياة البشرية ثوابت ليس من شأنها أن تتغير لأن تغيرها يفسد حياة الناس.

وهذه نصت عليها الشريعة نصا صريحا ملزما . وهناك متغيرات ليس من شأنها أن تثبت على صورة معينة لأن تثبيتها يجمد الحياة ويعوقها عن النمو السوى، وهذه – فى الشريعة الربانية – مفتوح فيها باب الاجتهاد، مع تثبيت الأصول التى تحكمها، بحيث لا تحل حراماً، ولا تحرم حلالاً، ولا تصادم مقاصد الشريعة0

وبهذا تواكب الشريعة حركة البشرية فى جميع خطواتها، وتضبط منطلقها فى ذات الوقت، فلا تأسن من الجمود، ولا تجنح إلى الانحراف0

---

[1] اقرأ إن شئت حول هذه القضية فى كتاب ((التطور والثبات فى حياة البشرية))

هناك الضرورات الخمس: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ المال. هذه ثوابت لا تخضع للتغير، لا من حيث الجوهر ولا من حيث الصورة، لأن أى تغيير فيها يفسد الحياة0

ومن حفظ الدين تحكيم الشريعة، وتحريم الردة 0

ومن حفظ العقل تحريم المسكر والمخدر 0

ومن حفظ النفس تحريم القتل والعدوان 0

ومن حفظ العرض تحريم الفاحشة وما يقرب منها أو يؤدى إليها.

ومن حفظ المال تحريم السرقة والغش وأكل أموال الناس بالباطل0

وتتعلق بهذه جميعا حدود لا تتغير فيها، ولا استبدال لغيرها بها0

ثم هناك ثوابت أخرى ناشئة من ثبات أركانها وعدم قابليتها للتغيير، كعلاقات الأسرة، وعلاقات الجنسين، وعلاقات المجتمع الإسلامى بعضه ببعض، وعلاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم0

وتلك كلها تحكمها قواعد ثابتة ونصوص تفصيلية غير قابلة للتغيير 0

وهناك بعد ذلك أمور كثيرة تتغير صورها على الدوام، نتيجة تفاعل العقل البشرى مع الكون المادى، واكتساب الإنسان خبرات جديدة من خلال هذا التفاعل.. فتتغير الصورة السياسية، والصورة الاقتصادية، والصورة الاجتماعية، ولكنها فى تغيرها الدائم لا ينبغى لها أن تخرج على القواعد العامة التى تحكمها، والمنصوص عليها فى كتاب الله (والسنة مكملة وشارحة، وهى من الوحى الربانى)0

وهكذا تنمو المجتمعات نمو سويا، وتتغير بعض الصور فى حياتها من جيل إلى جيل، ومن طور إلى طور، ولكن أصولها لا تتغير.. فتظل الشريعة عاملة فى حياتها، لا تحتاج إلى تبديل ولا تتغير ولا تعديل، بينما يظل باب الاجتهاد مفتوحاً لتغطية ما يجد من أمور فى حياة الناس بغطاء الشريعة الدائم الذى لا يتغير، وتظل الأمة محافظة على إسلامها بمحافظتها على عقيدتها وشريعتها، ومحافظة فى الوقت ذاته على رضوان الله، الذى أنزل غضبه على من لم يحكم بما أنزل الله :

((أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون))[1]0

((أفلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً))[2]0

* * *

ثم ننتقل إلى مجالين آخرين من مجالات الإعجاز فى الشريعة الربانية، أحدهما يتعلق بقضية الفـرد والمجتمع، والآخر يتعلق بقضية الجريمة والعقاب، وهما قضيتان تتداخلان فى بعض شئونهما، وإن كان كل منهما له مجاله الخاص0

وقد تكلمنا من قبل عن قضية الفرد والمجتمع فى أثناء الحديث عن الإعجاز التربوى فى القـرآن. ولكنا هنا نتحدث عن الجانب التشريعى، وهما متكاملان فى منهج الله، إذ الشريعة ذاتها جزء من منـهج التربية الإسلامى0

الفرد فى ظل الشريعة يستمتع بما يكفل له الحياة السوية النظيفة المتوازنة0

كرامته محفوظة بالتكريم الربانى :

((ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممـن خلقنا تفضيلا))[3]0

فلا يتجسس عليه، ولا يؤخذ بالظنة، ولا يؤخذ بجريرة غيره، ولا يقتحم عليـه مـسكنه، ولا تنتهك حرماته، وهو برئ حتى تثبت إدانته، ولا يضرب ولا يعذب ولا تقيد حريته بغير موجب، ولابد عند اتهامه من قرائن تؤيد الاتهام، ولكن لا تؤخذ منه الاعترافات قسرا بالتعذيب ولا بالإغراء، ويحـاكم – حين يحاكم – بمقتضى الشريعة الربانية لا على هوى من يحاكمه0

---

[1] سورة المائدة : 50

[2] سورة النساء : 65

[3] سورة الإسراء : 70

وله نشاطه المشروع: يعمل، ويتكسب كسبا حلالا، ويمتلك، ويبيع ويشترى، ويرث، ويورث، ويهب ويتصدق من ما له كما يشاء، لا قيد عليه فى شىء من ذلك إلا ما تقتضيه الشريعة0

أما ما يسمى اليوم ((الحقوق السياسية))، فهى فى الإسلام واجبات 00

فالاهتمام بالشئون العامة واجب : ((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم))([1])

والنصح للحاكم والمحكوم واجب: ((الدين النصيحة. قالوا : لمن يا رسول الله؟ قال: لله ورسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم))([2])0

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب: ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))([3]). ((من رأى منكم منكرا فلغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان))([4])0

وله حقه فى بيت المال إذا احتاج: ((إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم))([5])0

وهكذا تكون الحياة الكريمة مكفولة له منكل جوانبها 00

ولكنه ليس متروكاً على هواه يفعل ما يشاء تحت مظلة ((الحرية الشخصية)) كما تفعل النظم الليبرالية، التى تدخل فى تلك الحرية الشخصية حرية الإلحاد، وحرية التحلل الخلقى، وحرية اكتساب المال الحرام بالربا، وبنشر اللهو والفساد والفجور الذى يدر المال على ناشريه!!

إن تلك ((الحرية الشخصية)) على هذا النحو كانت جزءا من مخطط إفساد البشرية على يد ((شعب الله المختار))، دسوه على الثورة الفرنسية حتى صار جزءا من ((الديمقراطية)) تحت شعار Laissez Passer, Laissez Faire دعه يعمل (ما يشاء) دعه يمر ((من حيث يشاء))، ولم

---

[1] رواه الطبرانى والحاكم

[2] متفق عليه

[3] سورة آل عمران : 104

[4] رواه الشيخان 0

[5] سورة التوبة : 60

يكن القصد منه الخير للبشرية وإن بدا فى أعين الناس يومئذ أنه ((تحرير)) من القيود الضغوط التى كانت تجثم على صدور الشعوب وتكتم أنفاسها، ولكن المخططين الشريرين كانوا يعرفون أبعاده، فلم يقفوا به عند إزالة الظلم، بل تجاوزوها إلى الإفساد المقصود :

((ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين))([1])0

وفى الوقت الذى تكفل الشريعة للفرد كرامته، وتعطيه حقوقه المعقولة، فإنها تحفـظ للجماعـة كيانها كذلك. فللجماعة حق التقويم للفرد الذى يتجاوز حدوده المشروعة، فيتعدى على حرمـات الله، أو يعيث فى الأرض فسادا، أو يؤذى غيره، أو يأتى بمنكر لا تقره الأعراف المستمدة من الشريعة، وليس له أن يحتج على الناس بأنه حر يفعل ما يشاء 00

وليس هنا مجال تفصيل ما يحق للحاكم وما يحق لأفراد الأمة من الأمر بالمعروف والنـهى عـن المنكر والأخذ على يد المعتدى، ومرتكب المنكر، فتلك مباحث متخصصة تطلب فى كتب الفقه، إنمـا نتحدث هنا عن الخطوط العريضة التى تثبت حق الجماعة على الفرد. بما يمنعه من الطغيان، وإيقاع الضرر والأذى على الآخرين، ويمنعه من الخروج على العرف، وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا، وتزيين المنكـر بالقول أو العمل، وتزيين الخروج على أوامر الله، والدعوة إلى الفساد من أى نـوع فكريـاً كـان أو اجتماعياً أو أخلاقياً أو اقتصادياً أو سياسياً.. فمن حق الجماعة أن تحمى نفسها من ذلك الـشر كلـه، وحقها فى ذلك مقدس كحق الفرد 00

ولكن مزية المنهج الربانى أنه لا يصنعكما تصنع النظم الشمولية، التى تسحق الفرد تحت ثقلـها، فتحرم عليه أن يفتح فمه بكلمة نقد للحاكم. أو حاشيته، وتراقبه حتى فى خلوته، وتعد عليه أنفاسـه، وتتجسس نعليه، وتتعامل معه دائما على أنه مجرم يتوقع منه عمل الشر فى كل لحظة، وعليه هو أن يثبت براءته فى كل لحظة!

((إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم))([2])0

---

[1] سورة المائدة : 64

[2] رواه أحمد وأبو داود والحاكم 0

ولقد كان عمر رضى الله عنه، وهو من هو فى هيبته التى أضفاها الله عليه، يقبل النقد، ويقول لمن أراد أن يمنع أحد الرعية من قولة ينتقد فيها الخليفة: دعه! فلا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نسمعها منهم! ويقبل من سلمان الفارسى رضى الله عنه أن يقول له: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين! ويقبل من امرأة أن تناقشه فى أمر المغالاة فى المهور ثم يقول: أخطأ عمر وأصابت امرأة 0

إنما هو التوازن الذى يمنع طغيان الفرد على الجماعة على الفرد، ويؤدى إلى استقرار تحفه البركة، وتجرى فيه الأمور بالقسط :

((لقد أرسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط))([1]) 0

* * *

أما قضية الجريمة والعقاب فللشريعة فيها توازن مماثل 00

إنها لا تقسو على الفرد لحساب الجماعة (وإن ظن بعض الجهال ذلك بالنسبة للعقوبات الإسلامية)، ولا تدلل المجرم كذلك حتى تجعله مجنيا عليه من المجتمع كما تفعل النظم التى تأثرت بمباحث علم النفس التحليلى، الذى يحسن أن نسميه ((علم تبرير الجريمة)) لأن هذا ما يؤدى إليه بالفعل!

إنما تنظر الشريعة إلى الجريمة والعقاب بعين الفرد وعين الجماعة معاً فى ذات الوقت0

إن الإسلام لا يبدأ بفرض العقوبات الرادعة كما يظن الذين يقرءون النصوص القرآنية بغير تدبر، فيجدون فيها مثلا : ((والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله))([2]) 0 ويجدون فيها : ((الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين))([3]) 0 ويجدون فيها: ((إنما جزاء الذين

---

[1] سورة الحديد : 25

[2] سورة المائدة : 38

[3] سورة النور : 2

يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم))([1])0

إنما يعمل الإسلام أولا لمنع الأسباب التى تؤدى إلى الجريمة، بأن يكفل للفرد كـــل الـــضمانات المعقولة التى من شأنها أن تجعل الفرد السوى لا يفكر فى الجريمة أصلا، ولا يجد مسوغا لها. فإذا ارتكب الجريمة بعد ذلك، فهو غير معذور. ثم إن العقوبة الرادعة التى تقررها الشريعة هى ذاتها وسيلة لأن تجعل الجانى يفكر مرات قبل أن يقدم على الجريمة، فإذا أقدم بعد ذلك، وليس له عذر ولا مسوغ معقول، وفيه استهتار وعدم مبالاة، فالإشفاق عليه، وتخفيف العقوبة عنه، يعدان نشر للجريمة فى الواقـــع وتـــشجيعا عليها، ولا يعتبر علاجا ناجعا لحماية المجتمع من الجريمة. والواقع الذى يعيشه الغـــرب، الـــذى يأخـــذ بنظريات علم النفس التحليلى، والدراسات الاجتماعية التى تنظر بعين الفرد ضد الجماعة، يشهد بصدق ما نقول. فالجرائم هناك من الكثرة والشيوع بحيث تعد بالثانية، لا باليوم ولا بالـــساعة ولا بالدقيقـــة، فيقال: تحدث فى كل ثانية كذا جريمة قتل، وكذا جريمة سرقة، وكذا جريمة اغتصاب، وكذا .. وكذا ، من صنوف الجرائم!

إن الإسلام ينظر فى دوافع الجريمة عند الفرد فيعمل على تلافيها قبل وقوعها، أو جعل مرتكبـــها غير معذور فى ارتكابها، فإن وجد أنه معذور فعلا فالشريعة تقول: ((ادرءوا الحدود بالشبهات))([2])!

دافع السرقة هو الجوع 00 والإسلام يسعى – بوسائله المختلفة – ألا يكون فى المجتمع جـــائع يضطره الجوع إلى السرقة، فإن وجد الجوع فإنه يدرأ الحد، كما فعل عمر رضـــى الله عنـــه، فى عـــام الرمادة، حين جاع الناس، فأوقف تطبيق حد السرقة لوجود الشبهة، ولم يكن ذلك منه إبطالاً للشريعة كما يرجف المرجفون، إنما كان هو التطبيق الواعى الصحيح لشريعة الله0

ودافع الزنا فورة الغريزة .. والإسلام يسعى – بوسائله المختلفة – لإتاحـــة المنطلـــق الطبيعـــى النظيف لفورة الغريزة بتيسير الزواج والحث عليه والتبكير نفيه، وبتوجيه طاقات الـــشباب إلى ميـــادين للعمل والنشاط تستوعب جزءا من الطاقة وتخفف الحمل على الأعصاب، ثم بتحريم التبرج فى المجتمـــع، الذى هو المحرض الأكبر على الفاحشة.. وكذلك بتربية الناس على مخافة الله، والتوجه إليـــه بالعبـــادة،

[1] سورة المائدة : 33

[2] رواه أبو يعلى والبيهقى وابن ماجه، وعبد الرازق والطبرانى وابن أبى شيبه 0

وتربيتهم كذلك على الصبر على المكاره حتى يأتى الفرج من عند الله .. وعندئذ لا عذر لمن يعتدى على أعراض الناس 0

وكذلك الجرائم الأخرى، لكل منها دوافع، والإسلام يسعى أولا لسد الذرائع، حتى لا يكـــون لمرتكب الجريمة عذر فى ارتكابها، فإذا ارتكبها وهو غير معذور أقيم عليه الحد، وإن كانت لـــه شـــبهة فالشبهة تدرأ الحد 00

نظام دقيق .. يأخذ الأمر من جميع زواياه فى آن واحد؛ فلا ينكل بالجانى لمجرد التنكيل، ولا يدلله كذلك فيشجعه على الاستهتار بأرواح الناس وممتلكاتهم وأعراضهم وأمنهم ومصالحهم0

وفى المجتمع الإسلامى الذى يطبق الشريعة تقل الجرائم بصورة ملحوظة، ويسود الأمن والاستقرار والطمأنينة، وتحف البركة حياة الناس تحقيقاً لوعد الله:

((ولو أن أهل القرى آمنوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض))([1])0

* * *

ولا يفوتنا أن نذكر فى باب الإعجاز التشريعى ذلك الشمول الذى تتميز به الشريعة الربانية، مع خاصية التوازن التى أشرنا إليها من قبل 0

من مجال من مجالات الحياة إلا للشريعة مدخل فيه .. فهو – بالضرورة – واقع فى واحد من هذه الأبواب الخمسة: حرام أو حلال أو مباح أو مندوب أو مكروه .. سواء أكان مجالاً اقتصادياً أم سياسياً أم اجتماعياً أم أخلاقياً أم فكرياً، أم ما يكون من ألوان النشاط البشرى فى الأرض00

وذلك من الإعجاز !

((قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين(162) لا شريك له))([2])0

إن النظم البشرية – بحكم قصور البشر عن الإحاطة – تهتم ببعض الجوانب على حساب جوانب أخرى، وترتكز على مجالات وتهمل مجالات 00

[1] سورة الأعراف : 96

[2] سورة الأنعام : 162 ، 163

فى الديمقراطيات الليبرالية، هناك تركيز كبير على ((الحقوق السياسية)) 00 يقابله إهمال ملحوظ فى الجوانب الأخلاقية يصل إلى حد التسيب الذى يهدد تلك المجتمعات فى النهاية بالانهيار0

فى النظم الرأسمالية تركيز شديد على حرية رأس المال فى العمل والحركة، ورفع الحواجز من طريقه Laissez Passer ! دون النظر إلى العواقب المحلية والعالمية التى تنجم عن هذه الحرية، التى عبر عنها أحد كتابهم وهو يتحدث عن عواقب الربا، والمعاملات الربوية، بأن نتيجتها النهائية هى ((تزايد الثروة فى يد فئة يتناقص عددها باستمرار، وتزايد الفقر فى أعداد من الناس يتزايد عددهم باستمرار!))([1])، وذلك فضلا عن الحروب والصراعات العالمية التى تطحن الناس طحنا وتفسد عليهم أمنهم وطمأنينتهم.. والعولمة الحاضرة نموذج!

فى النظم الدكتاتورية تركيز شديد على سيادة ((السيد)) الذى يحكم، وإحاطته بكل وسائل السيطرة، وكبت حريات الناس فى المقابل، لأنها تحد من سلطان ((السيد))، ولا حقوق للناس إلا ما يتكرم به السيد على الناس تكرما، وعليهم أن يرضوا صاغرين. وفى الوقت ذاته تباح الملهيات، ليغرق الناس فيها وينسوا همومهم، كما كانت الشيوعية تفعل بشعوبها، وتفخر بأن أعلى الرواتب فيها هى رواتب الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات!

النظرة الشاملة التى تضع كل شىء فى مكانه ليست من شأن البشر! فالبشر تحركهم أهواؤهم أكثر مما تحركهم عقولهم 00 ((إلا عباد الله المخلصين))([2])0 لا لأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر، ولكن لأنهم يلتزمون بشريعة الله، فتمنع عنهم الجنوح فى جانب والإهمال فى جانب 00 وتوازن حياتهم فينعمون بالأمن والطمأنينة والاستقرار0

* * *

تلك بعض جوانب الإعجاز فى الشريعة الربانية. وإن تعجب بعد ذلك، فاعجب للذين ينادون بتنحية الشريعة عن الحكم، وتحكيم القوانين الوضعية بدلا منها، بحجة أن البشر أعلم بمصالحهم من ربهم الذى خلقهم، والله يقول :

---

[1] انظر تقرير شاخت عن الربا 0

[2] سورة الصافات : 160 0

((قل أأنتم أعلم أم الله))([1])0

((وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون))([2])0

من الإعجاز العلمى

ليس القرآن كتاب علوم! فلا هو كتاب فى الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو علم الحياة!

ولكنه مع ذلك يحوى إشارات فى كل تلك العلوم !

وموضع هذه الإشارات فى كتاب الله هو تعريف الناس بقدرة ربهم التى لا تحد، وبآيات قدرته فى هذا الكون، ليعرفوا أنه لا إله غيره، ولا مدبر غيره، ولا رازق غيره، ولا مهيمن غيره، وأنه هو الفعال لما يريد، فيعبدوه وحده بلا شريك، ويتبعوا ما أنزل إليهم 00

وبعض هذه الإشارات كان معلوما مشاهدا بالنسبة للعرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، فكان ذكرها لهم، وتذكيرهم بها، مقصودا به إزالة الغشاوة التى تغشى على بصائرهم فتجعلهم لا يدركون الدلالة الواضحة التى يجب أن تستمد منها، وهى أنه ما دام الله هو الذى يقدر، وهو على كل شىء قدير، ولا أحد يقدر قدرته، ولا يدبر تدبيره، ولا يهيمن هيمنته، فالعبادة ينبغى أن توجه إليه وحده، دون تلك الآلهة المزعومة التى لا تخلق، ولا تقدر، ولا تدبر، ولا تهيمن00

ولكن بعض هذه الإشارات كان جديدا على أولئك المخاطبين بالقرآن أول مرة، لا يعرفون أسرارها، أو لا يعرفون تفصيلاتها.. وقال لهم الله فى كتابه المترل إنهم سيعرفونها ذات يوم :

((سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق))([3])0

((وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها00))([4])0

---

[1] سورة البقرة : 140 0

[2] سورة البقرة : 216 0

[3] سورة فصلت : 53

[4] سورة النمل : 93

((ولتعلمن نبأه بعد حين))([1])0

فأما الذين آمنوا فقد أخذوا هذه الإشارات بالتسليم، وإن كانوا لا يعرفون كل شىء عنها، مـــا دامت من عند ربهم الذى آمنوا به وصدقوه :

((فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم))([2])0

((يقولون آمنا به كل من عند ربنا))([3])0

ولكن أجيالاً وراء أجيال كانت تتعرف رويداً رويداً على بعض أسرار هذه الإشارات، فتزيدها المعرفة إيماناً، وإن كانوا قد كانوا مؤمنين ومصدقين من قبل 00

وفى عصرنا الحديث هذا الذى اتسعت فيه دائرة العلوم، وانكشفت فيه كثير من أسرار الكـــون، تبينت للناس حقائق كثيرة تتعلق بالإشارات القرآنية، لم تكن معلومة من قبل، فازداد الناس تعلقا بتلـــك الإشارات، وقامت بشأنها أبحاث متخصصة يقوم بها علماء مسلمون فى شتى فروع المعرفة، وقامت دعوة تهدف إلى الإكثار من هذه الأبحاث، من أجل إقناع غير المسلمين بالإسلام، عن طريق إثبـــات صـــدق القرآن، وأنه وحى منزل من عند الله، إذ لم تكن المعلومات الواردة فيه معروفة للبشرية كلها من قبـــل، فيستحيل أن يكون محمد ﷺ هو مؤلف القرآن من عند نفسه كما يزعم المستشرقون وغيرهم من أعداء الإسلام. وهو اتجاه سليم فى ذاته، وقد أسلم على هداه بعض الناس بالفعل، كذلك الطبيب التايلنـــدى الذى قرأ بحثا من هذه الأبحاث عن أطوار الجنين، يدور حول الآية الكريمة :

((ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين))([4])0

فذهل الرجل .. وقال إن هذا الطور من أطوار الجنين، الذى يكون فيه كالمضغة لم يكن معروفا للبشرية كلها قبل عشر سنوات فحسب، وإنما عرف بعد اختراع أجهزة تراقب تطور الجنين فى داخـــل

---

[1] سورة ص : 88

[2] سورة البقرة : 26

[3] سورة آل عمران : 7

[4] سورة المؤمنون : 14

الرحم وهو حى، فلا يمكن أن يكون محمد ﷺ قد قال هذا الكلام من عند نفسه، ولابد أن يكون وحيا من عند الله. ثم قام فقال: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله0

نعم! ولكن هناك فى هذا الاتجاه محاذير 00 فبعض الناس تدفعهم الحماسة فيتلفقون كل نظرية علمية يظنون فيها تأييداً أو إثباتاً لإشارة من الإشارات الواردة فى القرآن، فيسارعون إلى تبنيها، ويفسرون الآيات القرآنية على هداها.. وليس كل ما يقال فى الساحة العلمية حقائق! فبعضها لا يزيد على فروض علمية، وبعضها ما زال فى طور النظرية لم يصل إلى حد أن يصبح حقيقة علمية موثوقا بها. فإذا ربطنا تفسيرنا للآيات القرآنية ببعض هذه الفروض أو النظريات، ثم تبين بعد حين من الوقت أنها لم تكن صحيحة، فإننا نقع – من حيث لا ندرى – فى الغلطة التى وقعت فيها الكنيسة فى العصور الوسطى ، إذ تبنت أفكارا علمية كانت سائدة يومئذ، ففسرت بها ما جاء فى التوراة والإنجيل؛ وكذبوا كل ما كان فيهما مما بقى على أصله المترل، وما حرف، ومما أسئ تأويله، فجعلوها كلها أكاذيب!

والقرآن غنى بدلائل الإعجاز فيه، سواء الإعجاز البيانى الذى تحدى الله به البشر جميعاً، والبلغاء فى أولهم، فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بألوان الإعجاز الأخرى التى تحدثنا عن بعضها فى هذا الكتاب . ولا يحتاج أن نتلمس له أسانيد من النظريات العلمية المتداولة اليوم، التى قد يظهر بطلانها غدا. ولكن لا بأس أن نأخذ الحقائق العلمية التى ثبتت صحتها، والتى نجدها متوافقة مع ما جاء فى القرآن، أو مفسرة له فنعتمدها، ونتخذها دليلا يضاف إلى الأدلة القائمة من قبل على أن هذا القرآن وحى ربانى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. على ألا نتعسف فى ربط تفسير الآيات بكل شاردة وواردة مما يسمى علما .. كما حاول بعضهم أن يفسر قوله تعالى : ((وقد خلقكم أطواراً))([1]). بما يتفق مع نظرية دارون فى التطور. بينما أصحاب النظرية ذاتهم يتشككون اليوم فى صدقها، وينحون فى تفسير الحياة على الأرض منحى غير منحى دارون!!

والآن بعد هذه المقدمة التى نراها ضرورية، نأخذ فى عرض بعض دلائل الإعجاز العلمى فى كتاب الله !

* * *

[1] سورة نوح : 14

يقول تعالى فى وصف الجبال إنها أوتاد 00

((ألم نجعل الأرض مهاداً(6) والجبال أوتادا))([1])0

وهذه الحقيقة العلمية لم تعرف إلا منذ أمد قصير، بعد ما أمكن تصوير باطن الأرض بالوسائل الحديثة التى لم تكن معروفة قبل القرن العشرين، بل قبل النصف الأخير من هذا القرن.. إذ وجد أن الجبل ليس هو الجزء الظاهر منه فوق سطح الأرض فقط، بل إنه مغروس كالوتد فى باطن الأرض، وأن الجزء المغروس منه مدبب كالوتد، ليثبت الجبل مكانه. وأنه لولا جذر الوتد الغروس فى باطن الأرض – فى ((اللافا)) السائلة – ما ثبت الجبل مكانه! وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للعرب- ولا لغيرهم – وفت نزول القرآن، حتى يقال إن محمدا صلى الله عليه وسلم اقتبسها من علوم عصره .. إنما هى إحدى الإشارات القرآنية الكونية التى وعد الله البشر أنهم سيعلمونها فى يوم من الأيام، ويعلمون أنها حق، ويتبينون أنها وحى من عند الله0

وفيما يختص بالجبال كذلك، هناك حقيقة أخرى لم تعرف إلا منذ عهد قريب، وهى الواردة فى قوله تعالى : ((وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم))([2])0

فمهمة الجبال فى الأرض، التى خلق الله الجبال من أجلها هى ترسية الأرض، ومنعها أن تميد بالناس! فهى بجذور أوتادها المغروسة فى اللافا السائلة فى باطن الأرض هى التى تحفظ توازن الأرض، وتجعلها مستقرة يستطيع البشر أن يعيشوا فوقها، وينشطوا نشاطهم، ويبنوا ما يبنونه من منازل ومنشآت .. ولولاها لظلت الأرض تميد بالناس، وترتج بهم ذات اليمين وذات اليسار، بما تحدث منه نماذج خفيفة فى الزلازل بين الحين والحين 00

* * *

وبصدد تلك الرواسى أيضاً جاء فى سورة الرعد :

[1] سورة النبأ : 6،7

[2] سورة النحل : 15

((وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثـــنين يغشى الليل والنهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون))([1]) 0

وهذه الآية وحدها تحمل حشدا من ((المعلومات)) العلمية، متتابعة تتابعاً ((علميـــاً)) لم يكـــن يدركه الناس قبل اتساع معلوماتهم عن هذا الكون وما يجرى فيه 0

فالرواسى – وهى الجبال – تحفظ توازن الأرض، وفى الوقت ذاته هى مصدات تـــصد الريـــاح المحملة ببخار الماء فيصعد إلى أعلى، فيبرد، فيتكاثف، فيترل إلى الأرض فى صورة أمطار، ومن الأمطـــار الغزيرة تتولد الأنهار.. ومن هنا نرى أن ذكر الأنهار بعد الرواسى ليس مجرد تعديد لآيات قـــدرة الله فى الكون، وإنما هناك ترابط ((علمى)) بينهما، هو ترابط السبب والنتيجة 0

ومرة أخرى يأتى الترابط ((العلمى)) فيما بين الأنهار والثمرات. فالأنهار هى التى تسقى الزروع، فتنتج فيها الثمار . وثمة حقيقة علمية أخرى هى أن الثمرات أزواج، وسنتحدث عن هـــذه الحقيقـــة فى فقرة تالية. ولكن الذى يلفت النظر ((العلمى)) هو ذكر غشيان الليل النهار بعد ذكر الثمرات. وهـــذه حقيقة علمية لم تكن معروفة إلا أخيراً .. أن الثمرة تنمو فى الليل، وأن غشيان الليل النهار أمر ضرورى لإنضاج الثمرة! وأنه إذا لم يأخذ النبات حظه من الظلام فى الليل فإنه يضعف ويضوى!

اكتشف هذا الأمر فى الخمسينيات من هذا القرن فى حادثة طريفة! فقد أقامت إحدى شركات الإعلان لوحة قوية الإضاءة فى مزرعة أرز مملوكة لأحد اليابانيين. فلاحظ الرجل أن محصول الأرز قـــد تضاءل، فرفع دعوى على الشركة المعلنة يطالبها بتعويض عما أصابه من الخسارة بسبب هذه الإضـــاءة القوية فى الليل! وأخذت المحكمة الأمر مأخذ الجد، فكلفت فريقا من العلماء أن يدرس القضية دراســـة علمية لتقرير ما إذا كانت الإضاءة القوية قد أثرت بالفعل فى تناقص محصول الأرز! وجاءت الأبحـــاث مثبتة هذه العجيبة: أن النبات يستريح فى الليل أو إن شئت قلت ينام فى الليل ليستأنف نشاطه مع مطلع النور فى الصباح، وأن تلك الإضاءة القوية قد منعت النبات من غفوته الضرورية له، فـــضعف نتيجـــة الإرهاق!

---

[1] سورة الرعد : 3

ثم تبين كذلك أن الثمرة تأخذ أكبر حظ من نموها فى تلك الفترة بالذات! الفترة الـتى يكـون النبات فيها فى غفوته! وأن كل نوع من الثمار يحتاج إلى فترة معينة من الإظلام لكى ينمو نموه الطبيعى، وأن توزيع النبات على وجه الأرض يتناسب تناسبا تدقيقا مع أطوال فترة الليل فى كـل مكـان، وأن النبات الذى تحتاج ثمرته – مثلا – إلى فترة إظلام تمتد اثنتى عشرة ساعة، إذا استنبت فى بقعة ليلها عشر ساعات فقط فإنه يخرج ضعيفاً عن أصله فى أرضه الأصلية. أما إذا كان النقص كبيراً فإنه لا يثمر !

هذه الحقائق العجيبة كلها، التى كشفت بمناسبة تلك القضية العجيبة (التى حكمت فيها المحكمة لصالح صاحب المزرعة) تبين لنا أن هناك ترابطا ((علمياً)) متسلسلاً ما بين الجبال إلى الأنهار إلى الإثمـار إلى غشيان الليل النهار .. وذلك من الإعجاز !

* * *

أما قضية ((الأزواج)) فهى قضية علمية لم تكن مكشوفة بكاملها للأجيال الأولى التى تلقت هذا القرآن، ولكن الأبحاث العلمية بينتها ووضحتها وكشفت دقائقها0

يقول تعالى :

((سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون))([1])

((ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون))([2])0

وقد كان معروفا عند الناس وقت نزول القرآن أن فى النبات والحيوان والإنسان زوجين : ذكرا وأنثى، ولكن آية يس أشارات إلى مالا يعلمون. ومعنى ذلك أن هناك أزواجا فى غير النبات والحيـوان والإنسان، تلك التى يعرفها الناس. كما أن آية الذاريات تشير إلى الأزواج موجودة فى كل شىء علـى الإطلاق، وليست مقصورة على ما كان معلوما عند الناس يومئذ من وجودهـا فى النبـات والحيـوان والإنسان0

---

[1] سورة يس : 36

[2] سورة الذاريات : 49

وتمضى قرون .. ويتعرف العلماء على الذرة .. ويخضعونها للبحث فى المعمل فيكتشفون أن فى دخلها ((زوجين)) من الطاقة، إحداهما سالبة والأخرى موجبة، وأن فصلهما بعضهما عن بعض يحدث آثاراً مريعة مدمرة، هى التى تحدثها القنابل الذرية والقنابل النووية!

ويكتشفون عجيبة أخرى: إن التفاعلات الكيميائية هى عملية ((تزاوج)) بين المواد المختلفة. ففى كل ذرة لأى عنصر من العناصر نواة موجبة تدور حولها مجموعة من الكهارب السالبة (تسمى الالكترونات))، عددها محدد فى كل عنصر، وتكون على هيئة دوائر متكاملة حول النواة، ولكن الحلقة الأخيرة من هذه الدوائر تكون ناقصة، هكذا هى فى خلقها الربانى، وأن العنصر الذى تكمل حلقته الناقصة حلقة عنصر آخر يمكن أن يتم بينه وبين العنصر الآخر تفاعل كيمياوى (أى تزاوج) وأن العنصر الذى اكتملت الحلقة الأخيرة لحسابه هو قاعدة التفاعل!

وللتمثيل نفترض أن عنصرا من العناصر تتكون كل حلقة من كهاربه السالبة (الإلكترونات) من ثمانية إلكترونات، وأن الحلقة الأخيرة مكونة من ستة إلكترونات فقط. فأيما عنصر تنتهى حلقته الأخيرة بإلكترونين اثنين يكون قابلاً للتفاعل مع ذاك العنصر، وتتم فى التفاعل عملية تزاوج يكمل فيها أحد العنصرين الآخر !

وهذه المعلومات كلها، التى لم تكن معلومة لأحد من البشر وقت نزول القرآن، هى التى تفسر قوله تعالى : ((ومن كل شيء خلقنا زوجين)). كما أنها تحقق ما أخبر الله به عباده أنه سيكشف لهم عن أسرار فى المستقبل، لم يكونوا يعرفونها وقت نزول القرآن، كما جاء فى قوله تعالى: ((سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق))([1]). ومن يدرى : ماذا يكشف الله غدا للناس من الآيات، فى الأنفس وفى الآفاق؟!

* * *

[1] سورة فصلت : 53

((وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون(68) ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون))([1])0

وأمر النحل معلوم من قديم 00

ولكن الجديد الذى أثبتته الأبحاث أن الترتيب فى الآية ما بين الجبال والشجر ما يعرشــون هــو ترتيب ((نوعى))! وليس مجرد تذكر للأماكن التى يرتادها النحل ويحصل منها على غذائه بــإذن ربــه! فعسل الجبال هو أغناها وأعلاها، وأكثرها فاعلية فى شفاء كثر من الأمراض، ثم يأتى بعده فى النوعيــة المستمدة من الشجر العالية، وأخيراً تأتى نوعية العسل المستمد من النباتات القصيرة القريبة من الأرض0

وسبحان الخلاق العظيم 00 وسبحان من علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم !

* * *

يقول تعالى: ((مرج البحرين يلتقيان(19) بينهما برزخ لا يبغيــان(20) فبــأى آلاء ربكمــا تكذبان))([2])0

وهذه من العجائب التى لم تكن معروفة للناس وقت نزول القرآن. إنما عرفت حديثا حين ســعى الإنسان إلى التعرف على ظواهر الطبيعة بوسائل علمية دقيقة0

إن الماء العذب الذى تصبه الأنهار فى البحار والمحيطات يظل محافظاً على عذوبته غير ممتزج بملوحة البحر مسافة طويلة داخل البحر، كأنهما معزولان أحدهما عن الآخر بذلك ((البرزخ)) الــذى يمنــع عدوان أحدهما على الآخر!

بل الأعجيب من ذلك، أن مياه البحر الأحمر لا تمتزج بمياه المحيط الهندى عند باب المندب– ذلك البرزخ الذى يفصل بين البحر والمحيط – مع أن كليهما ماء ملح. ولكن نسبة الملوحة مختلفة بين هذا الماء وذاك، فيظل أحدهما طافيا فوق الآخر لا يمتزج به!

---

[1] سورة النحل : 68-69

[2] سورة الرحمن : 19-21

بل العجب العجاب هو اكتشاف بحيرات عذبة فى باطن المحيطات، تظل عذبة وهى محاطة بالملوحة من كل جانب، فسبحان الخلاق العظيم 00 وسبحان الفتاح العليم !

* * *

يقول تعالى:((ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار))[1] 0

والسحب الركامية لا تظهر على حقيقتها للناظر إليها من أسفل، أى من فوق سطح الأرض، فإنما يبدو منها قاعدتها السفلية فقط، وهذه تكون ممتدة فى السماء بدرجة واحدة. أما حين تصعد إلى أعلى، فى الطائرة مثلا، فإنك ترى تراكم هذه السحب بعضها فوق بعض، فتراها على صورتها الحقيقية، وترى أنها طبقات، وليست طبقة واحدة كما تبدو للناظر من فوق سطح الأرض، وأنها ليست على ارتفاع واحد، وإنما يختلف ارتفاع طبقاتها بمقدار ما تراكم فى كل طبقة من بخار الماء، وأن بعضها يبدو كجبال معلقة فى الفضاء، جبال ذات قمم مختلفة الارتفاع!

هذا كله لم يكن معروفا قبل اختراع الطائرات، والسعود بها فوق مستوى السحب. وكان من المستحيل على بشر أن يتصور التراكم الذى تشير إليه الآية فى قوله تعالى : ((ثم يجعله ركاماً))، فكان هذا الوصف الدقيق لونا من الإعجاز العلمى، وكان اكتشاف البشر له بعد قرون من تنزل القرآن تحقيقا للوعد الربانى: ((سنريهم آياتنا 00)) فهو إعجاز مزدوج؛ إذ هو وصف لأمر لم يكن البشر يعرفون صفته فى ذلك الحين، وإخبار فى الوقت ذاته بأنهم سيعرفونه فى مستقبل أيامهم0

* * *

يقول تعالى : ((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون))[2] 0

---

[1] سورة النور : 43

[2] سورة الأنعام : 125

وضيق النفس مع الصعود فى السماء تجربة لم يجربها البشر قط إلا بعد اختراع الطائرات! فقد عرفوا حينئذ أن الأوكسجين يقل فى طبقات الجو العليا عن معدله على سطح الأرض، وأن الضغط الجوى يخف كلما اتجهنا صعدا، فتضيق الأنفاس، وتحس الصدور بالحرج0

ولكن أنى للبشر وقت نزول القرآن أن يعرفوا هذا الأمر وهم لم يكونوا قد صعدوا إلى السماء، ولا جربوا كيف تكون الصدور عند التصعيد!

إنه كذلك إعجاز مزدوج: إعلام بأمر كان الناس يجهلونه يومئذ، وإيحاء بأنهم سيعرفونه ذات يوم!

* * *

يقول تعالى : ((والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون))([1])0

وقبل سنوات قليلة لم يكن الناس يعرفون شيئا عما يجرى فى الآماد البعيدة من السماء. فقد كانت أدوات الرصد عندهم محدودة المدى، تدرك وجود الكواكب، وتدرك وجود المجرات فى السماء، وتقدر أنها تبلغ الملايين عدا، ولكنها نلا تدرك أن هناك اتساعا دائما فى الفضاء، وأن المسافات تتباعد بين بضع الأجرام السماوية وبعض! ولم يدركوا ذلك حتى اخترعوا مناظير من أنواع أخرى تخترق الأغوار البعيدة فى الفضاء، ومركبات فضاء تسجل حركة الأفلاك على أبعاد هائلة من الأرض00

وكلما اتسعت معارف الإنسان ومخترعاته وجد جديداً فى كتاب الله لم يكن يفطن إليه، أو لم يكن يدرك أسراره. وصدق رسول الله ﷺ : ((لا تنفد عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد))([2])0

* * *

يلفت النظر ولا شك أن أيا من الكتب المنزلة السابقة لم يحو شيئا من هذه الإشارات الكونية الواردة فى القرآن . والله أعلم بما ينزل0

---

[1] سورة الذاريات : 47

[2] سبقت الإشارة إليه 0

فقد شاء الله أن يتميز الكتاب الذى يحمل كلمة السماء الأخيرة للبشرية كافة بخصائص لا توجد فى غيره 0

كانت الرسالات السابقة محدودة بأقوام معينين، ومحدودة بزمن معين ينتهى بإرسـال رسـول جديد، بينما هذه الرسالة للبشر كافة، وللزمن كله من مبعث رسـول الله ﷺ إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها. فكانت الكتب المترلة السابقة تحوى احتياجات الأقوام الذين تترل عليهم فى الزمن المحدد فى علم الله . أما القرآن، فقد أنزل الله فيه ما تحتاج إليه البشرية كلها، وفى الزمن القادم كله. فلا عجب أن يختلف عن الكتب السابقة فى مبناه وفى محتوياته، وإن كان مصدقا لما فيها، ولكن مهيمناً عليها :

((وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه 00))([1])0

والإعجاز العلمى كان واحدا من جوانب التميز التى تفرد بها هـذا الكتـاب 00 وانكـشاف الحقائق العلمية التى يحتويها الكتاب للبشر جيلا بعد جيل هو جانب من جوانب استمرارية الرسالة الـتى نزل بها الكتاب! فهو ليس لجيل واحد تنتهى مهمته بعدها، أو تنقطع صلة الأجيال به، بل هو لكل الناس فى كل جيل، يهديهم إلى ربهم، ويوجههم إلى الخير وإلى الحق، ويربيهم على المنهج القويم، ويعلمهم مـا لم يكونوا يعلمون!

المستشرقون والقرآن

أشرنا فى المقدمة إلى تلك المحاولة الساذجة التى قام بها أحد الشباب المتأمركين ليقلد ليقلد أسلوب القرآن ثم يقول: ها أنذا قد أتيت بمثله 00 فهو إذن صناعة بشرية وليس مترلا من عند الله!

وفى ختام البحث نشير إلى المستشرقين0

إذا كان ذلك الشاب قد قام بمحاولة ساذجة فجة ليـشفى غليلـه مـن الإسـلام والقـرآن، فالمستشرقون يقومون بجهد منظم دءوب، ينفق بعضهم فيه عمره، وتنفق عليهم دولهم الملايين، للتشكيك فى المصدر الربانى للقرآن، ومهاجمته بكل وسيلة لعلهم يصلون إلى شىء يشفى الغليل!

((وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون))([1])0

---

[1] سورة المائدة : 48 0

((000 وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم))([2])0

قضية قديمة تكرر ، وموقف معلومة دوافعه !

* * *

إن هذا الكتاب الذى عرضنا بعض جوانب الإعجاز فيه، لا على سبيل الحصر ولكن على سبيل التمثيل.. الكتاب الذى يأخذ النفس البشرية من جميع جوانبها، وينفذ إليها من جميع أقطارها، ويتناول جميع مجالات حياتها، ويمنحها منهجا متكاملا، يشمل عقيدتها وسلوكها، وسياستها واجتماعها واقتصادها، ودنياها وآخرتها.. فى أسلوب معجز متفرد 00

هذا الكتاب موضع غيظ شديد فى قلوب الذين لا يؤمنون به :

((00 قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد))([3])0

وأغيظ ما يغيظ أعداء الإسلام أن المسلمين يؤمنون إيماناً لا يتزعزع بأن كتابهم هو الكتاب الحق، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الله حفظه بحفظه فلم يتبدل منه حرف منذ نزل من عند الله0

يغيظهم ذلك فيسعون جاهدين إلى نفى الوحى، ونفى المصدر الربانى للقرآن، ونسبته إلى الرسول ﷺ ، وهو إفك قديم قالته الجاهلية العربية من قبل، وما تزال كل جاهلية تردده!

* * *

((وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله 00))([4])0

---

[1] سورة فصلت: 26

[2] سورة الأحقاف: 11

[3] سورة فصلت : 44

[4] سورة يونس : 37

ليس فقط بأسلوبه المعجز، ولكن كذلك بمحتوياته، وبكون هذه المحتويات – بكل شمولها وتكاملها – معروضة بهذا الأسلوب المعجز .. أى أنه إعجاز فوق إعجاز0

لو أن الإعجاز كان فى الأسلوب وحده، الذى عجز الناس خلال القرون عن أن يأتوا بمثله، لكان هذا كافياً لإثبات مصدره الربانى، ودليلا قاطعا على صدق رسول الله ﷺ فى دعواه أنه رسول مرسل من عند الله، وأنه لا ينطبق عن الهوى ((إن هو إلا وحى يوحى))([1])0

فكيف إذا كان الإعجاز موضوعيا إلى جانب الإعجاز البيانى؟

هل تأتى لبشر فى التاريخ كله أن يؤلف كتابا يحوى من الحقائق ما جاء به القرآن الكريم؟

خذ حقيقة الألوهية وحدها، وما جرى فيها على أيدى البشر من تخبطات مقارنة بصفاء الوحى وشفافيته، ووضوحه وتألقه، وعمقه ونصاعته0

وخذ إلى جانبها عشرات الحقائق الواردة فى كتاب الله : حقيقة خلق الإنسان. حقيقة الدنيا والآخرة. حقيقة البعث والنشور والحساب والجزاء .. حقيقة القيم التى ينبغى أن تحكم حياة الإنسان فى الأرض. حقيقة الكون المادى وما يجرى فيه حقيقة المهمة التى خلق الإنسان من أجلها. حقيقة الإيمان. حقيقة المعركة القائمة بين الإيمان والكفر. حقيقة السنن الربانية التى تحكم حياة البشر00

أى كتاب من صنع البشر جمع هذا الحشد من الحقائق بالتناسق الذى عرضت به فى هذا الكتاب، وبقوة التأثير الذى يبعثه فى النفوس هذا الكتاب؟

وأى بشر تبلغ اهتماماته هذا الشمول الذى لا يغادر شيئا من أساسيات الحياة إلا ويتعرض له، ويتعرض له فى عمق وتمكن مثل ما جاء فى هذا الكتاب؟

وأى بشر تبلغ اهتماماته هذا الشمول الذى لا يغادر شيئا من أساسيات الحياة إلا ويتعرض له، ويتعرض له فى عمق وتمكن مثل ما جاء فى هذا الكتاب؟

ولكن المستشرقين لهم فى ذلك تخرصات!

---

[1] سورة النجم : 4

يقولون : لقد جاء محمد ﷺ بما جاء به نقلا من كتب أهل الكتاب، أو سطوا عليها، أو تلقيا من أصحابها!

وما أحسب أن فرية يمكن أن تبلغ من الكذب المفضوح أشد من هذه الفرية!

كيف يتأتى للذى ينقل من كتاب يقول إن الله ثالث ثلاثة أن يقرر أن الله واحدا؟ وكيف يتأتى للذى ينقلب من كتاب يقرر أن لله ولدا يشاركه فى الألوهية، أن يقرر أن الله لا شريك له ولا ولد؟!

وكيف يتأتى للذى ينقل من كتب لم تترك نبيا من أنبياء الله إلا لطخت سمعته وشوهت صورته، واتهمته بما لا يجوز فى حق الرجل العادى فضلا عن النبى المرسل، أن يسرد سير الأنبياء وقصصهم بالنصاعة والطهر والسمو الذى وردت به سير الأنبياء فى القرآن؟!

وكيف يتأتى للذى ينقل من كتب لم تتعرض لآيات الله فى الكون، ولا لأطوار الجنين البشرى من النطفة للعلقة للمضغة للعظام لاكتمال التكوين، أن يسرد فى كل هذه الأمور حقائق لم يتعرف العلم عليها إلا منذ زمن قريب؟!

ألا تستحى هذه الناس؟!

((ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون))([1])

ولكن المعركة لن تكف :

((ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا))([2])

فعلى المسلمين من جانبهم أن يعرفوا حقيقة دينهم، وحقيقة الكتاب المنزل إليهم، وأن يقدروه حق قدره، وأن يتدبروه ليعرفوا عظمته وإعجازه :

((أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً))([1])

---

[1] سورة الأنعام : 21

[2] سورة البقرة : 217

وأهم من ذلك كله أن يعملوا بما فيه، فإنما نزل ليكون منهج حياة لخير أمة أخرجت للناس0

ويوم يرجعون إلى كتابهم فيتدبرونه ليعملوا بمقتضاه، ستعود لهم خيريتهم، وسيعود لهم الـــتمكين الذى كان لهم فى الأرض، وسيقومون بالشهادة على كل البشرية كما أمرهم الله :

((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً))([2])0

[1] سورة النساء : 82

[2] سورة البقرة : 143